

زَادُ الْعَامِلِينَ
م. بِالْمَعْنَى
فِي شَرْحِ الْأَرْبَعِينَ

زَادُ الْعَامِلِينَ
مُحَمَّدٌ رَحْمَةً
فِي شَرْحِ الْأَرْبَعِينَ

تَأْلِيفَ

الدكتور همام عبد الرحيم سعيد الدكتور هيثم عبد الغفور صبري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيّه من خلقه وخليله، بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يتنكبها إلا ضال، فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

فهذا كتاب زاد العاملين في شرح الأربعين، نقدمه للمسلمين عامّة، ولطلبة العلم، ولأبناء الدعوة الإسلامية خاصّة، وهو شرح لاثنتين وأربعين حديثاً جمعها الإمام النووي رحمه الله تعالى، على منهج كثيرٍ ممن سبقه من العلماء في جمع أربعين حديثاً في موضوعات مختلفة. كابن المبارك والدارقطني والحاكم وغيرهم. وقد قال النووي في مقدمته لهذه الأربعين: «من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلُّها مقاصد صالحة رضي الله تعالى عن قاصديها. قد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام، أو ثلثه، أو نحو ذلك».

علماً بأن النووي رحمه الله بنى الأربعين حديثاً هذه على مجلس لابن الصلاح عقده لإملاء عدد من الأحاديث في قواعد الإسلام، بلغت ستة وعشرين حديثاً، سماها «الأحاديث الكلية»، أخذها الإمام النووي وأتمها إلى اثنتين وأربعين حديثاً^(١).

(١) ذكر ذلك ابن رجب في مقدمته لجامع العلوم والحكم.

وقد وقعنا على شرح للنووي رحمه الله لهذه الأربعين سماه «شرح الأربعين حديثاً في مباني الإسلام وقواعد الأحكام» وهو مخطوطة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. برقم ٠٢٢٦٥-١. وهو أصدق عنوان لهذه الأربعين. وللشرح هذا عدة طبعات بغير هذا الاسم.

وقد التزم النووي في هذه الأربعين كما قال: «أن تكون صحيحة، ومعظمها في صحيح البخاري ومسلم». كذا قال، علماً بأن بعضها في أسانيده مقال، قد ينزل بها عن مرتبة الصحيح، لكنها من الأحاديث التي لها شواهد في الكتاب والسنة، وتلقاها العلماء بالقبول، مما يجعلها صالحة للاحتجاج بها، والارتقاء بها إلى درجة الحسن أو الصحيح.

منهجنا في الشرح

- وقد أبرزنا غرض الإمام النووي رحمه الله من جمع هذه الأحاديث، التي يمكن أن نسميها: قواعد الإسلام وأصوله، ومن خلالها نقرأ الإسلام كله على شكل قواعد منضبطة، في العقيدة والأحكام والأخلاق، وقد حرصنا على التأكيد على هذه الخصيصة التعقيدية من خلال أول عنوان في الشرح، وهو: أهمية هذا الحديث. فإن هذه القواعد لا غنى للمسلم عنها، وهي زاد الداعية، كما أنها موجّهات إرشادية للمجتمع المسلم، يحسن تعميمها في المدارس والجامعات ومحاضن التربية، وأن تتعاهدها البيوت والأسر بالحفظ والفهم والتطبيق العملي. وما أحوجنا إلى جمع أربعين آية من كتاب الله تعالى، تكون قواعد وأصولاً، تجمع لنا الإسلام، كما جمعته هذه الأحاديث.

- تجنبنا الكلام فيها صحة وضعفاً، لما ذكرناه من قبل في منهج النووي في انتقائه لها، واشترطه الصحة فيها، ولما لها من شواهد في الكتاب والسنة، وتلقي الأمة لها بالقبول.

- كانت عنايتنا كبيرة بربط الحديث بآيات القرآن الكريم، لتكون الآيات شارحة للحديث، ولنستخرج من خلال الحديث والآيات مادة غنية بالإرشادات والتوجيهات التربوية والدعوية.

- ولم ننس في هذا الشرح أن نرد بعض الشبهات والمطاعن الموجهة إلى السنة النبوية الشريفة.
- ركزنا في هذا الشرح على المفاهيم والقيم، أكثر من العناية بالشرح اللغوي والبياني، والخلافات العقدية والفقهية، سيراً مع أهداف الحديث التربوية والدعوية والاجتماعية والسلوكية.
- وتوخينا فيه سهولة العبارة، ومباشرة المعاني، مع شيء من الاختصار غير المخل، ليصلح هذا الشرح لمختلف المستويات العلمية والتربوية. وشرحنا الحديث شرحاً مناسباً للعصر، مستعينين بوسائل العصر وأساليبه وإنجازاته ما أمكن.
- وقد ضمنا الشرح ما نعيشه من أحداث العصر، ووقائعه، وأبرز محطاته التاريخية والسياسية والدعوية، وجعلنا لقضايا الأمة الرئيسة وأولياتها واعدائها ومواقف الصراع مع هؤلاء الأعداء نصيباً وافراً من هذا الشرح. وقد سرنا في هذا الشرح مع سياق شرحنا في كتاب «الأربعون في فروض الأمة». بما يتضمنه من قضايا الأمة ومشكلاتها.
- كما حرصنا على ربط هذا الشرح بأطوار الصحوة الإسلامية المعاصرة، مع استشراف مستقبلها وبشائر انتصارها، والإلماح إلى عقبات طريقها وحلول مشكلاتها.
- والحمد لله أولاً وآخراً، ونسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلفان

في ٤ ربيع الثاني ١٤٤٠ هـ

١١ تشرين الثاني ٢٠١٨ م

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، قيوم السماوات والأرضين. مدبر الخلائق أجمعين. باعث
الرسل - صلواته وسلامه عليهم - إلى المكلفين لهدايتهم وبيان شرائع الدين بالدلائل
القطعية، وواضحات البراهين. أحمده على جميع نِعَمه. وأسأله المزيد من فضله
وكرمه.

وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار. الكريم الغفار. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده
ورسوله وحبيبه وخليفه أفضل المخلوقين، المكرم بالقرآن العزيز المعجزة المستمرة
على تعاقب السنين، وبالسنن المستنيرة للمسترشدين المخصوص بجوامع الكلم
وسماحة الدين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين وآل كل وسائر
الصالحين.

أما بعد: فقد رَوَّينا عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل،
وأبي الدرداء، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي سعيد
الخُدري رضي الله تعالى عنهم، من طرقٍ كثيرات، بروايات متنوعة: أن رسول الله
ﷺ قال: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها، بعثه الله يوم القيامة في زُمرة
الفقهاء والعلماء» وفي رواية: «بعثه الله فقيهاً عالماً».

وفي رواية أبي الدرداء: «وكنت له يوم القيامة شافعاً وشهيداً». وفي رواية ابن مسعود:
قيل له: «ادخل من أي أبواب الجنة شئت». وفي رواية ابن عمر: «كُتِبَ في زُمرة العلماء
وحُشِرَ في زُمرة الشهداء». واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كُثِرَ طرقه.

وقد صنَّف العلماء رضي الله تعالى عنهم في هذا الباب ما لا يُحصى من المصنِّفات.
فأول مَنْ علمته صنَّف فيه: عبد الله بن المبارك، ثم محمد بن أسلم الطُّوسي العالم

الرباني، ثم الحسن بن سفيان النسائي، وأبو بكر الآجري، وأبو بكر بن إبراهيم الأصفهاني، والدارقطني، والحاكم، وأبو نعيم، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو سعيد الماليني، وأبو عثمان الصابوني، وعبد الله بن محمد الأنصاري. وأبو بكر البيهقي، وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين، وقد استخرتُ الله تعالى في جمع أربعين حديثاً اقتداءً بهؤلاء الأئمة الأعلام وحُفَظَ الإسلام. وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال.

ومع هذا فليس اعتمادي على هذا الحديث، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»^(١)، وقوله ﷺ: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها»^(٢).

ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله تعالى عن قاصديها.

قد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك.

ثم ألتزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة، ومعظمها في صحيح البخاري ومسلم، وأذكرها محذوفة الأسانيد، ليسهل حفظها، ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى، ثم أتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها^(٣). وينبغي لكل راغب في الآخرة أن

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكر نفيع بن الحارث.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٨٤٧)، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت. ونُصِّر: أي حسنه وجمله.

(٣) وجدنا هذا الباب في بعض النسخ المخطوطة للأربعين دون بعض - انظر مكتبة الألوكة على الرابط: <https://www.alukah.net/library/119062/0>

يعرف هذه الأحاديث، لما اشتملت عليه من المهمات، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات وذلك ظاهر لمن تدبره، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي وله الحمد والنعمة، وبه التوفيق والعصمة.

الحديث الأول

حياة المسلم كلها لله

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقّب بأمير المؤمنين، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يُضرب بعدله المثل. كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، وله السّفارة فيهم، يُنافر عنهم ويُنذر من أرادوا إنداره. أسلم قبل الهجرة بسبع سنين، وشهد الوقائع. قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر. وقال عكرمة: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر. وكانت له تجارة بين الشام والحجاز. وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر (سنة ١٣ هـ) بعهد منه. وفي أيامه تم فتح الشام والعراق، وافتتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة. حتى قيل: انتصب في مدته اثنا عشر ألف منبر في الإسلام. وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري، وكانوا يؤرّخون بالوقائع. وأتخذ بيت مال المسلمين، وأمر ببناء البصرة والكوفة فبنيتا. وأول من دوّن الدواوين في الإسلام، جعلها على الطريقة الفارسية، لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات عليهم.

وكان يطوف في الأسواق مُنفرداً. وَيَقْضِي بين الناس حيث أدركه الخصوم. وكتب إلى عُمّاله: إذا كتبتم لي فابدأوا بأنفسكم. وروى الزهري: كان عمر إذا نزل به الأمر المُعْضِل دعا الشبان فاستشارهم، يبتغي حِدَّةَ عقولهم. وله كلمات وخطب ورسائل غاية في البلاغة. وكان أول ما فعله لما ولي، أن ردَّ سبَايا أهل الردة إلى عشائريهن، وقال: كرهت أن يصير السبي سبَّةً على العرب.

وكانت الدراهم في أيامه على نقش الكسروية، وزاد في بعضها: «الحمد لله»، وفي بعضها: «لا إله إلا الله وحده»، وفي بعضها: «محمد رسول الله».

لقبه النبي ﷺ بالفاروق، وكناه بأبي حفص. وكان يقضي على عهد رسول الله ﷺ. قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسي (غلام المغيرة بن شعبة) غيلةً، بخنجرٍ في خاصرته، وهو في صلاة الصبح، سنة ٢٣ للهجرة^(١).

معاني الغريب

النية: هي القصد من العمل وإرادته والتوجه فيه. وفي الشرع: هي توجه القلب لرضا الله تعالى في العمل.

الهجرة: في اللغة: قال ابن فارس: (هجر) الهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شدَّ شيء وربطه. قلنا: وفي الهجرة معنى التَّرك والانتقال، ومعنى والوصل، وهما معنيان مُتلازمان في الهجرة: الأول: في الشيء المتروك، والثاني في الشيء المأتي.

وفي الشرع: هي الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام. وهي هنا الانتقال من مكة إلى المدينة.

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ص ٧١، و«الأعلام» للزركلي ٤٥/٥.

وتطلق الهجرة على ترك المنكرات، قال الله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، وفي الحديث عند البخاري^(١): «والمهاجر من هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه». يصيبها: ينالها.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث ومكانته في الإسلام

تواتر عن العلماء بيان أهمية هذا الحديث ومنزلته في الإسلام، فهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، فهو أصل في إصلاح النية وإخلاصها لله سبحانه، وقد عدّه بعض العلماء بأنه نصف الدين، فإنَّ الدين إما باطنٌ وهو النية، وإما ظاهرٌ وهو العمل. وقال بعضهم بأنه يدخل في سبعين باباً من أبواب الفقه، قلنا: بل إنَّه يدخل في جميع أبواب الفقه، فما من عمل يقوم به المسلم إلا واصطحبُ النية وتصحيحها مطلوبٌ فيه.

لذا نجد أن الإمام البخاري رحمه الله تعالى بدأ كتابه العظيم «الجامع الصحيح» بهذا الحديث، لبيان أثره في سائر الأبواب التي تأتي بعده، وكذا كثير من العلماء، من مثل تقي الدين المقدسي في «عمدة الأحكام»، والنووي في «المجموع»، وفي «الأربعين» هذه التي نشرحها، و«رياض الصالحين»، وكذا السيوطي في «الجامع الصغير» وغيرهم.

وقد أفرد له كثير من العلماء تصانيف مستقلة في شرحه وبيان معانيه، من مثل ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» وابن الفراء الحنبلي في «المُقنع في النيات»، وابن تيمية في «شرح حديث إنما الأعمال بالنيات» وغيرهم. ومن أنفع الكتب في هذا الباب كتاب علامة العصر الشيخ القرضاوي: «النية والإخلاص».

(١) برقم (١٠).

شهرة معنى هذا الحديث

ويعد هذا الحديث من المعلوم من الدين بالضرورة لدى الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المسلمين، فإنه لا يُعقل أن يأتي النبي الكريم ﷺ بالتوحيد الخالص لله، والتوجه إليه بالعبادة وحده لا شريك له، ثم يكون في قلب المسلم سوى الله في أعماله، فقد جاءت النية في القرآن بالفاظ عديدة، منها: الإرادة، والابتغاء، والمشية، والوجهة، والإخلاص، فقد قال الله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، وقال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي، فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤ - ١٥].

وقد كثر في حديث النبي ﷺ وتوجيهاته للصحابة أن يُفردوا التوجه إلى الله في أعمالهم، من مثل قوله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ»^(١).

وقوله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٦).

يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيَقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

وقوله ﷺ: «يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟! قَالَ: «يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»^(٢).

وقوله ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٣).

التوجه إلى الله بالنية الصالحة سبب قبول الأعمال

كرم الله الإنسان بأن جعل أعماله الصادرة عنه منتسبة إليه، وجعله مسؤولاً عنها، ويبدأ هذا الانتساب وهذه المسؤولية من لحظة انقذاح أصل الفعل في القلب، وهذا القصد الخفي هو الذي يُحدّد وجهة العمل وغايته، وفي هذا الجانب الناس سواء، وأما في حديث الباب فقد فصل النبي ﷺ في هذا الأمر، متدرجاً فيه، ففي البداية بيّن أن جميع الأعمال مُرتبطة بمقاصدها، ثم انتقل بعد ذلك إلى قسمة هذه المقاصد إلى قسمين: المقاصد التي يُبتغى بها وجهه تعالى، والمقاصد التي لا يُبتغى بها وجهه الله تعالى. وفي المُحصّلة فإنّ قبول الأعمال وإجراء الثواب عليها مرتبط بالنية الخالصة لله تعالى، وذلك عندما يكون المقصد من العمل وجهه الله تعالى.

والنية أصل في جميع الأعمال، سواء ما كان منها على سبيل الطلب تركاً، أو فعلاً، أو على سبيل الإباحة، حيث تدخل النية على الأعمال، فتكون سبباً في قبولها، إن

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

كانت على سبيل الطلب، وتكون سبباً في تحويل المباحات والعاديات إلى عبادات مقبولة عند الله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

الهجرة فرق بين الحق والباطل

وقد خص النبي ﷺ الهجرة في هذا الحديث من بين سائر الأعمال، لمكانة الهجرة من الدين، وأثرها العظيم في التمكين للدعوة الإسلامية، وقيام دولة الإسلام. ولذلك أرّخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بها كتبه وأعماله. فقد كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر: إنه تأتينا منك كتبٌ ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرّخ لمبعث رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: لمهاجر رسول الله ﷺ، فقال عمر: لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ، فإن مهاجرة فرق بين الحق والباطل^(١). وعليه سار المسلمون في تأريخهم في حياتهم العامة، وتأريخهم للحضارة الإسلامية فتجد المحدثين والمؤرخين يؤرخون بها للأحداث في اليوميّات والحوليات والوفيات.

فكانت الهجرة فارقاً بين عهدين، عهد الاستضعاف وعهد التمكين، وكان النبي ﷺ حريصاً على لزوم المهاجرين لدار هجرتهم، فقال: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردّهم على أعقابهم»^(٢).

وبما أن الهجرة من أعلى مقامات العبادة، طُلبت لها النية الخالصة، وأن لا تشوبها شائبة، لذا جاء ذكرها في هذا الحديث، وربطها بالنية قبولاً ورداً.

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ٣٨٨/٢.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

الحديث أصل في تحرير المقاصد وصلاح المجتمع

هذا الحديث أصل في تحرير المقاصد والغايات والتوجهات والأهداف والإرادات، حتى يكون صاحبها مخلصاً في إنشائها، يبتغي رضوان الله تعالى وثوابه، وما يكون في ذلك من إصلاح الفرد والجماعة والحياة الإنسانية كلها، فلا تُبنى هذه الأمور إلا على قاعدةٍ راسخة من النية الصالحة، والتوجه السليم إلى الله تعالى وفق مُرادِه وشريعته.

قال العلامة القرضاوي^(١): وليس تشديد الإسلام في طلب الإخلاص، وتأكيدُه على تجريد النية لله، وتصحيح الاتجاه إليه وحده ضرباً من التزمت والعبث، فإنَّ الحياةَ نفسُها لا تستقيم ولا ترتقي إلا بالمُخلصين، وأكثرُ ما يصيبُ الأمم والجماعات من النكبات والكوارث القاصمة إنما يَجْرُءُ عليها أناسٌ لا يرجون الله والدار الآخرة، أناسٌ من عبيد الدنيا وعُشاق الثروة، الذين لا يُبالون في سبيلِ دنياهم وشهواتِ أنفسهم أن يُدمِّروا دنيا الآخرين ودينهم معاً، وأن يحولوا الأبنية إلى خرائب، والمنازل إلى مقابر، والحياة إلى مواتٍ.

ويظهر هذا في جوانب الحياة المختلفة، فإخلاص الطبيب في علاجه لمرضاه، والنصح لهم، أدعى إلى تحقيقِ الشفاء والانتفاع بالدواء، والمُعلم في تربية طلابه، وتعليمهم، والنصح لهم، أدعى إلى تحقيقِ غاية العلم ووظيفته. والتاجر في تجارته، والصانع في مصنعه، والعامل في مهنته، والوزير في وزارته، والنائب في مجلسه، فلو أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء وغيرهم من أصحاب الأعمال والوظائف في المجتمع أخلصَ في عمله ورسالته، لكانت المجتمعات والحياة بأسرها على خير ما يرام.

ولا تقل أهمية النية الصالحة في عالم الدعوة والدعاة عن سائر مجالات الحياة، بل هي أدعى وأولى، لأن الدعوة إلى الله هي رأس الأمر وأساسه ومبناه، ولا يخفى على أحدٍ ما حقَّقه إخلاص الدعاة والعلماء الربانيين من ثمراتٍ عظيمة، سيبقى أثرها إلى

(١) في «النية والإخلاص» ص ١٤.

قيام الساعة، وما سيرة الصحابة وآلاف العلماء عبر التاريخ، من أمثال الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والعز بن عبد السلام، والنووي، وغيرهم قديماً، وحسن البنا، وسيد قطب، والمودودي، وعبد الرحمن السميّط، وغيرهم حديثاً، رحمهم الله جميعاً إلا شواهد حاضرة في هذا المقام.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - النية الصالحة أساس قبول الأعمال.
- ٢ - النية الصالحة أساس في تحقيق المقاصد والغايات والأهداف والتوجهات.
- ٣ - النية الصالحة مطلوبة في جميع شؤون الحياة من الأعمال والأقوال، وبها صلاح الدين والدنيا.
- ٤ - يبلغ المسلم بنيته الصالحة ما لم يبلغه بعمله.
- ٥ - لعظم مكانة الدعوة إلى الله كان الدعوة والعلماء أحوَج الناس إلى إصلاح نواياهم، وإخلاصها لله تعالى.

الحديث الثاني

أركان الدين

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يُسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قال: فأخبرني عن الساعة؟

قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قال: فأخبرني عن أمارتها؟

قال: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»
 قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.
 قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رواه مسلم^(٨).

معاني الغريب

العالة: جمع عائل وهو الفقير.

رِعاء: جمع راعٍ.

الشاء: جمع شاة.

مليا: وقتا طويلا.

سبب ورود الحديث

جاء في رواية أبي هريرة^(١)، قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوني»، فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل، فجلس عند ركبتيه... فذكره. فيكون هذا الحديث قد ورد في معرض طلب النبي ﷺ إلى أصحابه أن يسألوه، وهذا بعد أن كانوا نهوا عن المسألة بنص القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. فهابوا أن يسألوه، خشية الوقوع في المحذور، فجاءهم جبريل عليه السلام، يُعَلِّمُهُم آداب المسألة ومضامينها، بعد أن كان البعض منهم - وهم قلة - يسأل أسئلة، لا غناء بها، ولا قيمة لها، فيسأله عن أبيه وأمه وضالته.

وسورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن، وقد جاء في بعض الروايات أن سبب نزول الآية هو السؤال عن وجوب الحج في كل عام؟ والحج إنما فرض في السنة التاسعة، على الأرجح من أقوال العلماء. وعليه فيكون هذا الحديث قد جاء في أواخر

(١) عند مسلم برقم (١٠).

العهد المدني، ليبين للناس أمور دينهم، بكلياته ومهامه وتكامله وشموله لأمر الدين والدنيا من الأعمال القلبية والبدنية.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

اشتمل هذا الحديث على مهمات الدين وأركانه العظام، كما اشتمل على الإسلام والإيمان والإحسان والساعة، واشتمل على بعض آداب العالم والمتعلم.

من آداب العالم والمتعلم

في هذا الحديث دروس عظيمة في آداب العالم والمتعلم، وفي اتباع الأساليب البديعة في إجراء عملية التربية والتعليم، فقد جاء جبريل إلى مجلس النبي ﷺ بهذه الهيئة الكاملة، من حيث بياض الثياب ونظافتها، وسواد الشعر ونظافته، وطيب رائحته، كما جاء في رواية أبي هريرة، وأبي ذر: «إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً، وأطيب الناس ريحاً، كأن ثيابه لم يمسسها دنس»^(١). وهذا تعليم لطلبة العلم أن يعدوا لمجلس العلم عُدَّتَه.

ثم دخل على النبي ﷺ بمنتهى الأدب، فهو يستأذن مرة بعد مرة، بلطف ورفق، ففي رواية عند الإمام أحمد^(٢): فجاء رجل فقال: يا رسول الله، أدنو؟ فقال: «ادنه» فدنا رتوة^(٣)، ثم قال: يا رسول الله، أدنو؟ فقال: «ادنه» فدنا رتوة، ثم قال: يا رسول الله، أدنو؟ فقال: «ادنه» فدنا رتوة، حتى كادت أن تمس ركبته رتبة رسول الله ﷺ.

(١) عند النسائي برقم (٤٩٩١) وإسناده صحيح.

(٢) برقم (٣٧٥) من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

(٣) رتوة: أي: خطوة.

وفي الاقتراب من النبي ﷺ حتى أسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذي النبي ﷺ إثارة انتباه الحاضرين، ليهيئهم للاستماع، وتلقي العلم، فهو معلم للصحابة في موقف المتعلم، علماً بأن النبي ﷺ كان جالساً على كرسي من طين، كما في رواية أبي هريرة وأبي ذر التي سلف ذكرها: قالوا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهرائي أصحابه، فيجيء الغريب، فلا يدري أيهم هو، حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبينما له دُكَّانا من طين، كان يجلس عليه، وإنا لجلوسُ ورسول الله ﷺ في مجلسه، إذ أقبل رجل... الحديث^(١).

وفي جلوس النبي ﷺ على كرسي من طين، وبروزه عن الصحابة استحباب جلوس العالم بمكان يختص به، ويكون مرتفعاً إذا احتاج لذلك، لضرورة تعليم ونحوه^(٢).
أما الأسئلة التي أثارها جبريل عليه السلام، ففيها تنبيه للصحابة على أمرين: أولهما: موضوع الأسئلة التي ينبغي الاهتمام بها، والسؤال عنها. وثانيهما: كيفية إلقاء السؤال، حيث كان موجزاً ومفهوماً.

أما جواب النبي ﷺ، فكان من جوامع الكلم، وكان يتضمن السؤال مع الجواب، فلما سأله عن الإسلام قال النبي ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله... وكذا جوابه ﷺ عن الإيمان والإحسان. وفي هذا تنبيه للمعلم أن يكون جوابه عن المسائل بربط الجواب بالسؤال، إذا أراد أن يسمع البعيد عنه، أو من لم يسمع السؤال.

وفي جوابه ﷺ بالكليات والأركان دون الدخول في الفرعيات والتفاصيل، مراعاة العالم التدرج في تعليم المسائل، فيبدأ بالكلي قبل الجزئي، والواضح قبل الغامض، والأصل قبل الفرع. وهو ما يعرف بالربانية في العلم، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

(١) انظر «فتح الباري» ١/ ٢٤٨.

(٢) هذا استنباط القرطبي من الحديث. انظر «فتح الباري» ١/ ٢٤٨.

وفي تصديق جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ أدب المتعلم في الأخذ والتلقي من معلمه، والثقة والاطمئنان لما عنده من العلم.

سؤاله عن الإسلام

يستفاد من هذه الأسئلة أن الدين ينقسم بشكل عام إلى ظاهر وهو عمل الجوارح، وباطن وهو عمل القلب، ويطلق مصطلح «الإسلام» على عمل الجوارح، ومصطلح «الإيمان» على عمل القلب.

لكن عند التحقيق نقول بأنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، بمعنى أنهما إذا اجتمعا في نص واحد أو سياق واحد افترقا في المعنى، فكان معناهما على ما ذكرنا: أحدهما للجوارح، والآخر للقلب. وإذا افترقا، أي ذكر أحدهما دون الآخر، فإنما يراد به الدين كله، ظاهره وباطنه.

ومما ورد في اجتماعهما في سياق واحد قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. ففي هاتين الآيتين جاء المصطلحان في سياق واحد، فيصرف كل منهما إلى معنى مختلف عن الآخر، على ما أسلفنا.

ومما جاء في انفراد أحدهما عن الآخر، فيكونان بمعنى واحد، وهو هذا الدين، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]. وقول النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة

من الإيمان»^(١). وعن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَوْ فِدَ عَبْدُ الْقَيْسِ: «أَمُرُّكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَأَكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمُرُّكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ»^(٢).

وفي حديث جبريل هذا اجتمع الإسلام والإيمان في سياق واحد، فاختلفا في المعنى، فكانت إجابة النبي ﷺ عن الإسلام متضمنة أركانه الخمسة، وكلها من أعمال الجوارح الظاهرة، كما جاء في حديث ابن عمر الآتي بعد هذا الحديث، في هذه الأربعين: «بني الإسلام على خمس». وسنتناول شرحه هناك إن شاء الله تعالى.

سؤاله عن الإيمان

وكذلك الشأن في إجابة النبي ﷺ عن الإيمان، فقد تضمنت أركان الإيمان، التي تقع كلها في أعمال القلوب الباطنة، وهي ستة أركان، كما جاء في هذا الحديث، لا يُنقص منها، ولا يُزاد فيها، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في كثير من آياته: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣ - ٤]. وقال تعالى: ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، أما الإيمان بالقدر فهو من لوازم الإيمان بالله تعالى، فهو من أفعاله وصفاته، وقد ذكر القضاء والقدر في كثير من آيات القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقال سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٥٦)، ومسلم (١٧).

بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿٤﴾ [الإسراء: ٤].
وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

والإيمان بالله تعالى: هو التصديق بأن الله تعالى واحد، أحد، متصف بصفات الكمال، منزّه عن النقص، متفرد بالألوهية والربوبية، فهو المستحق وحده للعبادة، وهو سبحانه المتفرد بتدبير هذا الكون بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وكل ما يتعلق بنواميس الكون وقوانينه.

والإيمان بالملائكة: هو التصديق بأن الله تعالى عباداً مخلوقين من نور، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

والإيمان بالكتب: هو التصديق بأن الله تعالى أنزل على بعض الأنبياء كتباً، فيها عقائد وشرائع للعباد، يعملون بمقتضاها، وهي صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن، وهو الخاتم لها، مصدق ومهيمن عليها.

والإيمان بالرسل: هو التصديق بأن الله تعالى أرسل للبشرية رجالاً، يدلونهم على الله تعالى وشرائعه، ليعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، وأيدهم سبحانه بالمعجزات، الدالة على صدقهم.

والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق ببعث الناس، ونشورهم بعد إفنائهم، والتصديق بالحشر، والحوض، والحساب، والشفاعة، والصراط، ورؤية الله تعالى، وبمصير العباد إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

والإيمان بالقدر: هو التصديق بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ بعلمه ما هو كائن إلى يوم القيامة، وأن كل شيء في الوجود مخلوق لله تعالى، وفق إرادته ومشئته، وقد سبق به علمه. وجعل الإنسان قادراً على الاختيار والإرادة والعمل، يتحمل مسؤولية اختياره وعمله.

سؤاله عن الإحسان

أما الإحسان، فقد أجاب النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهو من جوامع كلمه ﷺ، إذ يدخل في الإحسان أفعال العباد الظاهرة والباطنة، بما تتضمنه من أركان الإسلام، وأركان الإيمان، السابق ذكرها، مع ما ينضاف إليها من سائر الأعمال، في شتى مناحي الحياة، من معاملات وأخلاق وشرائع، وأن تكون على وفق ما شرع الله سبحانه، يُبتغى بها وجهه الكريم ومرضاته، وأن تكون على أكمل وجه، تصديقاً وعملاً، في ظل مراقبة الله تعالى.

فيدخل في هذه الكلمة الجامعة (الإحسان) ما لا حصر له من أقوال العباد وأفعالهم، ويأتي على رأسها أقوال الدعاة وأفعالهم، وأقوال العلماء وأفعالهم، وأقوال المجاهدين وأفعالهم، وأقوال أولي الأمر وأفعالهم، وكذا سائر التخصصات والمجالات من المعلمين، والأطباء، والمهندسين، وأصحاب الصناعات، والتجار، والمزارعين، وشتى المهن والوظائف، فإن الإحسان مطلوب من العباد جميعهم، في جميع أقوالهم وأفعالهم.

سؤاله عن الساعة وعلاماتها

أما سؤال جبريل عن موعد قيام الساعة، فإنه يدل على تحقق الإيمان بقيام الساعة قبل السؤال، لكنه سأل عن موعدها، فأجابه النبي ﷺ بأن علمه عند الله وحده، وأن النبي ﷺ والسائل سواء، في خفاء موعدها عنهما.

ثم سأل عن علامات الساعة وأشراتها، فأخبره النبي ﷺ ببعضها، ليدل الناس على قرب الساعة عند وقوع هذه العلامات، علماً بأن للساعة علامات وأشراطاً أخرى، ذكرها النبي ﷺ في مناسبات أخرى كثيرة، وقد قسمها العلماء إلى أشراط صغرى وأشراط كبرى، أما الأشراط الصغرى فقد وقعت كلها، وأما الكبرى فهي إيدان بقيام

الساعة، ولا تقع إلا على إثرها^(١). أما العلامتان اللتان ذكرهما النبي ﷺ في هذا الحديث وهما: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، فقد وقعتا في عصرنا هذا. ويلاحظ على هاتين الأمارتين أنهما مختصتان بالجانب الاجتماعي والاقتصادي من حياة الأمة.

فأما أن تلد الأمة ربتها: فيعني اختلاف الأجيال، اختلافاً واسعاً خارجاً عن حد التطور، وهو أقرب إلى القفزات الاجتماعية الواسعة، التي تقطع الصلة بين الأب وولده، وبين المعلم وتلميذه، وقد وقع هذا في القرن العشرين، حين رأينا في البيت الواحد أباً أو أمّاً يعيشان على نسق معين من المبادئ والأخلاق، والأبناء يعيشون في عالم آخر من الأخلاق والأفكار والهيئات والأذواق، بعيداً عما عاشه آبائهم. وهو مما يَشِي بانقطاع التواصل بين الأجيال، الذي أدى إلى الاختلالات الاجتماعية فيما بينها. وهو قريب مما رجحه في السابق بعض العلماء، وعبروا عنه بكثرة العقوق.

وأما الأمانة الثانية التي ذكرها النبي ﷺ، وهي أن يتطاول الرعاة والفقراء بالبنيان، ففيه إشارة إلى تغيير الأحوال الاقتصادية، وأثرها في التغيير الاجتماعي، حيث انقلب حال الفقراء المعدمين إلى أن يكونوا أصحاب الملايين أو المليارات، وهذا في الجيل نفسه، أو في الأفراد أنفسهم، ثم يتطاول هؤلاء في البنيان، بإقامة ناطحات السحاب، والتفاخر في البناء طويلاً وعرضاً وسعة، مع امتلاك أحدث وسائل الراحة والرفاهية والتنعم. وفي هذا التطاول ملحظ التنافس على الدنيا، والتسابق على امتلاكها، وتحصيل الكم الأكبر منها، على حساب المبادئ والأخلاق، وحقوق الأمة، ونصرة المستضعفين والمظلومين.

فتراهم يتنعمون، ويلهون، ويلعبون، ويتناسون أحوال الفقراء والجوع والمُشردين والمُهَجَّرين والمحاصرين من أبناء الأمة على يد الطغاة والمجرمين، بل يتآمرون أحياناً مع أعداء الأمة عليهم، فيزيدونهم بلاءً على بلائهم، وشدةً على شدتهم.

(١) انظر كتابنا «تهذيب موسوعة الفتن وأشرار الساعة».

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- في هذا الحديث إرشاد إلى أن للعلم وطلبه آداباً، لا بد من مراعاتها من طالب العلم ومعلمه.
- ٢- جاء هذا الحديث في أواخر العهد النبوي في المدينة، ليكون كالمراجعة الشاملة لمهمات الدين وكتباته المعروفة سابقاً لدى السامعين.
- ٣- من أساليب التعليم السؤال والجواب.
- ٤- الاهتمام بالكليات والمهمات قبل الفروع والجزئيات. حيث إن منهج الإسلام يقوم على التدرج في التربية والتعليم.
- ٥- التكامل في العلم مع الإيجاز والوضوح خير وسيلة لإيصاله إلى المتعلمين.
- ٦- بين النبي ﷺ في هذا الحديث الأركان العملية الظاهرة لهذا الدين، كما بين الأركان الاعتقادية الباطنة له.
- ٧- جمع في الإحسان العبادتين الظاهرة والباطنة، مع المراقبة لله تعالى لتحصيل الرضى والقبول من الله سبحانه. وبذلك يشمل الإحسان جميع النشاطات الإنسانية.
- ٨- من أمارات الساعة تلك الاختلالات الاجتماعية، والطفرات الاقتصادية، التي تؤدي إلى دمار المجتمعات وهلاكها، ما لم تعالجها التربية الإسلامية معالجة جذرية شاملة.
- ٩- في هذا الحديث توجيه للدعاة بتوفير العلماء، ومراعاة آداب طلب العلم والتعليم.
- ١٠- وفيه إرشادٌ للدعاة إلى مراعاة الأولويات في طلب العلم، وفي تعليمه، والاعتناء بالأصول والكليات، وتقديمها على الفروع والجزئيات.
- ١١- كما يرشد الدعاة إلى الاهتمام بالمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية، وتقديم المعالجات الناجعة، والحلول التربوية الشاملة لأي اختلالات، تؤثر في بنية المجتمع.

الحديث الثالث

أركان الإسلام

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٨)، وَمُسْلِمٌ (١٦).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، رضي الله عنهما. أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه، ولم يحتلم، واستصغر يوم أحد، فأول غزواته الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة. وشهد فتح مكة. وهو شقيق حفصة أم المؤمنين، وأمهما زينب بنت مظعون، أخت عثمان بن مظعون الجُمحي.

وكان يتبع أمر رسول الله ﷺ وآثاره وحاله، ويهتم بذلك. وقد روي عن نافع: أنه كان يتبع آثار رسول الله ﷺ كل مكان صلى فيه، حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة، فيصب في أصلها الماء لكيلا تيبس.

روى علماً كثيراً نافعاً عن النبي ﷺ. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. ولما قُتل عثمان عَرَضَ عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى. وغزا إفريقية مرتين: الأولى مع ابن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حُديج سنة ٣٤ هـ، وكُفَّ بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة ٧٣ للهجرة^(١).

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٣/ ٢٠٣، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ١٠٨.

شرح الحديث

أهمية الحديث

يعد هذا الحديث أصلاً في بيان أركان الإسلام التي بني عليها، فلا يجوز الجهل بها، أو إنكارها، أو ترك العمل بها، وإنكار أحدها يخرج من الملة.

الشهادة

في هذا الحديث بين النبي ﷺ ما بني عليه الإسلام، فبدأ بالشهادة، فقال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله»، والشهادة في اللغة تعني الحضور والعلم والإعلام^(١)، والحضور يعني المعاينة، والعلم يعني الإدراك عن دليل، والإعلام يعني النطق بما علمت، وحضرت.

وفي الشهادة بأن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، لا بد من توفرهما كي يُقبل إسلامه.

والشهادة بأن لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله، فهو المُستحقُّ وحده للعبادة مع وجود آلهة كثيرة مُدعاة من البشر والشجر والحجر والبقر وكثير من المخلوقات، ولكنها باطلة كُلُّها، لا تستحق العبادة، وعبادتها كفر. وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ، لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِجِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٥].

(١) انظر «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس ٢٢١ / ٣.

والشهادة بأن محمداً رسول الله، أي: الإقرار بأن الله تعالى قد أرسل محمداً ﷺ للناس كافة، بشيراً ونذيراً، ليدلّهم على الله تعالى. وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧ - ١٥٨].

وقد عبر عنهما بالافراد، مع أنهما شهادتان، لأن إحداهما لا تتم، ولا تقبل إلا بالأخرى، ولا يصح الدخول في الإسلام، ولا تقبل الأعمال عند الله إلا بشرطين مجتمعين: الأول: الإخلاص لله وحده لا شريك له، والثاني: متابعة رسوله ﷺ بما جاء به من عند الله. وهذه الشهادة هي بوابة الإسلام ومفتاحه، والإقرار بها يتطلب العمل بمقتضاها، ابتداءً من أركان الإسلام، وامتداداً إلى كافة شرائع الإسلام، فيُصبغ المسلم بصبغة الإسلام، فتصبح حياته كلها لله، وعلى وفق مراد الله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. والسلم هو الإسلام^(١)، أي: خذوا الإسلام كله، ولا تتركوا منه شيئاً، ولا تكونوا كما فعل يهود، حيث قال الله تعالى لهم: ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وكما أن هذه الشهادة هي مفتاح الإسلام، فإنها مفتاح الجنة كذلك، حيث قال النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة»^(٢). وقال: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلا

(١) هو قول ابن عباس، ومجاهد، وطاووس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد. انظر «تفسير ابن كثير» ١/ ٥٦٥.

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٩٦٨٩). وهو حديث صحيح.

الله، ثم مات على ذلك إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ^(١). وقال: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وكان في قلبه ما يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً»^(٢).

شبهة وردھا

أما ما جاء في حديث ابن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»^(٣). فظاهر هذا الحديث إكراه الناس على الإسلام، ومن الثابت في الإسلام أنه يقوم على حرية الاختيار، وأنه لا إكراه في الدين، فقد قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. وكما لا يتبادر إلى الذهن أن معنى هذا الحديث هو الإكراه في الدين، وقتل المخالفين، نقول: يحمل هذا الحديث على أن هدف القتال، وغايته في الإسلام هو إعلاء كلمة الله، وأن يكون الإسلام هو نظام الحياة للمسلم وغير المسلم في الدولة الإسلامية، ولكل أحكامه وفق شريعة الإسلام، إذ أن غاية القتال في الإسلام: إما الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو إجراء المعاهدة. وهذا ليس فيه قتل على الاعتقاد، أو إكراه عليه، وإنما غاية ما في الأمر أن يكون النظام العام السائد في الدولة المسلمة هو النظام الإسلامي، وأن يحتكم الناس إليه، فمنهم المسلم، ومنهم الذمي، ومنهم المعاهد.

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٨٢٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧١٠).

(٣) وهو الحديث الثامن من هذه الأحاديث الأربعين النووية. وانظر تمام شرحنا عليه هناك.

نواقض الشهادة

بالشهادتين يدخل الإنسان في الإسلام، لكن هناك من العقائد والأقوال والأفعال التي إذا اعتقدها، أو قالها، أو فعلها، فإنها تخرجه من الإسلام، ويحكم عليه بالكفر، وهي:

- ١- الإشراف بالله، أو الإلحاد فيه، أو اتخاذ دين أو عقيدة غير دين الإسلام وعقيدته، كاليهودية، أو النصرانية، أو البوذية، أو العلمانية، أو الوجودية.
- ٢- إنكار أو جحود أي ركن من أركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر.
- ٣- إنكار أو جحود أي ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي النطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، أو أي حكم شرعي معلوم من الدين بالضرورة، أو الاستهزاء به، أو أن يعتقد أن غيره أفضل منه.
- ٤- الأقوال التي لا تصرف إلا للكفر، كسب الذات الإلهية، أو الأنبياء، أو الكتب السماوية، أو الاستهزاء بها.
- ٥- الأفعال التي ظاهرها علامة على كفر صاحبها، كالسجود لغير الله تعالى، أو الذبح، أو النذر له، أو تعليق الصليب، أو أي إشارة من إشارات الكفر، على سبيل التعظيم، ولا نحكم بالكفر إذا كان في حالة لا يؤاخذ بها، كالجهل، أو الإكراه، أو زوال العقل.
- ٦- الاعتقاد بإيمان الكافر، أو أنه ليس بكافر.

الصلاة ومنزلتها في الإسلام

أما الركن الثاني من أركان الإسلام فهو الصلاة، وهي في أصل اللغة: الدعاء، وفي المصطلح الشرعي: أفعال مخصوصة، وأقوال مخصوصة، في أوقات مخصوصة،

مبناها على التوجه إلى الله تعالى، والصلة به، تعظيماً وتكبيراً وتسييحاً.

وهي عمود الدين، وأول ما يحاسب عليه المسلم يوم القيامة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله، وقد قال النبي ﷺ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ»^(١). وعنه ﷺ أيضاً «أول ما يُحاسب به العبد صلاته، فإن كان أتمها كُتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع، فتكملوا بها فريضته؟ ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»^(٢).

وهي صلة بين العبد وربّه، وأكثر العبادات دواماً، لا تسقط عن المسلم بحال، فيؤديها قائماً، أو قاعداً، أو على جنب، في الحَضَر وفي السَّفَر، في الصحة، وفي المرض. لذا من تركها جاحداً لها، منكراً لحكمها، فهو كافر، يخرج من المِلَّة. أما من تركها تكاسلاً وعصياناً فقد ارتكب كبيرة من الكبائر العظيمة عند الله، وقد يُطلق عليه كُفْرٌ عَمَلِي، مما لا يخرج به من الملة، تفريقاً له عن الكفر الاعتقادي، المخرج من الملة.

الزكاة ومنزلتها في الإسلام

وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة، فكثيراً ما قُرنَت بها في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

والزكاة في أصل اللغة: هي الطهارة والنماء. وأما في الشرع: فهي إخراج جزء من المال، نقد أو زرع أو ماشية أو تجارة، على وجوه مخصوصة.

فهي تُزَكِّي النفس من دَرَنِ الشُّحِّ والبُخْلِ، وتزيد المال بركةً ونماءً، وتعالج مشكلات المجتمع، كالفقر والبطالة، وتبني العلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع الواحد، وتهدم أسوار الطبقية فيما بينهم.

(١) وهو الحديث التاسع والعشرون من هذه الأحاديث الأربعين. وانظر تمام شرحنا عليه هناك.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٦١٤) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وهو حديث صحيح.

ولأهميتها و عظيم مكانتها كان الإمتناع عن أدائها سبباً مُوجباً لِقِتالٍ مَن مَنَعها أخذها منه بالقوة، وذلك في زمن الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فحارب الممتنعين عن دفع الزكاة، حتى قال: والله لأُقَاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، والله لو مَنَعوني عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ^(١).

وفي زماننا هذا نجد الكثيرين من أصحاب رؤوس الأموال، التي تعد بمئات المليارات، أو بالملايين، أو بمئات الآلاف، أو غيرهم من أهل الزكاة، يمتنعون عن أداء زكاة أموالهم، ولو أدّوها على وجهها، لما رأيت جائعاً، ولا فقيراً، ولا محروماً. ولو جرى التخطيط المحكم الأمين لإدارة أموال الزكاة، واستثمارها في مصارفها، لتحول العالم أجمع من حال الفقر والبطالة والعوز إلى حال السعة والرفاه.

الحج ومنزلته في الإسلام

الحج هو الركن الرابع من أركان الإسلام، كما في هذا الحديث، وقد جاء في روايات أخرى صحيحة عن ابن عمر راوي هذا الحديث تقديم الصوم على الحج^(٢)، وهو

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٤) و(٧٢٨٥).

(٢) عند مسلم برقم (١٦) عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «بني الإسلام على خمسة، على أن يُؤَحَّدَ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج»، فقال رجل: الحج، وصيام رمضان، قال: «لا، صيام رمضان، والحج» هكذا سمعته من رسول الله ﷺ. قال النووي: والأظهر - والله أعلم - أنه يحتمل أن ابن عمر سمعه من النبي ﷺ مَرَّتَيْنِ، مرة بتقديم الحج، ومرة بتقديم الصوم، فرواه أيضاً على الوجهين في وَقتين، فلما رد عليه الرجل، وقدم الحج، قال ابن عمر: لا تردّ عليّ ما لا عِلْمَ لك به، ولا تَعْتَرِضْ بما لا تَعْرِفُهُ، ولا تَقْدَحْ فيما لا تَتَحَقَّقُهُ، بل هو بتقديم الصوم، هكذا سمعته من رسول الله ﷺ. وليس في هذا نفْيٌ لسماعه على الوجه الآخر. ويُحتمل أن ابن عمر كان سمعه مَرَّتَيْنِ بالوجهين، كما ذكرنا، ثم لما رد عليه الرجل نسي الوجه الذي ردّه، فأنكره. فهذان الاحتمالان هما المختاران في هذا. «شرح النووي على مسلم» ١/ ١٧٨.

الموافق لرواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث جبريل السابق، والأمر قريب، سواء بالتقديم أو التأخير.

وقد تقدم الصوم على الحج في فرضه على الأمة، حيث فرض الصوم في السنة الثانية، وأما الحج ففي السنة التاسعة، على الأرجح من أقوال العلماء.

وفي هذا ما يدل على أن ورود الحديث إنما كان بعد فرض الحج، أي أنه من أواخر ما قاله النبي ﷺ وبينه للصحابة، حيث قاله بعد اكتمال بناء الإسلام، ورسوخ أحكامه وفروضه في أذهان الصحابة.

والحج في الإسلام هو زيارة البيت الحرام، وسائر المناسك، في أوقات مخصوصة، وأفعال مخصوصة، وهو ركنٌ عظيم من أركان الإسلام، جمع فيه ربُّ العزة بين العبادة البدنية والمالية والروحية، وجعله صورةً من صور اجتماع الأمة، وتوحيد كلمتها، ويتحقق في جميع مظاهره التوحيد، والوحدة، والامتثال، والطاعة، والصبر، والمساواة، والزهد في الدنيا، والتخلص من شروها، وآثامها، ووساوسها. لذا كان الحج كفارة لجميع الذنوب، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

الصوم ومنزلته في الإسلام

الصيام هو الركن الخامس من أركان الإسلام، كما جاء في هذا الحديث، وهو الامتناع عن المفطرات في شهر رمضان، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهو ركن عظيم من أركان هذا الدين، فهو مدرسةٌ للتقوى، بما فيها من تربية للنفس على الإخلاص، والصبر، والبذل والعطاء، والتكافل، والتراحم بين الناس في المجتمع الواحد، ومراقبة الله تعالى في سائر أعمال المسلم الدينية والدنيوية. لذا كان من صامه إيماناً، أي:

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨) من حديث أبي هريرة.

تصديقاً بفَرْضِيته، واحتساباً، أي: طَلَباً للأجر من الله، فإنه كفارة لما تقدم من ذنبه. فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

منزلة الجهاد من هذه الأركان

وقد يسأل سائل عن الجهاد، لِمَ لَمْ يُذكر الجهاد في سبيل الله في هذه الأركان؟ والجواب: أن هذه الأركان فروض عين، والجهاد قد يكون فرض عين، لكنه في الأغلب فرض كفاية، وهذا لا يحط من شأن الجهاد ومنزلته، ففي الحديث التاسع والعشرين من هذه الأربعين: الجهاد ذروة سنام الإسلام. وذروة كل شيء أعلاه، والجهاد لا يعدُّه شيء من الأعمال، كما روى أبو هريرة قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ، قال: «لَا أَجِدُهُ» قال: «هل تستطيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ، فَتَقُومَ، وَلَا تَفُتَرَ، وَتَصُومَ، وَلَا تُفْطِرَ؟» قال: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟^(٢). وسيأتي بقية الكلام عليه في موضعه إن شاء الله تعالى.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - بَيَّنَّ النبي ﷺ في هذا الحديث أركان الإسلام، وما يقوم بناؤه عليه.
- ٢ - جعل النبي ﷺ الشهادة مفتاح الإسلام وبابه الأعظم.
- ٣ - جعل النبي ﷺ أركان الإسلام هي شعائره التعبدية، لما فيها من امتثال لأوامر الله أولاً، ولما لها من أثر في حياة المسلم كلها.
- ٤ - هذه الأركان تحدد هوية المسلم وتحافظ على شخصيته وتَمَيِّزُهُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨) من حديث أبي هريرة.

٥- في هذا الحديث إرشاد وتوجيه للعلماء والدعاة ألا يملّوا من التأكيد على هذه الأركان، وبيان منزلتها للناس، وضرورة المحافظة عليها. كما يرشدهم إلى التأكيد على كليات الإسلام وقواعده العظام، مع عدم التفريط بفروعه وجزئياته.

الحديث الرابع

قدرة الله وقدره

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتِبَ رِزْقُهُ وَعَمَلُهُ وَأَجَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ^(١).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن. من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادماً رسول الله الأمين، ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت، ويمشي معه. نظر إليه عمر يوماً، وقال: وعاء مليء علماً. وولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة. ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها سنة ٣٢ للهجرة عن نحو ستين عاماً ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤ و ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) انظر «الأعلام» للزركلي ١٣٧/٤.

معاني الغريب

الصادق المصدق: أي: الصادق في قوله، المصدق فيما وعده به الله تعالى، والمُصدَّق فيما يقول.

يُجمع خلقه: أي: يجمع فيما بين النطفة والبويضة في رحم المرأة. قال ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]: يعني ماء الرجل وماء المرأة، إذا اجتماعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومن لون إلى لون.

نطفة: قِطْرَةٌ من المَنِيِّ. والمقصود بالنطفة هنا هو الجمع بين نطفة الرجل وبويضة المرأة، وهي المرحلة الأولى لبداية تخليق الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. وهذه اللفظة لم ترد في الصحيحين، ولا في شيء من أمهات كتب السنة^(١).

علقة: من التعلق، دلالة على تعلق الجنين في جدار الرحم. وليس هو من العلقمة، التي هي دُويبة صغيرة، تمتص الدم من الجلد.

مضغة: قطعة اللحم، وهي طور من أطوار الجنين يكون فيها على هيئة اللقمة الصغيرة. سميت بذلك، لأنها قدر ما يمزغ الماضغ.

(١) وقد وردت في كتب وأجزاء حديثية، لكنها لا تكاد تخلو من علل في أسانيدھا ومتونها، منها: في «المستخرج على مسلم» لأبي عوانة برقم ١١٥٦١ من رواية شعبة، عن الأعمش، التي ساق الإمام مسلم إسنادها ولم يسق لفظها، ووردت من طرق أخرى متعددة عن الأعمش، عن زيد بن وهب، الذي رواه عن ابن مسعود، عند ابن الجعد في «مسنده» برقم ٢٥٩٤. وفي «المستخرج» أيضا برقم ١١٥٦٥، وسفيان الثوري في جزء له برقم ٢٩٢، وفي «القدر» لابن وهب برقم ٣٧، وفي «أحاديث أبي الحسين الكلابي» برقم ٦١، والبرزالي في «مشيخة أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي الحنبلي» برقم ٢٥.

ووردت هذه اللفظة أيضاً في رواية سلمة بن كهيل، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود عند ابن وهب في «القدر» برقم ٧٢، وأبي علي الصواف في «جزئه» برقم ٤٦.

الروح: خلق من خلق الله، لا يعلم كُنْهه إلا الله، يسري في البدن كما يسري الماء في الشجر، تتوقف عليه حياة الحيوان وموته. وقد يطلق عليها اسم النفس، والنسمة، كما صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة.

بكتب أربع كلمات: المقصود هو ما تكتبه الملائكة، مما في علم الله تعالى، المكتوب في اللوح المحفوظ عن هذا الإنسان.

الرزق: هو بمفهومه الواسع كل ما حباه الله للإنسان من نعم في هذه الحياة. شقي أو سعيد: هو ما يختص للإنسان في هذه الحياة، إما بخير، فيكون من أهل السعادة في الآخرة، وإما بشر، فيكون من أهل الشقاوة في النار.

شرح الحديث

أهمية الحديث

يكشف لنا هذا الحديث عن عظمة الخالق وقدرته سبحانه وتعالى في خلق الإنسان، وأطوار هذا الخلق، ابتداء من مرحلة النطفة، إلى أن يصبح إنساناً كامل الخلق، وكذا كل ما يتضمنه هذا الخلق من أطوار، وظواهر خارجية، وأمور باطنية، وأجهزة داخلية، كلها تكشف عن قدرة الخالق سبحانه وتعالى.

مدة تخليق الإنسان

وقد شاع عند كثير من العلماء أن مدة تخليق الإنسان في أطواره الثلاثة الواردة، في هذا الحديث هي مئة وعشرون يوماً، ثم ينفخ فيه الروح على رأس هذه المدة، على اعتبار أن مدة كل طور من هذه الأطوار أربعون يوماً. لا سيما وأن سياقاً لفظ الحديث توهم بتكرار مدة الأربعين. وقد ترتب على هذه المدة جملة من الأحكام الشرعية، منها جواز الإجهاض في هذه المدة.

ومن خلال تتبع روايات هذا الحديث، والوقوف على ألفاظه، والنظر في عشرات الروايات، استطعنا بفضل الله تعالى أن نخلص إلى أدق الروايات، وأصحها، وأكثرها توافقاً مع العلم الحديث. وأن الأطوار الثلاثة الواردة في الحديث إنما تقع كلها في مدة أربعين يوماً واحدة. وقد وضحت رواية الإمام مسلم^(١) ذلك حيث جاء فيها: «إنَّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسل الملكُ فينفخ فيه الروح»، فزيادة عبارة: «في ذلك» أي في مدة الأربعين يوماً نفسها، وليست مدة أربعين يوماً أخرى. ففي الأربعين يوماً الأولى من الحمل تتم هذه المراحل جميعها، وتنتهي بالكتابة ونفخ الروح.

ويؤيد هذه الرواية ما جاء في رواية حذيفة بن أسيد عند مسلم أيضاً^(٢) عن النبي ﷺ، قال: «يدخل الملكُ على النطفة بعد ما تستقرُّ في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقيَّ أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تُطوى الصحف، فلا يُزاد فيها، ولا يُنقص».

قال ابن القيم^(٣): فإن الرحم إذا اشتمل على المني، ولم يقذفه إلى خارج، استدار على نفسه، وصار كالكرة، وأخذ في الشدة إلى تمام ستة أيام، فإذا اشتدَّ نُقِطَ فيه نقطة في الوسط، وهو موضع القلب، ونقطة في أعلاه، وهي نقطة الدماغ، ونقطة عن اليمين، وهي نقطة الكبد، ثم تتباعد تلك النقط، ويظهر فيما بينهما خطوط خمسة، إلى تمام ثلاثة أيام آخر، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام آخر، فيصير ذلك خمسة عشر

(١) برقم (٢٦٤٣).

(٢) برقم (٢٦٤٤).

(٣) في «التبيان في أقسام القرآن». دراسة وتحقيق حمزة بن محمد علي آل ياسين عسيري، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، ٢٠٠١. ١/٤٧٩.

يوماً، فتتميز الأعضاء الثلاثة، وهي القلب والدماغ والكبد، وتمتد رطوبة النخاع، وذلك يتم باثني عشر يوماً، ويصير المجموع سبعة وعشرين يوماً، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين، والأطراف عن الضلوع، والبطن عن الجنبين، وذلك في تسعة أيام آخر، فتصير ستة وثلاثين يوماً، ثم يتم هذا التميز، بحيث يظهر للحس ظهوراً بيناً في تمام أربعة أيام، فيصير المجموع أربعين يوماً فيها يجمع خلقه، وهذا مطابق لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً». ولقد كفى هذا الإجمال عن التفصيل، وهذا يقتضي أن اجتماع خلقه وقع في الأربعين الأولى.

لكن ابن القيم بعد أن ذكر أن جمع الخلق يكون في الأربعين الأولى، ذهب إلى أن نفخ الروح يقع بعد الأربعين الثالثة، أي بعد مئة وعشرين يوماً. وقد قلنا بأن الصواب في هذه المسألة أن نفخ الروح يكون على رأس الأربعين الأولى. والله أعلم.

أطوار خلق الجنين في العلم الحديث

وهذا الذي قاله ابن القيم هو قريب مما أثبتته العلم الحديث، حيث جاء ذكر هذه الأطوار على النحو التالي^(١):

الأسبوعان الأول والثاني: تحدث فيهما عملية الإباضة عند الأنثى، في اليوم الرابع عشر تقريباً تُخصَّب البويضة، لتصبح بويضة ناضجة مُخصَّبة قابلة للانقسام، وتنتقل هذه البويضة إلى الرحم، لتنزرع في بطانة الرحم مُعلنة بدء حالة الحمل.

الأسبوع الثالث: تدخل البويضة المُخصَّبة سلسلة من الانقسامات، لتصبح مُكوَّنة من كتلة خلوية تُسمى التوتة، ثم تتجوَّف التوتة، لتصبح كرة مملوءة بسائل، وتُدعى الكبسولة البلاستولية.

(١) انظر الرابط: <https://mawdoo3.com/> مراحل تكوين الجنين بالأسابيع. بقليل من التصرف.

الأسبوع الرابع: يبدأ تمايز الجنين إلى طبقتين: داخلية، وخارجية، وتتطور المشيمة بتأثير الهرمونات، التي تمنع انسلاخ خلايا بطانة الرحم، ويزيد سمكها وغزارة الأوعية الدموية فيها.

الأسبوع الخامس: يبدأ القلب بالنبض، وينتظم ضخ الدم، ويصبح نمو الجنين سريعاً مقارنةً بالأسبوع الرابع، وتظهر براعم الأطراف العلوية والسفلية، كما تبدأ بعض الأعضاء بالنمو، مثل: الكبد، والكليتين، والأمعاء.

الأسبوع السادس: تبرز في هذا الأسبوع بعض تفاصيل الجنين بروزاً بسيطاً، حيث يبدأ ظهور فتحتي الأنف، ونتوء الأذنين، ونقطتين سوداوين مكان العينين، وتبدأ الأطراف بالانفصال عن جسم الجنين، فتبدو مماثلةً لمنظر المجدافين.

الأسبوع السابع: في هذا الأسبوع يتضح قلب الجنين ونبضه، إذ يمكن قياس النبض بجهاز الموجات فوق الصوتية، وتبدأ الدورة الدموية عملها بانتظام، ويستمر نمو الأعضاء الداخلية مع تطور وظائفها الفسيولوجية، مثل: الكليتين، والكبد، والدماغ.

أطوار خلق الجنين في القرآن

وقد بين القرآن الكريم أن خلق الجنين يمرّ في أطوار مختلفة، حيث قال الله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

ثم بين هذه الأطوار، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

في هذه الآيات الكريمة تتجلى عظمة الخالق سبحانه في بيان أطوار خلق الجنين في بطن أمه، كما تتجلى معجزة القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى، فأين كانت البشرية قبل هذا؟ وماذا كان تصورها عن خلق الإنسان؟ وأين كان العرب من ذلك؟ فقد كانت نظرية الجنين القزم هي النظرية السائدة عند العلماء والفلاسفة، التي تقول بأن الإنسان يُخلق كاملاً قزماً، ثم ينمو، ويكبر، كما تكبرُ فسيلةُ الشجرة شيئاً فشيئاً، ثم اختلفوا أين يكون، هل هو في ماء الرجل، أم في دم الحيض، حتى جاء من يقول في أواخر القرن التاسع عشر بأن الجنين يتكون من نطفة الرجل، وبويضة المرأة معاً.

هذا في الغرب، أما علماء المسلمين فقد نبههم القرآن الكريم إلى حقيقة بداية الجنين وتطوره، ومراحل تخليقه في رحم أمه، كما دلت عليه هذه الآيات. وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. نقل ابن كثير في «تفسيره»^(١) عن ابن عباس في قوله تعالى: «من نطفة أمشاج»، قال: يعني: ماء الرجل وماء المرأة، إذا اجتمعا، واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومن لون إلى لون. قال ابن كثير: وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والربيع بن أنس: الأمشاج: هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.

قال ابن حجر العسقلاني^(١): «وزعم كثير من أهل التّشريح أنّ منّي الرجل لا أثر له في الولد إلّا في عقده، وأنّه إنّما يتكوّن من دم الحيض، وأحاديث الباب تُبطل ذلك».

وقال سيد قطب^(٢): «الأمشاج: الأخلاط، وربما كانت هذه إشارة إلى تكوّن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، وربما كانت هذه الأخلاط تعني المورثات الكامنة في النطفة، والتي يمثلها ما يسمونه علمياً «الجينات»، وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً، ولصفات الجنين العائلية أخيراً، وإليها يُعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها، لتكوين جنين إنسان، لا جنين أي حيوان آخر، كما تُعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة، ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى».

قلنا: وما اكتشفه العلماء في العصر الحديث جاءت به آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي الكريم ﷺ قبل ذلك بقرون متطاولة. مما يؤكد على أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى عالم الغيب والشهادة، وأن محمداً ﷺ لا ينطق عن الهوى، إنما هو نبي يوحى إليه من رب العالمين.

نفخ الروح في الإنسان

وبعد أربعين يوماً، أو نحوها يأمر الله المَلَك الموكّل بالجنين أن ينفخ فيه الروح، وهي هذا الكائن المخلوق لله تعالى، ولا يعلم كُنْهَهَا، ولا ماهيتها إلّا الله سبحانه، يأتي بها الملك بإذن الله، ويضعها في جسد الجنين بإذن الله، فتدب الحياة فيه، وتصحبُه هذه الروح في حياته كُلِّها، إلى أن يحين أجله، فيُرسل الله له ملكاً فيقبضها، ويردها إلى بارئها سبحانه.

(١) في «فتح الباري» ١١ / ٢١.

(٢) في «ظلال القرآن» ٦ / ٣٧٧٩.

وقد جاء في الحديث أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد أطلق القرآن علي الروح «النفس» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأطلق عليها الحديث «نسمة» كما في حديث الإسراء، حيث قال النبي ﷺ: «فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسوداء، وعلى يساره أسوداء، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسوداء عن يمينه وشماله نسمة بنيه»^(١) أي: أرواحهم.

كتابة الرزق والأجل والعمل وشقي أو سعيد

ثم أمر الله تعالى الملك بكتب رزق الإنسان، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، وأن هذه الأمور مستقرة في علم الله تعالى في اللوح المحفوظ، وأنها لا تتغير، ولا تزيد، ولا تنقص، وما جاء من ذكر للأربع كلمات إنما هو للأهمية، وليس للحصر. للتنبيه على أن هذه الأربع هي من أكثر ما يهتم به الإنسان في حياته، ففي هذا الحديث إشارة إلى أن لا يجعل الإنسان من هذه الأمور عائقاً له في حياته، تحول بينه وبين العمل، ففي الوقت الذي يجعل الطغاة من هذه الأمور وسائل تهديد، ووعيد، وتخويف، وإرهاب في أيديهم يتسلطون بها على الناس، ليواصلوا طغيانهم واستبدادهم وظلمهم، وسلب الحريات، والتدخل في الإرادات، فإن عقيدة الإيمان بالقدر، وعقيدة أن الرزق والأجل بيد الله سبحانه وتعالى، لا ينازعه أحد في ذلك، تبطل هذا السلاح، فلا تتحقق أهدافهم في كبت الحريات، والصد عن سبيل الله.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل

وهذا لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، فالأخذ بها سنة من سنن الله تعالى في هذا الكون، لا تتخلف إلا بإرادة الله تعالى، معجزةً لنبي، أو كرامةً لولي، وما على الإنسان إلا أن يُراعي هذه الأسباب، مع التوكل على الله تعالى، في حياته كلها، وبهذا جاءت الشرائع الإلهية في الكتاب والسنة النبوية: فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وقال لمريم: ﴿وَهَئِذَا إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]. وقال النبي ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(١). ففي الحديث إشارة إلى أن الطير تسعى في أسباب الرزق.

حسن الخاتمة

ويبين هذا الحديث أن الخاتمة بيد الله تعالى، كتبها على الإنسان قبل أن يخلقه بخمسين ألف سنة، فلا يستطيع أن يَحِيدَ عنها قيد أنملة. فمهما عمل الإنسان في هذه الدنيا، فإنه لا مفر له مما كتبه الله في اللوح المحفوظ. ولكننا لا نعلم هذه الأقدار، ولا نعلم هذه الخاتمة، فنحن مطالبون بالعمل وفق ما أمرنا الله تعالى به، وما أنزله من شرائع في كتابه العزيز، وما أرسل به النبي الكريم ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم^(٢) عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض، فقال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ» قالوا: يا رسول الله، أفلا نَتَكَلَّمُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ قال: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٥) من حديث عمر بن الخطاب بسند صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ الآية [الليل: ٥ - ٦].

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - في هذا الحديث تعظيم قدرة الخالق في نفوس الخلق.
- ٢ - أن يعلم المسلم أن الحقائق العلمية لا تتعارض مع النصوص الشرعية الصحيحة.
- ٣ - أن يعتقد المسلم أن أقدار الله تعالى نافذة في حياته كلها، وعليه أن يعمل وفق سنن الله في الكون، من الأخذ بالأسباب في الأجل والعمل وطلب الرزق، ثم التوكل على الله.
- ٤ - في هذا الحديث تحرير عقيدة المسلم من استبداد الطغاة في التضييق عليه في رزقه وأجله وسائر حياته، فتنتلق بهذه العقيدة طاقاته في العمل والدعوة والحياة.

الحديث الخامس

رد البدع

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩٧)، وَمُسْلِمٌ (١٧١٨). وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

التعريف بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

عائشة بنت الصديق أبي بكر التيمية، أم المؤمنين، زوجة النبي ﷺ، أفضه نساء الأمة على الإطلاق. هاجر بعائشة أبواها، وتزوجها نبي الله ﷺ قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً، وقيل: بعامين. ودخل بها في شوال سنة اثنتين، منصرفه - عليه الصلاة والسلام - من غزوة بدر، وهي ابنة تسع. فروت عنه علماً كثيراً، طيباً، مباركاً فيه. وعائشة ممتن ولد في الإسلام، وهي أصغر من فاطمة بثماني سنين، وكانت تقول: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين. توفيت في المدينة سنة ٥٧ للهجرة^(١).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

قال ابن رجب^(٢): «هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث: «الأعمال بالنيات» ميزان للأعمال في باطنها».

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ١٣٥.

(٢) في «جامع العلوم والحكم» ١/ ١٧٦.

فإذا كان حديث «الأعمال بالنيات» يؤكد على الإخلاص في الأعمال، وصيانة الباطن من الشرك والرياء، وتخليص القلب مما سوى الله تعالى، فلا تقبل الأعمال إلا بذلك، فإن هذا الحديث يحفظ الأعمال في ظاهرها على وفق ما شرع الله، فيجمع الحديثان ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. فهو كالميزان من حيث قبول الأعمال وردّها، فكم من الأقوال والأعمال مما يخترعه الناس في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، مما يردّه الشرع، ويأباه.

وهو بالضرورة يدعو إلى طلب العلم، وحسن الفهم فيه، لمعرفة المُحدثات في الدين، وتمييزها، وما يدخل فيها، وما يخرج منها. فكم أدخل البعض في المُحدثات ما ليس منها، من عادات الناس وشؤونهم الحياتية، التي لا تتعارض مع أحكام الإسلام، فأطلقوا عليها مُسمى البدعة، وليست هي كذلك.

مفهوم الإحداث في الدين

فالمقصود بقول النبي ﷺ: «أحدث في أمرنا» أي: أن يبتدع، أو أن يأتي بقول، أو عمل مما لا أصل له في الدين، ثم ينسبه إلى الدين، أو مما له أصل، لكن أتى به على غير وجهه المشروع. وهو ما يسمى «البدعة».

والبدعة كما عرفها الإمام الشاطبي في كتابه «الاعتصام»^(١): «طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه». قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «تضاهي الشرعية، يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها».

نقول: ومن البدع أن يخترع عبادة ليست على هيئة أي عبادة من عبادات الإسلام، كالطواف بالقبور، والاستغاثة بالأموات، أو أن يزيد في عبادة مقدرة شرعاً شيئاً مما ليس فيها، كأن يزيد في الصلاة المفروضة ركعة، أو أن يزيد في الوضوء غسلاً فوق الثلاث.

(١) «الاعتصام» ٤٧/١.

والأشد من ذلك ما كان في العقيدة، وهي (بدع العقائد)، كالقول بزيادة ركن في أركان الإيمان الستة، كالإمامة، أو القول بالوهمية بعض البشر، كالقول بالوهمية علي عليه السلام، أو نبوة بعضهم، كالقول بنبوة أحمد غلام ميرزا، وغير ذلك مما ابتدعته الفرق الضالة في العقائد. وهي بدع تخرج صاحبها من الإسلام.

قال الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى في «الرسائل»^(١): «وكل بدعة في دين الله لا أصل لها - استحسناها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه، أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها».

هذا وقد جاء الحديث في رواية عند مسلم^(٢) بلفظ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، ومدلول هذه الرواية أوسع، حيث يدخل فيها معنى الإحداث، ومعنى التغيير، أو التبديل، أو أي مخالفة للشرع، في أي صورة من الصور، بما في ذلك إبطال أحكام الشريعة كلياً، أو جزئياً، أو تبديلها بأحكام وضعية، مخالفة لما جاء في الشريعة. فكل ما يتعلق بإباحة المحرمات في المعاملات المالية، أو الأحوال الشخصية، أو شؤون الدولة الداخلية والخارجية، أو غير ذلك، فإنه مردود بنص هذا الحديث.

فإباحة الربا والزنا والزواج المثلي ولعب القمار وشرب الخمر وكشف العورات، ومنع الحجاب، والتلاعب بأحكام الميراث، وعدم التزام الدولة بأحكام الشرع، وإبرام المعاهدات المفترطة بالأرض والمقدسات والحقوق، فكل هذا وغيره مما هو مخالف لشرع الله مردود وباطل.

أما ما اختلف فيه الفقهاء في الأحكام الشرعية اختلافاً معتبراً، فيدخل في باب الاجتهاد، ولا يدخل في دائرة هذا الحديث. فلا يجوز إطلاق صفة الابتداع على المخالفين في اختياراتهم الفقهية.

(١) في رسالة التعاليم، في الأصول العشرين، الأصل رقم ١١. طبعة دار البصائر للبحوث والدراسات، القاهرة، ٢٠١٠. ص ٢٧٠.

(٢) (١٧١٨) (١٨).

وأما ما استحدثه الناس في شؤون حياتهم المعيشية في العاديات، فالأصل فيها الإباحة ما لم يرد دليل التحريم. فلا يُحجر على الناس في معاملاتهم التجارية والصناعية والبيئية، وعلاقاتهم الاجتماعية وغيرها، إلا فيما كانت فيه مخالفة لأحكام الشريعة، التي يبين أحكامها أهل العلم والاجتهاد والفتوى.

كمال الدين

هذا الحديث يؤكد كمال الدين في عقائده وتشريعاته وأخلاقه، فأى مخالفة له، أو زيادة فيه، أو نقصان منه، فهو مردود على صاحبه، لأنه يطعن في كمال الدين، فقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي الرد على أولئك العابثين الباحثين عن أحكام تسوسهم، خارجة عن أحكام الشريعة الإسلامية، يقول ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين»، تحت عنوان: «بين الرسول جميع أحكام الحياة والموت»^(١) قال: «عرّفهم ﷺ من أمور معاشهم ما لو علموه وعملوه، لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة. وبالجمله فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برؤيته، ولم يُحوّجهم الله إلى أحدٍ سواه، فكيف يُظن أن شريعته الكاملة، التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها، ناقصة، تحتاج إلى سياسة خارجة عنها، تكمّلها، أو إلى قياس، أو حقيقة، أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك، فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم، الذي وفق الله له أصحاب نبيه، الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا، وهو عهدنا إليكم».

قال سيد قطب في «الظلال»^(١): «والرجوع إلى الله - كما يتجلى في ظلال القرآن - له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله، الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شؤونها».

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١ - يُحذر هذا الحديث من الابتداع في الدين بشتى صورته وأشكاله.
- ٢ - الابتداع في الدين مردود على صاحبه.
- ٣ - قد يكون الابتداع في الدين إما في الأقوال أو الأفعال، أو في العقائد، أو في العبادات، أو في المعاملات، وأخطرها ما كان في العقائد.
- ٤ - يدخل في هذا الحديث ابتداع ما كان مخالفا لنظام الإسلام وأحكامه وشرائعه.
- ٥ - يدعو هذا الحديث بالضرورة إلى طلب العلم، لمعرفة ما هو مشروع في هذا الدين، وما هو مبتدع فيه.
- ٦ - يدعو هذا الحديث العلماء والدعاة إلى التحذير من البدع بأنواعها المختلفة، والعمل على بيان شرائع الإسلام للناس كافة. وأهمية تحكيمها في حياتهم العامة.

الحديث السادس

اتقوا الشبهات

عن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ. أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

رواه البخاري (٥٢) و (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري، أبو عبد الله، الأمير، العالم، الخطيب، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه. وهو أول مولود ولد في الأنصار بعد الهجرة سنة اثنتين للهجرة، وسمع من النبي ﷺ، وعُدَّ من الصحابة الصبيان باتفاق. نزل الشام. وولي القضاء بدمشق بعد فضالة بن عبيد سنة ٥٣ هـ، وولي اليمن لمعاوية، ثم استعمله على الكوفة، تسعة أشهر، وعزله وولاه حمص. واستمر فيها إلى أن مات، سنة ٦٥ للهجرة. وكان من أخطب العرب. وله شعر مطبوع في ديوان، وهو الذي تُنسب إليه «معرة النعمان»^(١).

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٣/ ٤١١، و«الأعلام» للزركلي ٨/ ٣٦.

معاني الغريب

مشتبهات: أي اختلط أمرها بين الحلال والحرام.
 استبرأ: خلاص من التهمة والطعن فيه.
 الحمى: المكان الذي يمنع دخوله على آخرين.
 يوشك أن يرتع: أي: يوشك أن يجعل ماشيته تأكل منه.
 مضغة: قطعة اللحم، سميت بذلك لأنها قدر ما يعضغ الماضغ.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، ويُعدّ أصلاً من أصول الدين، لاشتماله على ذكر الحلال والحرام وما بينهما من المشتبهات، وفيه بيان لمنهج التعامل مع هذه المشتبهات، أهي من الحلال فيُعمل بها، أم هي من الحرام فتُجتنب، ومبنى هذا المنهج على الورع في الدين، وأنه هو المنجاة من التهمة والطعن.

ظهور معالم الإسلام ووضوحها

لقد يسر الله تعالى هذا الدين، وبيّن معالمه وأحكامه بنصوص القرآن والسنة الواضحة، التي لا تخفى على أحد، وهي مما أسماه العلماء (المعلوم من الدين بالضرورة) كأركان الإيمان، وأركان الإسلام، وما أوجبه الله تعالى من صلة الرحم، والصدق، والأمانة، والعدل، والإحسان إلى الناس، وغيرها من الواجبات، وما أباحه من الطيبات من الرزق، في المأكل والمشرب والملبس والمعاملات، وغيرها من المباحات. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي المقابل حرم الظلم، والعقوق، وقطيعة الرحم، والكذب، والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل، والربا، والخداع، والغش. وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير والذبح لغير الله والخمر والميسر، وكل ما غلب ضرره نفعه، وغيرها مما هو واضح من المحرمات والمنهيات. كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَلِكَ كُمْ فَنَسَى﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٢].

وهذه الأمور أصولها معلومة عند عامة المسلمين، وتفصيلاتها محفوظة عند العلماء، وفي كتبهم.

المشتبهات

موقف المسلم من المشتبهات

اختلف العلماء في حكمها: قال ابن حجر^(١): «واخْتَلَفَ فِي حُكْمِ الشُّبُهَاتِ، فَقِيلَ: التحريم، وهو مردود، وقيل: الكراهة، وقيل: الوقف».

وفي هذا الحديث توجيه للمسلم في كيفية التعامل مع المشتبهات، قبل أن يظهر له حكمها، وذلك باتقائها والتورع عن التعامل بها، وإتيانها، ثم يأتي البحث والسؤال عنها، وعن حكمها، حتى يستبين له الطريق، فيسلكه، إما حلال وإما حرام.

(١) «فتح الباري» ١/ ٢٧١.

والأصل في كل ما يجده المسلم في حياته أن يبحث فيه عن الحكم الشرعي، فإذا اشتبه عليه شيء، وجهل حكمه، فعليه أن يسأل أهل العلم، حتى يتبين له هذا الحكم، وهنالك أمور تشبه على الناس، ولا يمكن تبين حالها، أو صفة الفعل فيها أمن الحلال هي أم من الحرام. وأحياناً لا يتوقف هذا الاشتباه على عامة الناس، بل قد يتعداه إلى بعض العلماء، لكنه سرعان ما ينجلي ويزول هذا الاشتباه بما يسر الله للعلماء من سبل الاجتهاد والبحث والعمق في معرفة الأحكام الشرعية من قواعدها الكلية وأدلتها التفصيلية.

ومع تطور الحياة والتوسع في شؤونها واختلاط الشعوب بعضها ببعض، وكثرة الصناعات والتجارات والمعاملات والاختراعات والاكتشافات، فإنها تستجد للناس أمور، يلتبس عليهم أمرها بين الحل والحرم، حتى طالت هذه المستجدات بعض أحكام العبادات نفسها، كالصلاة في الفضاء الخارجي، والصلاة في القطبين، والتباس المسافات في قصر الصلاة، والوضوء في الماء بعد التنقية، وكذا المستجدات الفقهية في الصيام، سواء فيما يتعلق بإثبات دخول الشهر، أو الرخص المبيحة للفطر، أو المفطرات، وغيرها، وكذا الزكاة والحج. فإن في كل منها ما استجد في عصرنا هذا، والتبس، واحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيه من أهل العلم والاختصاص.

أما المستجدات في المعاملات المالية والطبية والزراعية والصناعية وغيرها، فحدث ولا حرج، ففي العقود المالية الجديدة في أبواب الصرف والربا والتأمين والمرابحة، وغيرها، وفي الطب كنقل الأعضاء، وأطفال الأنابيب، والخلايا الجذعية، وتجميد النطف، واختيار جنس المولود، وغيرها. في كل ذلك أمور تخفى على العامة والخاصة، وبعد البحث والتحري والاجتهاد، يحسم أهل العلم أحكام الكثير منها، فهناك مجامع فقهية، وهيئات شرعية، أخذت على عاتقها البحث في هذه الأمور، والوصول إلى الحكم الشرعي في كل منها.

وأما فيما يتعلق بالأمور التي لا يمكن تبين حالها، فقد عقد الإمام البخاري رحمه الله تعالى ثلاثة أبواب في كتابه الجامع الصحيح حول هذه المشتبهات، وساق فيها جملة

من الأحاديث، وقد خلص ابن حجر رحمه الله في شرح هذه الأحاديث إلى أن البخاري قصد من هذه الأبواب بيان مراتب التعامل مع الشبهات، فقال^(١): «أراد المصنف أن يُعرِّف الطريقَ إلى معرفتها لتُجتَنَّبَ، فذكر أولاً ما يَضِطُّها، ثم أوردَ أحاديثَ يُؤْخَذُ منها مراتبُ ما يجبُ اجتنابه منها، ثم ثنى بابٍ فيه بيانُ ما يُستَحَبُّ منها، ثم ثلثَ بابٍ فيه بيان ما يُكْرَهُ. وشرح ذلك: أنَّ الشيءَ إمَّا أن يكون أصله التحريم، أو الإباحة، أو يُشكُّ فيه، فالأوَّل: كالصَّيد، فإنَّه يَحْرُمُ أكله قبل ذكاته، فإذا شكَّ فيها لم يَزَلْ عن التحريم إلَّا بيقين، وإليه الإشارةُ بحديث عدي بن حاتم^(٢). والثاني: كالطَّهارة إذا حَصَلَتْ لا تُرْفَعُ إلَّا بيقين الحَدَثِ، وإليه الإشارةُ بحديث عبد الله بن زيد في الباب الثالث^(٣). ومن أمثلته من له زوجةٌ وعبدٌ وشكٌّ هل طَلَّقَ أو أعتق فلا عِبرةَ بذلك، وهما على مِلْكِهِ. والثالثُ: ما لا يتحقَّقُ أصله ويتردَّدُ بين الحَظَرِ والإباحة، فالأوَّلُى تركه، وإليه الإشارةُ بحديث التمرة الساقطة في الباب الثاني^(٤).

صلاح القلب

فنحن أمام نوع من الرياضة الإيمانية القلبية، التي تعود صاحبها على اجتناب المحرمات، والابتعاد عن الشبهات، فيسلم دينه وعرضه. فعليه أن يعمل على إصلاح قلبه بالتقوى والورع، والعمل الصالح، فبصلاح قلبه صلاح سائر أعضائه وجوارحه، فتصلح بصلاحه العينان، فلا تنظران إلى ما حرم الله،

(١) انظر «فتح الباري» ١٤ / ٧.

(٢) وهو عند البخاري برقم (٢٠٥٤) عن عدي بن حاتم قلت: يا رسول الله، أُرْسِلَ كَلْبِي وَأُسَمِّي، فَأَجِدُ مَعَهُ عَلَى الصَّيْدِ كَلْبًا آخَرَ لَمْ أُسَمِّ عَلَيْهِ، وَلَا أَدْرِي أَيُّهُمَا أَخَذَ، قَالَ: «لَا تَأْكُلْ، إِنَّمَا سَمِيَتْ عَلَى كَلْبِكَ، وَلَمْ تُسَمَّ عَلَى الْآخَرِ».

(٣) وهو عند البخاري برقم (٢٠٥٦) عن عبد الله بن زيد الأنصاري، قال: شُكِّيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الرَّجُلُ يَجِدُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا، أَيْقَطُعُ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: «لَا، حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا».

(٤) وهو عند البخاري برقم (٢٠٥٥) عن أنسٍ رضي الله عنه قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِتَمْرَةٍ مَسْقُوطَةٍ، فَقَالَ: «لَوْ لَا أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً لَأَكَلْتُهَا».

والأذنان فلا تستمعان إلى ما حرم الله، واليدين فلا تبطشان في غير ما أحل الله، والرجلان، فلا تمشيان إلى ما حرم الله، أما اللسان فلا ينطق إلا بالحق، ويُعرض عما حرم الله.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- وضوح معالم الإسلام وظهور أحكامه وشرائعه.
- ٢- في هذا الحديث بيان لكيفية تعامل المسلم مع ما يشتبه عليه من الأحكام الشرعية.
- ٣- حمل المسلم على الورع واتقاء الشبهات.
- ٤- فيه دعوة إلى طلب العلم، والسؤال عما يشتبه على المسلم من الأمور.
- ٥- فيه إرشاد للدعاة والعلماء إلى الورع في التعامل مع الشبهات، والبحث والدراسات حول ما يستجد من الأمور، للخروج بأحكام شرعية واضحة للناس.

الحديث السابع

الدين النصيحة

عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» ، ثَلَاثًا ، قُلْنَا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩٥) .

التعريف بالصحابيِّ راوي الحديث

تميم الداري أبو رقية بن أوس بن خارجة اللخمي، الفلسطيني. وفد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة تسع، فأسلم، وكان عابداً، تلاءً لكتاب الله. لم يزل بالمدينة حتى تحوّل بعد قتل عثمان إلى الشام.

لما أسلم تميم، قال: يا رسول الله، إن الله مظهرك على الأرض كلها، فهب لي قريتي من بيت لحم. قال: «هي لك». وكتب له بها. قال: فجاء تميم بالكتاب إلى عمر، فقال: أنا شاهد ذلك، فأمضاه. أعطاه خبري وهي الخليل، وبيت عينون. وهذا علم من أعلام النبوة؛ إذ أقطع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه البلاد، ولم تكن يومها في سلطان المسلمين. ومات تميم الداري سنة أربعين للهجرة^(١).

معاني الغريب

النصيحة: قال الخطابي^(٢): النصيحة كلمة يُعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، قال: وأصل النصيح في اللغة الخلوص، يقال: نصحت العسل: إذا خلصته

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٤٢.

(٢) «معالم السنن» ٤/ ١٢٦.

من الشمع . فمعنى النصيحة لله سبحانه : صحة الاعتقاد في وحدانيته ، وإخلاص النية في عبادته . والنصيحة لكتابه : الإيمان به ، والعمل بما فيه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، وبذل الطاعة له فيما أمر به ، ونهى عنه . والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم إلى مصالحهم . انتهى .

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يعد هذا الحديث شاملاً لأبواب الدين كله ، وهو كما قال الإمام النووي رحمه الله ^(١) : « هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام ، وأما ما قاله جماعات من العلماء أنه أحد أرباع الإسلام ، أي : أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الإسلام ، فليس كما قالوه ، بل المدار على هذا وحده » .

التناصح بين المسلمين

ويعد التناصح بين المسلمين ركناً من أركان هذا الدين ، وهو قوامه ، وعليه يترتب صلاح الأمة ورشادها ، واستقامتها . لذلك جعله الله تعالى قرين الإيمان في أكثر من موضع من كتابه الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١ - ٣] . وقد جعله النبي ﷺ أحد أركان البيعة ، حيث قال جرير بن عبد الله : بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم ^(٢) .

(١) في « شرحه على مسلم » ٣٧ / ٢ .

(٢) أخرجه البخاري (٥٧) ، ومسلم (٥٦) .

وجعله من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: فقال «حق المسلم على المسلم ست»، وذكر منها: «وإذا استنصحتك فانصَحْ له»^(١) بل يجب أن ينصحه وإن لم يستنصحه.

وقد أولى الإمام النوويُّ هذا الحديث اهتماماً خاصاً، فأطال النفس في شرحه وبيان معانيه، على غير عادته ومنهجه في «شرحه على صحيح مسلم»، وما كان ذلك إلا لأهمية هذا الحديث، ومكانته في هذا الدين، وقد رأينا أن نأخذ هذا الشرح بكَماله لاستيفائه معاني الحديث، والدقة والعمق، الذي عالَج فيه الإمام النووي هذا الحديث.

النصيحة لله

والنصيحة لله تعني الإيمان به، والدعوة إليه، ونشر دينه، وإيصال رسالته إلى الناس كافة، في مشارق الأرض ومغاربها، وإثبات وجوده وعبودية الناس له، وبيان عظُمته من خلال النظر في الكون والحياة والإنسان. والاستفادة من الاكتشافات الحديثة في هذا المجال.

قال النووي رحمه الله: «أما النصيحة لله تعالى: فمعناها منصرفٌ إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه، والبغض فيه، وموالاته من أطاعه، ومعاداته من عصاه، وجهاد من كفر به، والاعتراف بنعمته، وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة، والحث عليها، والتلطف في جمع الناس، أو من أمكن منهم عليها. قال الخطابي رحمه الله: وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه، فالله تعالى غني عن نصح الناصح».

(١) أخرجه مسلم (٢١٦١) من حديث أبي هريرة.

النصيحة لكتابه

أما النصيحة لكتابه، فتعني الإيمان بأنه كلام الله تعالى المعجز، المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، والعمل على تعلمه وتعليمه. والاستفادة من الاكتشافات الحديثة في بيان وجوه الإعجاز فيه.

قال النووي رحمه الله: «وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى: فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المُحرِّفين وتعرُّض الطاعنين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكير في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته».

النصيحة لرسوله

وأما النصيحة لرسوله، فتعني الإيمان به وبرسالته، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وتعلم سنته وتعليمها والعمل بها. والدفاع عنه وعن سنته، وبيان فضله ومكانته وصفاته للناس، والدعوة إلى شريعته.

قال النووي رحمه الله: «وأما النصيحة لرسول الله ﷺ: فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حياً وميتاً، ومعاذة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه، وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبحث دعوته، ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها، والتفقه في معانيها، والدعاء إليها، والتلطف في تعلمها وتعليمها، وإعظامها، وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلُّق بأخلاقه، والتأدب

بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبته من ابتدع في سنته، أو تعرض لأحد من أصحابه، ونحو ذلك».

النصيحة لأئمة المسلمين

اختص النصيحة لأئمة المسلمين، لما لها من أهمية وأثر بالغ في صلاح الأمة بصلاحهم واستقامتهم، والنصيحة لهم تعنى إرشادهم، وتوجيههم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، والاستقامة على دين الله، وتطبيق شرع الله. وأن تكون هذه النصيحة شاملة لجميع شؤون الحياة، وتكون هذه النصيحة من أهل الاختصاص، سواء في أمور الدين من أهل العلم الشرعي، أو في أمور الدنيا من أهل الاختصاصات المختلفة في الاقتصاد، أو الاجتماع، أو السياسة، وغيرها.

قال النووي رحمه الله: «وأما النصيحة لأئمة المسلمين، فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم. قال الخطابي رحمه الله: ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم، إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح. وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم، ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات. وهذا هو المشهور. وحكاه أيضا الخطابي. ثم قال: وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين، وأن من نصيحتهم قبول ما روه، وتقليدهم في الأحكام، وإحسان الظن بهم».

هذا، ولنصيحة ولاية الأمر في عصرنا هذا أساليب ووسائل حديثة؛ منها تشكيل الأحزاب، والمنظمات السياسية، وما ينشأ عنها من وجود المعارضة السياسية،

والترشح للمجالس النيابية والبلدية، وما يترتب عليها من إيصال رسالة هذه الأحزاب لولاة الأمر بالطرق السلمية المتاحة، عن طريق المجالس النيابية، أو وسائل الاتصال الحديثة، أو غيرها. ولا يتعارض ذلك مع بيان وشرح أحوال الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للشعوب، حتى يكونوا على بصيرة من الأمر، ليتعاون الجميع كل من موقعه في تحمل مسؤولياته تجاه الأوضاع القائمة.

ومما أباحته القوانين والأنظمة إقامة المحاضرات والندوات والمؤتمرات السياسية، التي تعمل على تحليل الواقع السياسي للدولة، وما يعتريه من قوة، أو ضعف في بعض جوانبه، وإيجاد الحلول المناسبة، التي تعمل على الارتقاء بالدولة والخروج من مأزقها.

ومن ذلك إقامة الفعاليات والحركات الشعبية المختلفة، من مسيرات جماهيرية سلمية، واعتصامات، كوسيلة ضغط على الحكومات، للسعي نحو الإصلاحات المختلفة في الدولة.

النصيحة لعامة المسلمين

ومن حق المسلم على أخيه المسلم أن ينصحه، ويرشده إلى الخير، وينهاه عن الشر، فهي عماد المجتمع في صلاحه واستقامته، تجمع المسلمين على كلمة واحدة، وصف واحد، تؤلف بين قلوبهم، وتأخذ بأيديهم إلى مدارج الصلاح والفلاح.

وتشمل هذه النصيحة نصيحة الجماعات والأحزاب والهيئات العامة فيما بينها، نصيحة إيجابية بناءة قائمة على المحبة وإرادة الخير، البعيدة عن التشهير والتجريح، والتماس النقائص والعيوب، وإغفال الحسنات والمحامد.

قال النووي رحمه الله: «وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر، فإن شأدهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلون من

دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خللاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدكم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم، وغير ذلك من أحوالهم، بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيط هممهم إلى الطاعات. وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدينه. والله أعلم».

ثم نقل النووي عن ابن بطلال - رحمه الله - في هذا الحديث، قال: إن النصيحة تسمى ديناً وإسلاماً، وإن الدين يقع على العمل كما يقع على القول. قال: والنصيحة فرض يُجزئ فيه من قام به، ويسقط عن الباقي. قال: والنصيحة لازمة على قدر الطاقة، إذا علم الناصح أنه يُقبل نُصْحُهُ، ويُطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه. فإن خشي على نفسه أذى فهو في سعة. والله أعلم.

من آداب التناصح بين المسلمين

وللتناصح بين المسلمين آداب، عليهم مراعاتها، ليستقيم لهم التناصح على وجهه السليم، ولتأتي ثمراته يانعة على خير ما يرام. نُجمل أهمها فيما يلي:

- ١ - الإخلاص لله تعالى في النصيحة.
- ٢ - أن يكون الناصح عالماً بما ينصح به.
- ٣ - الإسراع في النصيحة، ما لم تدع الحاجة إلى الجهر بها، كالنصيحة العامة على المنابر المختلفة. أو ما يتعلق بالسياسات العامة للدولة، التي تهم جميع أفراد المجتمع.

- ٤ - الستر في النصيحة، وتجنب التشهير بالمنصوح له.
- ٥ - اختيار الأسلوب والوسيلة والوقت الأنسب في النصيحة، حسب الحال والمقام.
- ٦ - الرفق والتلطّف في النصيحة، واختيار الألفاظ الطيبة المناسبة للمقام.
- ٧ - الصبر على المنصوح له، وتكرار النصيحة إذا لزم الأمر.
- ٨ - امتثال الناصح بما ينصح به الناس، فمن المعيب أن يخالف قوله فعله.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - يرشد هذا الحديث إلى توثيق صلة المسلم بالله سبحانه تعالى وبرسوله ﷺ.
- ٢ - يقدم هذا الحديث النصيحة منهجاً لإصلاح الفرد والمجتمع والدولة.
- ٣ - النصيحة ركن عظيم من أركان هذا الدين، عليها قوامه وانتشاره.
- ٤ - يرشد هذا الحديث العلماء والدعاة إلى أن يقوموا بواجبهم تجاه أمتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باتخاذ الوسائل والأساليب المناسبة لكل حال ومقام.

الحديث الثامن

عصمة الدماء والأموال في النظام الإسلامي

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى» رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

معاني الغريب

عصموا: منعوا وحفظوا.

إلا بحق الإسلام: أي تزول العصمة فيما جعله الإسلام حقاً له في الدماء، كالشيب الزاني، وقاتل النفس، والمرتد، فإنه لا عصمة لدمائهم.

تواتر هذا الحديث

روى هذا الحديث عدد من الصحابة وصل عددهم إلى تسعة عشر صحابياً، وقد نص على تواتره، الإمام السيوطي في «الجامع الصغير»^(١) وأورده في كتابه «قطف الأزهار المتنثرة في الأحاديث المتواترة»^(٢). وكذا قال الكتاني في «نظم المتنثر»^(٣).

(١) برقم (٢٢٥٠).

(٢) بتحقيق خليل الميس، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ٣٤.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بالكتاني (المتوفى:

١٣٤٥هـ)، تحقيق: شرف حجازي، دار الكتب السلفية - مصر، ص ٣٩.

وقد روي هذا الحديث في الصحيحين، عن عددٍ من الصحابة منهم أنس ومعاذ وأبو هريرة وجابر وسعد بن طارق الأشجعي، وعمر. وفي غير الصحيحين من حديث أوس ابن أبي أوس، وابن عباس، وسهل بن سعد، وأبي بكر، وعياض الأنصاري، والنُّعَمان ابن بشير، وأبي بكر الصديق، وجريير بن عبد الله البجلي. وغيرهم.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يعد هذا الحديث قاعدة عظيمة في بيان غاية الجهاد في سبيل الله، وأن «لا إله إلا الله» هي منهجُ حياة، ليس للمسلمين فحسب، بل لكل من انضوى تحت لواء الإسلام ودولته ومجتمعه. وأن الإسلام يعصم دم المسلم، ويعصم دم غير المسلم، من رعايا الدولة الإسلامية، إلا في حالات خاصة بينتها النصوص الشرعية، واتفقت عليها كلمة علماء المسلمين. فالإسلام دين الله للعالمين، يعيشون تحت لوائه بأمن وسلام، ويستظلون بعدله ورحمته.

شبهة وردها

يثير البعض شبهةً حول هذا الحديث فيقول: إن قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» يفيد أن الإسلام انتشر بالسيف، وأنه أكره الناس على اعتناقه. وذلك بحملهم الجهاد في الإسلام على هذا المفهوم من هذا الحديث^(١). وقد أورد بعض الناس هذه الشبهة على صحيح البخاري، زاعمين أن الحديث لا يصح. والجواب على ذلك من جهة السند ومن جهة المعنى، أمّا من جهة السند فالحديث متواتر، وقد ذكرنا هذا، وأمّا من جهة المعنى، فقد أورد ابن حجر هذه الشبهة، ثم أورد الرد عليها من عدة

(١) انظر شرحنا على حديث ابن عمر الثالث في هذه الأربعين.

وجوه، أمثلها قوله: أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة وغيرها، التعبير عن إعلاء كلمة الله، وإذعان المخالفين، فيحصل في بعض بالقتل، وفي بعض بالجزية، وفي بعض بالمعاهدة. وكلام ابن حجر هذا يفيد عدم إكراه غير المسلم على الإسلام.

ونقول وبالله التوفيق: إنه يجب أن يفهم هذا الحديث في سياق الإسلام كله، ومنهاجه في التعامل مع الناس دعوة وإرشاداً. وفي ضوء نصوص القرآن والسنة التي تُخير الناس عند الفتح بين الإسلام، أو الصلح، أو القتال، كحديث بُريدة بن الحُصيب عند مسلم برقم (١٧٣١) قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُمّر أميراً على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا مَنْ كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغلوا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكُف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكُف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفية شيء، إلا أن يُجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم».

وعليه فإن حديث ابن عمر هذا يعني أن يطلب من الناس عند الفتح أن يدخلوا تحت لواء الإسلام ونظامه العام، دون إكراه على اعتناق الإسلام، وفق الأسس الثلاثة المعروضة في حديث بُريدة، فالشهادة المقصودة في هذا الحديث، إنما هي أن يُقرَّ بالنظام الإسلامي، وأن يعترف به كدولةٍ يتحاكم إليها.

وفي الواقع، فإنَّ أيَّ دولةٍ في العالم عبر التاريخ تطُلب من رعاياها أن يعترفوا بها كنظام شاملٍ، يتحاكم أفراد الشعب إليها.

يقول الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى^(١): «عجيبٌ أن تجدَ الشيوعية دولةً تهتفُ بها، وتدعو إليها، وتُنْفِقُ في سبيلها، وتَحْمِلُ الناسَ عليها، وأن تجدَ الفاشيةَ والنازيةَ أُمَمًا تُقَدِّسُهَا، وتجاهدُ لها، وتَعْتَرِزُ باتباعها، وتَخْضَعُ كلُّ النظمِ الحيوية لتعاليمها، وأن تجدَ المذاهبَ الاجتماعيةَ والسياسيةَ المختلفةَ أنصاراً أقوياء، يَقِفُونَ عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصُخُفَهم وجهودهم، ويحيون ويموتون لها. ولا نَجِدُ حُكُومَةً إسلاميةً تقومُ بواجبِ الدعوةِ إلى الإسلام، الذي جَمَعَ مَحاسنَ هذه النظم جميعاً، وطَرَحَ مساوئها، وتقدمه لغيرها من الشعوبِ كنظامٍ عالمي، فيه الحَلُّ الصحيح الواضح المُريح لكل مشكلاتِ البشرية، مع أنَّ الإسلامَ جعلَ الدعوةَ فريضةً لازمةً، وأوجبها على المسلمين، شعوباً وجماعاتٍ، قبل أن تُخْلَقَ هذه النظم، وقبل أن يعرف فيها نظام الدعايات».

والواقع أن الإسلام لم يُكرِه أحداً على اعتناقه، بل هو أعظمُ دين على وجه الأرض فتح الحريةَ لأصحابِ العقائد والمذاهب، سواء كانت سماوية، أو أرضية أو مادية، وهذا معلومٌ من الدين بالضرورة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

وقد جاء التطبيق العملي لهذا المنهج ابتداءً من عصر النبي ﷺ إلى آخر العصور التي حكم فيها الإسلام، إذ كان أول عمل في المدينة تنظيم العلاقات بين المسلمين واليهود، وإعطاء كل أمة الحق في ممارسة دينها وشعائرها، وهذا ما درج عليه

(١) في «الرسائل» رسالة الإخوان المسلمون تحت راية محمد ﷺ، ص ٣٩٠.

المسلمون عندما فتحوا بلاد الروم وبلاد فارس واليمن ومصر وشمال إفريقيا، وعندما وصلوا إلى الأندلس، وأواسط أوروبا، حيث لم يشهد العالم الإسلامي محاكم تفتيش دينية، ولم يشهد حروباً كالحروب الصليبية، تستباح فيها دماء المخالفين في العقيدة وأموالهم وأعراضهم، ولا غرابة أن يكون هذا النهج هو المعروف عند كبار المؤرخين والكتاب، وقد شهد الجميع للمسلمين بعدلهم، حيث لم تكن فتوحاتهم فتوحات قهر واستعباد، بل كانت فتوحات هداية ورحمة وعدالة، وهذا الذي جعل المسلمين يستقرون في البلاد المفتوحة، وجعل الشعوب تتقبل هؤلاء الوافدين الجدد، بمنتهى التقدير والاحترام، بل وأن تتلقى هذه الشعوب منهم الحضارة، على خلاف ما كانت عليه الشعوب التي كانت ترفض تعاليم الفاتحين وحضارتهم، وتتمرد عليهم، وبزوال سلطانهم تنتهي كل تأثيراتهم الثقافية والحضارية.

يقول غوستاف لوبون^(١): «وكان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسبوا معامل المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم، التي كانت خاضعة لهم بعد، ولأصابتهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخراً، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً، فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانية، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فاضيين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً في مُقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم».

(١) انظر «حضارة العرب» لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير، مؤسسة هداوي للتعليم والثقافة.

ومن جهة أخرى فإن تعامل الإسلام مع الشعوب يختلف عن تعامل الدول الأخرى، والأنظمة على مدار التاريخ مع الشعوب، فالإسلام هو دين الله للعالمين، لم يحمل هيمنةً خاصة لعرق من الأعراق، ولا لشعب معين من الشعوب، وإنما هو دين وفكر وحضارة، وقد جمع بين الصفة الربانية الإلهية من حيث المصدر، والصفة الإنسانية العالمية من حيث التطبيق والسلوك، وبموجب هذه الأحكام التشريعية التي تعد هبة الله للعالمين، ورحمة الله بالناس أجمعين، فقد حمل الإسلام من خلال شريعته وعقيدته وفكره هذه الرسالة إلى الشعوب؛ لأنه لا يجوز حرمان أحد من هذا الخير. فلم يكن الجهاد في الإسلام لمجرد السيطرة والنفوذ، وإنما لإيصال رحمته وشريعته ودينه إلى العالم أجمع، والإسلام لا يتردد في حمل هذه الرسالة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وذلك من خلال الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي الأحسن.

وإذا كان الجهاد يعمل على نشر هذه الفكرة وتعميمها، فإنه يعتبر من حق الشعوب أن يصل الإسلام إليها، وأن تكون حرة في اختياره ديناً لها، على أن يكون الإسلام نظاماً لحياتها حتى لو بقي الناس على أديانهم وعقائدهم، ولكن في ظل نظام عادل رحيم، يُحقق حاجاتهم البشرية، ويهيئ لهم سُبُل العيش الكريم، بإطلاق إراداتهم، واحترام حرياتهم.

ومن هنا فإن الجهاد في الإسلام محددة أهدافه في إعلاء كلمة الله، بتطبيق نظام الإسلام في الحياة. وحديث الباب هذا إنما هو تطبيق كامل لهذه المبادئ، فالناس أمام خيارات: أن يقبلوا هذا الدين عقيدة وشريعة في الحياة، أو أن يسالموا هذا الدين، مع الحفاظ على عقائدهم ومذاهبهم مهما كانت، سماوية، أو أرضية، مع أخذ النظام العام الذي يوجه الناس إلى حياة فضلى، وهي المدينة الفاضلة التي تكلم عنها أفلاطون، ولكنه لم يرها، بينما رآها المسلمون، ورآها العالم في أفياء دولة الإسلام العالمية.

وقد يقول قائل: هل من حق المسلمين أن يجعلوا من أنفسهم شهداء وقادة للعالم؟ أليس هذا نوعاً من الاستبداد والطغيان، كما فعل اليونان والرومان والفرس والفراعنة؟ والجواب على ذلك: إن الذي يقوم بهذه المهمة والوظيفة ليس عرقاً يفرض عرقيته على الآخرين، وإنما يمارس هذا الدور أمة من الناس، لا تفضل الآخرين إلا بالتقوى، بغض النظر عن أصولهم وأعراقهم، سواء كانوا من العرب، أو من الترك، أو المغول، أو من العجم. وهذا الذي حصل فعلاً عبر التاريخ الإسلامي، لم يكن شعبٌ بعينه هو الموكَّل بهذه المهمات، وقد مارست جميع الشعوب حقّها في الشهادة والقيادة، وشاركت الشعوب الأخرى في إنتاج هذه الحضارة.

والخلاصة: إن قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» لا يُقصد منه إكراه أحد على هذا الدين، وإنما المقصود الذي يتفق مع الإسلام ومبادئه هو قيام نظام إسلامي، يُشكل حضارة إسلامية، عالمية، تنصّوي تحتها الشعوب، وتُمارس من داخل هذا النظام شخصيّتها وحرّيتها الدينية والمذهبية.

الصلاة والزكاة أهم العبادات

وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث الصلاة والزكاة، وأراد شرائع الإسلام كلها، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، تنبيهاً على مكانة الصلاة بين العبادات البدنية والقلبية، ومكانة الزكاة بين العبادات المالية والمجتمعية.

عصمة دم المسلمين وغيرهم ممن في بلاد المسلمين

المسلمون يعصمون دماءهم باعتناقهم هذا الدين، أما رعايا الدولة الإسلامية فيعصمون دماءهم بالإقرار والانضواء تحت راية الإسلام، وقبله كنظام حياة. لكنهم يخفرون هذه العصمة إذا أخلوا بشروطها، فالمسلم يخفّرها إما بالردة عن الإسلام، أو قتل النفس بغير حق، أو غير ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقه.

وكذا الذمي والمعاهد، ومن يلحق بهما من رعايا الدولة الإسلامية، يخفرون هذه العصمة بارتكاب فعل من أفعال نقض العهد، الذي بينهم وبين الدولة الإسلامية، أو بارتكاب جريمة من جرائم الاعتداء على النفس، أو العرض، أو غيرها، ولكل تفصيل مبسوط في كتب الفقه^(١).

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - يؤكد هذا الحديث أهداف الجهاد في الإسلام، وهي إعلاء كلمة الله تعالى، ومنع الفتنة عن عباد الله. وتحرير الشعوب من الظلم والاستبداد.
- ٢ - الدخول في الإسلام، أو الإقرار بدولته كنظام للحياة يعصم الدماء والأموال.
- ٣ - من حق الإسلام أن يكون له دولة تحكم الناس، وفق نظامه كسائر الدول والأنظمة والمذاهب.
- ٤ - يرشد هذا الحديث إلى تقديم الجهاد في الإسلام للناس كمفتاح للعدل والحرية والكرامة والحضارة.
- ٥ - يرشد هذا الحديث العلماء والدعاة إلى الاعتزاز بهذا الدين، والعمل على إعادة مجده وكيانه في العالمين.

(١) ينظر كتاب «أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام» للدكتور عبد الكريم زيدان.

الحديث التاسع

منهج التلقي في الإسلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَاتُّوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ». رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومُسلَّم (١٣٧٧).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

أبو هريرة الدوسي عبد الرحمن بن صخر، الإمام، الفقيه، المجتهد، الحافظ، أبو هريرة الدوسي، اليماني، سيد الحفاظ الأثبات. اختلف في اسمه على أقوال جمة، أرجحها: عبد الرحمن بن صخر. ويقال: كان في الجاهلية اسمه عبد شمس، أبو الأسود، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وكناه أبا هريرة. والمشهور عنه: أنه كُتِبَ بأولاد هرة برية. قال: وجدتُها، فأخذتها في كمي، فكنيت بذلك. كان مقدمه وإسلامه في أول سنة سبع، عام خيبر. وصحب النبي ﷺ أربع سنين، وحمل عنه علماً كثيراً، طيباً، مباركاً فيه، لم يُلحق في كثرته. حدث عنه خلقٌ كثير من الصحابة والتابعين. قال البخاري: روى عنه ثمان مئةٍ أو أكثر. وكان حفظه الخارق من معجزات النبوة، وذلك حين شكى إلى النبي ﷺ نسيان حديثه فقال له: أبسط رداءك فبسطه، فَعَرَفَ بيديه، ثم قال: «ضُمَّهُ»، فَضَمَّمْتُهُ، فما نَسِيتُ شيئاً بعده^(١). وكان يقول: ما أحد من أصحاب رسول الله أكثر

(١) أخرجه البخاري (١١٩).

حديثاً مني عنه، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب، وكنت لا أكتب^(١).
توفي سنة سبع وخمسين للهجرة^(٢).

مناسبة ورود الحديث

ورد في رواية عند مسلم^(٣) ذكر سبب ورود هذا الحديث، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء، فدعوه».

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث قاعدة عظيمة في بيان منهج الإسلام في أمور كثيرة، أولها بيان منهجه في السؤال عن أمور الدين وغيرها، وبيان منهجه في التعامل مع الأوامر والنواهي الشرعية، وبيان منهجه في تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وبيان منهجه في التيسير ورفع الحرج عن الأمة. وبيان منهجه في فقه الأولويات.

مشروعية السؤال ومنهجيته في الإسلام

السؤال مفتاح العلم وبابه، والطريق الموصل إليه، وقد ذكر القرآن جملة من أسئلة الصحابة للنبي ﷺ، منها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾

(١) أخرجه البخاري (١١٣).

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٥٧٨/٢.

(٣) برقم (١٣٧٧).

[المائدة: ٤] وغيرها، وقد ورد في الحديث الشريف مئات الأسئلة من الصحابة حول معرفة هذا الدين وأحكامه، منها: ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟^(١). ومنها عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟^(٢). وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟^(٣). وعن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ: أيرقد أحدنا وهو جنب؟^(٤) وغيرها.

وكان السؤال متاحاً للرجال والنساء على حد سواء، وما سورة المجادلة عن هذا بعيد. ولكن هذا السؤال لم يكن على إطلاقه، بل كان وفق ضوابط بينت ماذا نسأل، وكيف نسأل.

وفي هذا الحديث بيان منهج النبي ﷺ، وتوجيهه للأمة في السؤال وأحواله، فقد كان للسؤال في عهد النبي ﷺ أحوال، ففي بداية الأمر كان السؤال مباحاً على إطلاقه، ولما كثر الصحابة، وأقبلوا على النبي ﷺ حتى ضاقت بهم المجالس، وأكثروا عليه من المسائل، وكان بعض هذه الأسئلة يخرج من المنافقين، بعيداً عن النافع منها، أو عن الآباء والمفقودات، وبعضها يحمل صفة التمحل^(٥) والتعجيز، وبعضها يخرج من اليهود، يحمل هذه الصفات، يضاف إليها الأغلوطات^(٦) والتشكيك في الدين، جاء النهي عن السؤال بعامة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٧)، ومسلم (٣٠٦).

(٥) التمحل: هو الاحتيال والكيد والمكر.

(٦) الأغلوطات: هي شدة المسائل وصعابها التي يعجز عنها المسؤول، فيغلط فيها. وقد روى أبو داود (٣٦٥٦) بسند ضعيف عن معاوية أن النبي ﷺ نهى عن الغلوطات.

تَسْؤَلُكُمْ ﴿[المائدة: ١٠١] فصار الصحابة يخشون سؤال النبي ﷺ، حتى يجيء الأعرابي، فيسأل النبي ﷺ، وهم يسمعون.

ويستفاد من هذا الحديث، موضوع الشرح، الضوابط العامة للسؤال، بحيث يكون السؤال مما يهم الناس في حياتهم العلمية النافعة، والعملية الواقعة، بعيداً عما لم يقع، أو ما كان من الغيبات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، كالذي سأله عن الساعة، فوجهه إلى المهم من أمرها، وهو ماذا أعددت لها؟^(١).

ومن الضوابط تجنب ما وقعت فيه الأمم السابقة، من أسئلة التمحّل والأغلوطات والتعجيز.

ويستفاد من هذا الحديث أيضاً كراهة السؤال عما لا يعني السائل، وقد يضر المسؤول عنه، لذلك قال النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٢).

ففي هذا الحديث تميز هذا الأمة عن الأمم السابقة، التي كانت تسأل أنبياءها أسئلة لا يقصد منها المعرفة النافعة، وإنما يقصد منها التعجيز، والتهرب من الأحكام الشرعية، وافتراس المعاذير، والاستهزاء والسخرية أحياناً. كما في قصة بقرة بني إسرائيل.

وقد أورد ابن رجب جملة من هذه الضوابط، فقال^(٣): «فدلت هذه الأحاديث على النهي عن السؤال عما لا يحتاج إليه مما يسوء السائل جوابه، مثل سؤال السائل، هل هو في النار أو في الجنة، وهل أبوه من ينتسب إليه أو غيره، وعلى النهي عن السؤال على وجه التعنت والعبث والاستهزاء، كما كان يفعل كثير من المنافقين وغيرهم. وقريب من ذلك سؤال الآيات واقتراحها على وجه التعنت، كما كان يسأله المشركون وأهل الكتاب، وقد قال عكرمة وغيره: إن الآية نزلت في ذلك. ويقرب من ذلك السؤال عما أخفاه الله عن عباده، ولم يطلعهم عليه، كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح. ودلت

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٦٧) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٤٠.

أيضاً على نهي المسلمين عن السؤال عن كثيرٍ من الحلال والحرام، مما يُخشى أن يكون السؤال سبباً لنزول التشديد فيه، كالسؤال عَنِ الْحَجِّ: هل يجب كل عام أم لا؟ وفي الصحيح عن سعدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»^(١). ولما سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن من وجد رجلاً على فراشه، فكره النبي ﷺ المسائل، وعابها، حتى ابْتُلِيَ السَّائِلُ بِوُقُوعِ ذَلِكَ فِي أَهْلِهِ^(٢)، وكان النَّبِيُّ ﷺ ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال^(٣).

ثم قال ابن رجب^(٤): «وَمِلَاكُ الْأَمْرِ كُلِّهِ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَسُلُوكَ طَرِيقِهِ، وَالْعَمَلَ بِذَلِكَ، وَدَعَاءَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، وَفَقَّهَ اللَّهَ وَسَدَّدَهُ، وَأَلْهَمَهُ رَشْدَهُ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَمْدُوحِينَ فِي الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَمِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ».

وفي قول النبي ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»، إجابة عن كثير من الأسئلة، التي لا يحتاج إليها لوضوحها، ومعرفة الحلال من الحرام فيها. وكل هذا لا يتعارض مع منهج البحث العلمي، القائم على إثارة الأسئلة، ثم الإجابة عليها، ووضع الفروض ومناقشتها، وهذا منهج قرآني سبق القرآن به جميع أصحاب النظريات البحثية في هذا المجال. فلطالما أثار القرآن أسئلة عرض فيها حجج الخصوم، ثم ذكر الجواب عليها. من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٧).

(٤) في «جامع العلوم والحكم»: ٢٥٠/١.

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿الرعد: ١٦﴾.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا، إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤٠-٤١].

الاختلاف على الأنبياء

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الاختلاف عليه، كما اختلفت الأمم السابقة على أنبيائها. واختلاف الأمم السابقة على أنبيائها له صور كثيرة، فمنها: التشكيك بنبوتهم ورسالتهم، ومنها: تكذيبهم، ومنها: تأليههم كما فعل اليهود مع عزيز، والنصارى مع المسيح. ومنها: طلب المعجزات منهم، ومنها: اختلافهم في عقائدهم وأحكامهم حتى أصبحوا فرقاً وطوائف متناحرة.

قال ابن دقيق العيد^(١): «قال بعض العلماء: كانت بنو إسرائيل يسألون، فيجابون، ويُعطون ما طلبوا، حتى كان ذلك فتنة لهم، وأدى ذلك إلى هلاكهم. وكان الصحابة رضي الله عنهم قد فهموا ذلك، وكفوا عن السؤال إلا فيما لا بد منه، وكان يعجبهم أن يجيء الأعراب يسألون رسول الله ﷺ، فيسمعون، ويعون».

وقد كانت الآيات والمعجزات تجري على يد رسول الله ﷺ دون سؤال من الصحابة، فعن عبد الله بن مسعود قال: كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعْدُونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ الْمَاءُ. فَقَالَ: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ». فَجَاؤُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ،

(١) «شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية» تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)، مؤسسة الريان، الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص ١٠٢.

فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حَيَّ عَلَى الطَّهَّورِ الْمَبَارَكِ، وَالْبَرَكَتُ مِنْ اللَّهِ» فلقد رأيتُ الماءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولقد كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ^(١).
وقد حذر النبي ﷺ أُمَّتَهُ مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَالْفِرْقَةِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْوَحْدَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْاِعْتَصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ.

أما اختلاف العلماء والفقهاء في الأحكام الشرعية فلا يعد من الاختلاف المذموم، وإنما مبناه على اختلاف الفهوم والأدلة. وهو من الاختلاف المشروع القائم على الاجتهاد. وما حادثة اجتهاد الصحابة في الصلاة في بني قريظة عن هذا ببعيد^(٢).

منهج التعامل مع الأوامر والنواهي

وقول النبي ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»، فيه أن هذا الدين قائم على منهج التلقي عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، وأن آيات القرآن والأحكام الشرعية تنزل ابتداءً، ويتلقاها المؤمنون من الوحي.
وفي هذا بيان للمسلمين عبر التاريخ أن القرآن والسنة هما مصدر التشريع في جميع جوانب حياتهم، الفردية والجماعية، في العبادات والمعاملات والاعتقادات والقيم والأخلاق.
وقوله هذا ﷺ قاعدة عامة في التعامل مع المنهيات والمأمورات، فالأصل في المنهيات الكف والامتناع. وأما المأمورات فالأصل فيها الفعل، المبني على الاستطاعة.
قال ابن رجب: «وقالت طائفة من المتأخرين: إنَّما قال: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»؛ لأنَّ امتثال الأمر لا يحصل إلاَّ بعمل،

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٢) أخرج القصة البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠) عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لنا لما رجَعَ مِنَ الْأَحْزَابِ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يَرُدْ مِنْ ذَلِكَ. فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنْفَ أَحَدًا مِنْهُمْ.

والعملُ يتوقفُ وجودُهُ على شروط وأسباب، وبعضها قد لا يُستطاع، فلذلك قيده بالاستطاعة، كما قيد الله الأمر بالتقوى بالاستطاعة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. وقال في الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وأما النهي: فالمطلوب عدمه، وذلك هو الأصل، فالمقصود استمرار العدم الأصلي، وذلك ممكن، وليس فيه ما لا يُستطاع، وهذا أيضاً فيه نظر، فإن الداعي إلى فعل المعاصي قد يكون قوياً، لا صبر معه للعبد على الامتناع عن فعل المعصية، مع القدرة عليها، فيحتاج الكف عنها حينئذٍ إلى مجاهدةٍ شديدةٍ، ربما كانت أشقَّ على النفوس من مجرد مجاهدة النفس على فعل الطاعة، ولهذا يُوجد كثيراً من يجتهد في فعل الطاعات، ولا يقوى على ترك المحرمات». ثم قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «والتحقيق في هذا أن الله لا يكلف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيراً من الأعمال بمجرد المشقة، رخصةً عليهم، ورحمةً لهم».

وأما المناهي، فلم يعذر أحداً بارتكابها بقوة الداعي والشهوات، بل كلفهم تركها على كل حال، وأن ما أباح أن يتناول من المطاعم المحرمة عند الضرورة ما تبقى معه الحياة، لا لأجل التلذذ والشهوة، ومن هنا يعلم صحة ما قاله الإمام أحمد: إن النهي أشد من الأمر. وقد روي عن النبي ﷺ من حديث ثوبان وغيره، أنه قال: «استقيموا ولن تُحصوا»^(١) يعني: لن تقدرُوا على الاستقامة كلها»^(٢).

وقال ابن رجب أيضاً: «وفي قوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» دليل على أن من عجز عن فعل المأمور به كله، وقدر على بعضه، فإنه يأتي بما أمكنه منه»^(٣). وأمثلة ذلك كثيرة معروفة، في الطهارة والصلاة والصيام والحج وغيرها.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨). وهو حديث صحيح.

(٢) انظر «جامع العلوم والحكم»: ٢٥٤/١.

(٣) انظر «جامع العلوم والحكم»: ٢٥٦/١.

وقد جاء في الحديث الثلاثين من هذه الأربعين أن هناك أشياء مسكوت عنها، نُهينا عن البحث عنها، وسيأتي شرح ذلك وتفصيله هناك إن شاء الله.

يسر الدين ورفع الحرج

وفي قوله ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام في التيسير، ورفع الحرج عن الأمة. حيث أناط العمل بالاستطاعة، وفي هذا مراعاة لاختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال. وكل ذلك منوط بتقوى الله، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ومبنى الدين كله على التيسير ورفع الحرج، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»^(١).

فقه الأولويات

وهذا الحديث أصل في فقه الأولويات، بتقديم الأهم على المهم، والمهم على الأقل أهمية. فلا يشتغل المسلم بالسؤال عما لم يقع، في حين يقصر في معرفة ما وقع أو العمل به.

قال ابن حجر^(٢): وفي الحديث إشارة إلى الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلاً، عمّا لا يحتاج إليه في الحال، فكأنّه قال: عليكم بفعل الأوامر واجتناب النّواهي، فاجعلوا اشتغالكم بها عوضاً عن الاشتغال بالسؤال عمّا لم يقع، فينبغي للمسلم أن يبحث عمّا

(١) أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٠١٨).

(٢) «فتح الباري» ٤٣/٢٤.

جاء عن الله ورسوله، ثم يَجْتَهِدَ في تَفْهَم ذلك، والوقوف على المراد به، ثم يَتَشَاغَل بالعمل به، فإن كان من العِلْمِيَّات يَتَشَاغَل بتصديقه واعتقاد حَقِّيَّتِهِ، وإن كان من العَمَلِيَّات بَدَلَ وُسْعِهِ في القيام به فعلاً وتركاً، فإن وَجَدَ وقتاً زائداً على ذلك، فلا بأس بأن يَصْرِفَهُ في الاشتغال بَتَعَرُّفِ حُكْم ما سَيَقَعُ على قَصْدِ العمل به إن لو وَقَعَ، فأما إن كانت الهِمَّةُ مصروفة عند سماع الأمر والنَّهْيِ إلى فَرَضِ أمور قد تَقَعُ وقد لا تَقَعُ، مع الإعراض عن القيام بِمُقْتَضَى ما سَمِعَ، فإنَّ هذا ممَّا يَدْخُلُ في النَّهْيِ، فالتفقه في الدِّينِ إِنَّمَا يُحَمَّدُ إِذَا كَانَ لِلْعَمَلِ، لا لِلْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- في هذا الحديث بيان لمنهج التلقي في هذا الدين، وأن الكتاب والسنة هما مصدر التلقي.
- ٢- في هذا الحديث مراعاة ضوابط السؤال في هذا الدين وآدابه. وتجنب أسئلة التعنت والتمحُّل والاستهزاء والأغلوطات.
- ٣- منهج الإسلام لا يتعارض مع السؤال القائم على الحاجة والفائدة والبحث العلمي السليم.
- ٤- مبنى النواهي في هذا الدين على الترك والامتناع.
- ٥- مبنى الأوامر في هذا الدين على التنفيذ والعمل القائم على الاستطاعة.
- ٦- يعد هذا الحديث قاعدة من قواعد التيسير ورفع الحرج في هذا الدين.
- ٧- ويعد أيضاً قاعدة في تأصيل فقه الأولويات.
- ٨- يرشد هذا الحديث العلماء والدعاة إلى مراعاة ضوابط السؤال والبحث العلمي، ومراعاة التيسير ورفع الحرج عن الناس، ومراعاة فقه الأولويات في دعوة الناس وإرشادهم.

الحديث العاشر

الدعاء المستجاب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ: أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يُمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟». رواه مُسْلِمٌ (١٠١٥).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام في قبول الأعمال، حيث جعل الله تعالى مبناها على الطيب الحلال في المأكل والمشرب والملبس.

إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً

بما أن الذي يقبل الأعمال، ويثيب عليها، هو الله تبارك وتعالى، فقد بدأ النبي ﷺ بقوله: إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وأصل الطيب السلامة من الدنس والخبث، فهو في صفة الله بمعنى المنزه عن النقائص، وفي الأعمال والأقوال ما كانت سليمة من الخبث.

وقد توجه هذا الحديث إلى الربط بين كسب المال وإنفاقه، ثم بين كسب المال واستجابة الدعاء، ففي الأولى فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، فإن الله تعالى يحب الكسب الحلال، كما يحب إنفاقه في الأعمال الصالحة، ولا يقبل صدقةً من مال حرام، كما قد لا يستجاب الدعاء إذا كان كسبُ الرجل من حرام.

وكل عبادة مالية، أو احتوت على جانب مالي، فإنها لا تُقبل إلا إذا كان المال من حلال، بنص هذا الحديث. فلا تقبل الصدقة والأضحية والعقيقة والهبة والوقف وغيرها إذا كان المال من حرام.

فليس من المعقول أن يسرق ثمن شاة، ثم يُضحي بها، أو تُذبح عقيقة أو نذراً، فليس هذا من الشرع في شيء. كما لا يُقبل أن يبني مسجد من أموال مَغصوبة. فهذا كله من باب التصرف في المال الحرام.

ففي «صحيح مسلم»^(١) عن ابن عمر، عن النَّبِيِّ ﷺ: «لا يقبلُ الله صلاةً بغير طهورٍ، ولا صدقةً من غلولٍ».

وقد يندرج تحت هذه الأحكام ذلك الذي أراد أن يتوب من التعامل بالربا، وكان له في البنك مبلغ من الربا، فهل يتصدق به أو يتركه للبنك؟ وهل يؤجر على صدقته هذه أم لا؟ فالراجع في هذه المسألة أن يأخذ هذا المبلغ، ويتصدق به، وليس له فيه أجر الصدقة، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. لكن قد يؤجر عليه من أبواب أخرى كال تعاون على البر والتقوى، أو من باب نفع المسلمين، وينفعه دعاؤهم. ومن جهة أخرى فإنه لا يتركه للبنك، يتصرف فيه بالربا، أو بوجوه غير مشروعة.

قال ابن رجب^(٢): وقد اختلف العلماء في حجٍّ من حجٍّ بمالٍ حرام، ومن صَلَّى في ثوب حرام، هل يسقط عنه فرضُ الصلاة والحج بذلك، وفيه عن الإمام أحمد روايتان،

(١) برقم (٢٢٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٦٢.

وهذه الأحاديث المذكورة^(١) تدلُّ على أنَّه لا يتقبل العملُ مع مباشرة الحرام، لكن القبول قد يُراد به الرضا بالعمل، ومدحُ فاعله، والثناءُ عليه بين الملائكة والمباهةُ به، وقد يُراد به حصولُ الثواب والأجر عليه، وقد يراد به سقوطُ الفرض به من الذمة، فإنَّ كان المراد هاهنا القبولُ بالمعنى الأوَّل أو الثاني لم يمنع ذلك من سقوط الفرض به من الذمة... والمراد - والله أعلم - نفي القبول بالمعنى الأوَّل أو الثاني، وهو المراد - والله أعلم - من قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

الكسب الطيب دأب المرسلين والمؤمنين

الكسب الحلال أمر عظيم في الدين، وقد بين الله لنا من أين يكون هذا الكسب، وكيف يكون هذا الكسب، وأبوابه المشروعة كثيرة، كالبيع والشراء والهبة والصدقات والفِيء والإجارة والميراث وغيرها، وكلها تحكمها ضوابط الشرع، حتى يتميز الخبيث منها من الطيب. فأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، من التزام هذه الضوابط في الكسب، فلا يتعدى به إلى الحرام.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾: «سَوَّى اللهُ تعالى بين النبيين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال، وتجنب الحرام، ثم شمل الكل في الوعيد، الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ صلى الله على رسله وأنبيائه. وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم».

من أسباب إجابة الدعاء في الحديث

وقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى جملة من أسباب إجابة الدعاء، فذكر منها أربعة: السفر، والتواضع في الهيئة واللباس، ورفع اليدين في الدعاء، والاستغاثة بقوله يا رب، يا رب.

(١) فقد أورد عدة أحاديث من قبيل حديثنا، عدم قبول الأعمال الصالحة مع مباشرة المحرمات.

أما السفر: فهو مدعاة لاستجابة الدعاء، لما يكون عليه المسافر من حال التذلّل والانكسار، بسبب غربته عن أهله ووطنه، وقد ورد في استجابة دعوة المسافر عن أبي هريرة، عن النَّبِيِّ ﷺ: «ثلاثُ دعواتٍ مستجابات لا شكَّ فيهن: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالد لولده»^(١).

وأما التواضع في اللباس والهيئة: فهو أيضاً من أسباب استجابة الدعاء، كما جاء في الحديث المشهور عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «رب أشعث، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(٢). على أن هذه الحالة ليست دائمة، وإنما تأتي في حالة الدعاء، والانكسار، كما في صلاة الاستسقاء^(٣)، وقد جاء الحديث في معرض استجابة الدعاء من التقي المنكسر رغم ملابسه الرثة - «فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٤) - وإلا فإن حسن الثياب ونظافتها وطيب رائحتها مطلوب على كل حال. لكن إذا انعكس هذا اللباس على قلبه ونفسه عجباً وغروراً، فإن ذلك يبعده عن الانكسار والخضوع، الذي هو مظنة استجابة الدعاء.

ومن آداب الدعاء وأسباب الاستجابة فيه: رفع اليدين فيه، وقد ورد في الحديث عن سلمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣١)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، والترمذي (١٩٠٥) و(٣٤٤٨). وهو حديث حسن بشواهده.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٢٣)، ومسلم (٨٩٤) عن عبّاد بن تميم، عن عمّه، قال: «حَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَسْقِي وَحَوْلَ رِدَاءَهُ». أي: جعل باطنه ظاهره.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه أبو داود (١٤٨٩)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، والترمذي (٣٨٧٢). وهو حديث صحيح.

ولرفع اليدين في الدعاء صور شتى: منها أن يرفع يديه ماداً لهما، كأن ظهورهما إلى السماء، حتى يُرى بياض إبطيه^(١). ومنها: رفعهما إلى مستوى الصدر، ومنها رفعهما إلى محاذاة الوجه^(٢)، ومنها الإشارة بالسبابة^(٣).

ومن آداب الدعاء وأسباب الاستجابة فيه: أن يجأر العبد إلى الله تعالى بمناداته بصفة الربوبية، فيقول: يا رب يا رب، وكذا الثناء على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. وقد جاءت الأدعية في القرآن الكريم في غالبها تفتتح بذكر صفة الربوبية، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢-١٩٥].

(١) أخرج أبو داود (١١٧١)، عن أنس: «أن النبي ﷺ كان يستسقي هكذا، يعني ومد يديه وجعل بطونهما مما يلي الأرض، حتى رأيت بياض إبطيه». وإسناده صحيح. وهو عند مسلم (٨٩٥) مختصر: «أن النبي ﷺ استسقى، فأشار بظهر كفيه إلى السماء»

(٢) أخرج أحمد (٢١٩٤٤) عن عُمير، مولى أبي اللحم: أنه «رأى رسول الله ﷺ يستسقي عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء قائماً، يدعو يستسقي رافعاً كفيه، لا يجاوز بهما رأسه مُقبِلٌ بباطن كفيه إلى وجهه». وإسناده صحيح.

(٣) أخرج مسلم (٨٧٤) عن عُمارة بن رُوَيْبة حين رأى بشر بن مَرْوان على المنبر رافعاً يديه، قال: «قبح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بإصبعه المسبحة. قال النووي: هذا فيه أن السنة أن لا يرفع اليد في الخطبة، وهو قول مالك وأصحابنا وغيرهم. وحكى القاضي عن بعض السلف وبعض المالكية إباحته لأن النبي ﷺ رفع يديه في خطبة الجمعة حين استسقى، وأجاب الأولون بأن هذا الرفع كان لعارض.

ما يمنع إجابة الدعاء

بين النبي ﷺ في هذا الحديث أن ارتكاب المحرمات في الأكل والشرب واللباس قد يمنع من إجابة الدعاء، وفي المقابل من أسباب إجابة الدعاء تحري الحلال في المأكل والمشرب والملبس.

قال ابن رجب رحمه الله ^(١): «وقوله ﷺ: «فَأَنَّى يَسْتَجَابُ لَذَلِكَ»، معناه: كيف يُستجاب له؟ فهو استفهامٌ وقع على وجه التّعجب والاستبعاد، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة، ومنعها بالكلية، فيؤخذ من هذا أن التوسّع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة، وقد يوجد ما يمنع هذا المانع».

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - الكسب الحلال دأب المرسلين والمؤمنين.
- ٢ - للدعاء آداب وأسباب للاستجابة، ينبغي مراعاتها.
- ٣ - من موانع استجابة الدعاء الكسب الحرام.
- ٤ - على الدعاة والعلماء أن يتحرّوا الحلال في مكاسبهم، ودعوة الناس وحثهم على ذلك.

(١) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٧٥.

الحديث الحادي عشر

الورع

عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِيحَانَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ». رواه النسائي (٥٧١١)، والترمذي (٢٥١٨)، وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو محمد الإمام السيد، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أبو محمد القرشي، الهاشمي، المدني، الشهيد. مولده في شعبان، سنة ثلاث من الهجرة. وكان يُشبهه جدّه رسول الله ﷺ. وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وهو أكبر أولادها وأولهم. كان عاقلاً حليماً مُحِبّاً للخير، فصيحاً مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ مَنْطِقاً وبديهةً، حج عشرين حجةً ماشياً. وقال أبو نعيم: دخل أصبهان غازياً مجتازاً إلى غَزَاةِ جُرْجَانٍ، ومعه عبد الله بن الزبير. وبايعه أهل العراق بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٤٠هـ، وأشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان، فأطاعهم وزحف بمن معه. وبلغ معاوية خبره، فقصدّه بجيشه. وتقارب الجيشان في موضع يقال له (مسكن) بناحية من الأنبار، فهال الحسن أن يقتتل المسلمون، ولم يَسْتَشْعِرِ الثِّقَةَ بمن معه، فكتب إلى معاوية يَشْرَطُ شروطاً للصّلح، ورضي معاوية، فخلع الحسن نفسه من الخلافة، وسلّم الأمر لمعاوية في بيت

(١) في النسخ المطبوعة مما وقع بين أيدينا: نسخة الشيخ أحمد شاكر، ونسخة الشيخ شعيب الأرنؤوط، ونسخة الدكتور بشار معروف، ونسخة المباركفوري في شرحه على الترمذي: حديث صحيح، دون قوله: حسن.

المقدس سنة ٤١ هـ، وسُمِّيَ هذا العام (عام الجماعة) لاجتماع كلمة المسلمين فيه. وانصرفَ الحسنُ إلى المدينة، حيث أقام إلى أن تُوفي سنة خمسين للهجرة^(١).

معاني الغريب

سبط رسول الله: ابن ابنته فاطمة.

ريحانته: شبهه بالريحانة.

يريبك: بفتح الياء وضمها، من الريب: وهو الشك.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث الصحيح قاعدة عظيمة في ترك الشبهات، خلاصتها أنه إذا دار الأمر بين الحل والحرم، ولم يتغلب أحد الجانبين على الآخر، فعلى المسلم أن يمتنع عنه، ويتركه ورعاً. وكثيراً ما يقع هذا، وفي شتى مناحي الحياة، العبادات منها والمعاملات. وقد بينا طرفاً منها في شرحنا على الحديث السادس من هذه الأربعين: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهاة». وذكرنا حكمها وكيفية التعامل معها هناك. كما أن هذا الحديث مع حديث «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مُشْتَبِهَات»، وحديث النواس بن سمعان السابع والعشرين الآتي في هذه الأربعين: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» تعد من القواعد المبينة لمنهج الورع في الإسلام.

الورع

والْوَرَع هو أن تُتَوَقَّى المحرمات والشبهات تعظيماً لله، وفي حديثنا هذا يتوقى المسلم عن كل ما يريبه، ويدعه إلى ما لا يريبه، وقد أورد البخاري في صحيحه في باب

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٣/٢٤٦، و«الأعلام» للزركلي ١/١٩٩.

تفسير الشبهات قول حسن بن أبي سنان: ما رأيتُ شيئاً أهونَ من الورع، دَعُ ما يَرِيْبُكَ إلى ما لا يَرِيْبُكَ. وهو ترك الشبهات.

فالمؤمن الصادق الإيمان يجعل بينه وبين المحرمات حاجزاً من التقوى والورع، فلا يقترب من المحرمات ولا من الشبهات، ومثل هذا الحاجز يحمله على مزيد من الخشية والصبر عن محارم الله، أما من أزال هذا الحاجز، فإنه يوشك أن يقارف المحرمات من حيث لا يدري، فيُظْلِمُ قلبه، وتقل درجة التأثم في أفعاله. مما يُجرُّه على فعل المنكرات.

من فساد الزمان قلة الورع

وقد أخبر النبي ﷺ أن من الفتن التي تحدث في الأمة عند فساد الزمان، وكثرة المعاصي، وانتشار الفجور، قلة الورع، حتى لا يبالي المرء فيما يأخذ من المال، من الحلال أو من الحرام. ومنه تضييع الأمانة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله. وانتشار الغش والمخادعة بين الناس. أخرج البخاري^(١) من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ من المال، أمن الحلال أم من حرام».

صور من ورع الصالحين

كان النبي ﷺ أروع الناس وأشدّهم خشية لله، وأبعدهم عن الشبهات، فعن أنس رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ بتمرّة مسقوطة، فقال: «لولا أن تكون صدقة لأكلتها»^(٢).

وعن عمرو بن عبّسة، قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ إلى بعييرٍ من المَغَنَمِ، فلما سلّم أخذ وَبَرَةً من جَنْبِ البعير، ثمّ قال: «ولا يحلُّ لي من غنائمكم مثل هذا إلّا الخمس، والخمس مردودٌ فيكم»^(٣).

(١) في «صحيحه» برقم (٢٥٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٥٥)، ومسلم (١٠٧١).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٥٥) وهو صحيح.

وفي ورع أبي بكر رضي الله عنه روى البخاري^(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر رضي الله عنه غلامٌ يُخرجُ له الخَرَاجَ، وكان أبو بكرٍ يأكلُ من خَرَاجِهِ، فجاء يوماً بشيءٍ فأكلَ منه أبو بكرٍ، فقال له الغلامُ: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكرٍ: وما هو؟ قال: كنتُ تَكْهَنْتُ لِنَاسٍ في الجاهليَّةِ وما أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إلا أَنِّي خَدَعْتُه فَلَقِينِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فهذا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ. فأَدْخَلَ أبو بكرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ.

وروى الطبراني^(٢) عن الحسن بن علي، قال: لما احتضر أبو بكر، قال: يا عائشة انظري اللَّقْحَةَ التي كنا نشربُ من لبنِها، والجَفْنَةَ التي كنا نَصْطَبُحُ فيها، والقَطِيفَةَ التي كنا نلبسُها، فإنَّا كنا نَنْتَفِعُ بِذَلِكَ حين كنا نلي أمرَ المسلمين، فإذا مِتُّ فاردِّدِيه إلى عمر، فلما مات أبو بكر، أرسلت به إلى عمر، فقال عمر: رَحِمَكَ اللهُ، لقد أَتَعَبْتَ مَنْ جَاءَ بِعَدِكَ.

وفي ورع عمر بن عبد العزيز روي عن فاطمة بنت عبد الملك، قالت: اشتهى عمر بن عبد العزيز يوماً عسلاً فلم يكن عندنا، فوجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد إلى بعلبك، فأتى بعسل، فقلنا يوماً: إنك ذكرت عسلاً وعندنا عسل، فهل لك فيه؟ قال: نعم. فأتيناه به فشرب، ثم قال: من أين لكم هذا العسل؟ قالت: قلت: وجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد بدينارين إلى بعلبك فاشترى لنا عسلاً. قالت: فأرسل إلى الرجل فجاء، فقال: انطلق بهذا العسل إلى السوق، فبعه، فاردد إلينا رأس مالنا، وانظر الفضل، فاجعله في علف دواب البريد، ولو كان ينفع المسلمين قيٌّ لتقيأت.

وفي ورع ابن سيرين قال بكر بن عبد الله المزني: من أراد أن ينظر إلى أروع من أدركنا، فليُنظر إلى محمد بن سيرين. وقال هشام بن حسان: كان محمد يتجر، فإذا ارتاب في شيء تركه.

(١) برقم (٣٨٤٢).

(٢) في «المعجم الكبير» (٣٨). وإسناده رجاله ثقات، لكنه منقطع. اللَّقْحَةُ: الناقة القريبة العهد بالولادة. الجفنة: نوع من الآنية. نصطحب بها: نشرب بها صباحاً. القطيفة: هي كساء له أهداب وذئار.

فكم يتعرض المسلم لمواقف مشابهة في حياته اليومية، وخاصة أولئك الذي يتعاملون بالأموال العامة والصدقات والزكوات، فهم أولى الناس بالورع واجتناب الشبهات، وعدم التوسع فيما يباح لهم منها.

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١ - في هذا الحديث دعوة المسلمين إلى التخلق بخلق الورع في الدين، وهو اجتناب الشبهات، وما يفضي إلى المحرمات.
- ٢ - هذا الحديث أحد الأحاديث في بيان منهج الورع في الإسلام.
- ٣ - فيه توجيه إلى أن يحتاط المسلم لدينه في عباداته ومعاملاته.
- ٤ - الأصل في منهج الورع هو البناء على اليقين، والتخلص من الشك.
- ٥ - يوجه هذا الحديث العلماء والدعاة إلى الورع في الأموال، والفتاوى، والنصيحة، وتحري قول الحق، وحفظ اللسان عما يشينه.

الحديث الثاني عشر

ترك المسلم ما لا يعنيه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَرَكَّهُ مَا لَا يَعْْنِيهِ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا حديث عظيم وقاعدة عظيمة في الأدب والأخلاق التي دعا إليها الإسلام، قال ابن أبي زيد القيرواني^(١): «وجماع آداب الخير وأزمتها، تتفرع عن أربعة أحاديث قول النبي عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢). وقوله عليه السلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وقوله عليه السلام للذي اختصر له في الوصية: «لا تغضب»^(٣). وقوله عليه السلام «المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»^(٤).

وهو كلمة شاملة في الورع عن كل ما لا يعني من الأقوال والأفعال، قال ابن القيم^(٥): «وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما

(١) هو عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي، القيرواني، المالكي، أبو محمد، فقيه، مفسر، مشارك في بعض العلوم. ولد بالقيروان، وتوفي سنة ٣٨٦ هـ. وذلك في كتابه «الرسالة»، دار الفكر. ص ١٥٤.

(٢) هو الحديث الخامس عشر من هذه الأربعين.

(٣) هو الحديث السادس عشر من هذه الأربعين.

(٤) هو الحديث الثالث عشر من هذه الأربعين.

(٥) «مدارج السالكين» ٢ / ٢٤.

لا يعنيه» فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع».

وهو مرتبط بعدة أحاديث في الأربعين النووية: منها: الحديث السابق: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». والحديث التاسع: «فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم». والحديث الخامس عشر: «من كان يؤمن بالله اليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

المقصود بالحديث

والمقصود بما لا يعينك: هو كل قول أو فعل لا يترتب على تركه ضرر في الدين أو الدنيا. قال الإمام الغزالي رحمه الله: «وحدّ الكلام فيما لا يعينك: أن تتكلم بكلام ولو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضرّ به في حال ولا مال»^(١).

وفي المقابل، فإن أيّ قول أو فعل كان السكوت عنه سبباً في ضرر ديني، أو دنيوي، فهو مما يعينك. وعليه فلا يدخل في هذا الحديث السؤال عن أحوال إخوانك وأصحابك وأهلك، والاهتمام بشؤونهم الدينية والدنيوية. فلو سألت عن عبادتهم من صلاة وصيام وقيام وصلة أرحام وغيرها، أو سألت عن أعمالهم وأبنائهم وصحتهم وتحصيلهم العلمي وغير ذلك، فهذا مما يوطّد العلاقة بين المسلمين، ويدخل في مفهوم التناصح والتعاون على البر والتقوى، والاهتمام بشؤون المسلمين. ومنه بث الهموم والأحزان والمشكلات التي يعاني منها المسلم في حياته الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الدعوية، أو غيرها لأخيه المسلم من باب التناصح والاستشارة والتعاون في حل هذه المشكلات،

(١) «إحياء علوم الدين» أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة

فهذا مما لا بأس به، وقد يكون من الواجبات التي تدخل في حديث «وإذا استنصحك فانصحه». أما المبادرة إلى الاستفصال عن دقائق الأمور، واستدراج الأخ في السؤال عن أسرار حياته، التي يؤدي كشفها والتداول فيها إلى الإضرار به. فإن هذا بلا شك يدخل فيما لا يعنيك. وقد يدخل في باب التجسس المنهي عنه شرعاً.

ومما يدخل فيما يعنيك أن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، بقواعده وضوابطه إذا احتاج الموقف لذلك، ومما اشتهر عند كثير من الناس أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخل فيما لا يعنيك، لما قد يترتب عليه من ضرر. ومن أجل ذلك نجد بعض الناس يتواصون فيما بينهم بالسكوت على المنكرات والقبول بها. وهذا فهم مخالف لهدف الحديث ومعناه.

أما اللغو وكثرة الكلام فيما لا يهم الناس، فهو مما ينبغي تركه، قال ابن رجب: «وأكثر ما يُراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام»^(١). قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]. واللغو هنا هو الكلام فيما لا يحتاج إليه، أو مما لا خير فيه. فكثرة الكلام في المجالس، وفي وسائل التواصل الاجتماعي، قد يدخل في باب اللغو، وإشغال الناس، وإضاعة أوقاتهم بما لا يعنيهم. وكذلك نقل أخبار من لا يعنينا أمرهم، أو إشاعة الأخبار بدون تحقق، أو نشر الطرائف في القبائل، أو العشائر، أو البلدان مما فيه انتقاص واستهزاء بها، فهذا كله مما لا يجوز تداوله.

وما أجمل أن تتوجه عناية الناس إلى تداول ما يعنيهم من المقالات الفكرية والاجتماعية والصحية وغيرها، مما ينمي الفكر، ويحسن السلوك، ويزيد في الإيمان والتقوى والمعرفة الواعية. كما يحرص الجميع على نقل الأخبار الصادقة عن أحوال المسلمين، وأوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مما يزيد في ترابط المسلمين ومحبتهم وتعاونهم.

(١) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٩٠.

أما السكوت عن أحوال المستضعفين من المسلمين في فلسطين والعراق وسوريا واليمن وميانمار وغيرها من بلاد المسلمين، وما يجري لهم من قتل وتشريد وتهجير، بحجة أنه لا يعنينا أمرهم، وعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، فهذا مما يعد من التخاذل والقعود عن نصرة المظلوم، وقد قال النبي ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأً مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمة، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يُحب فيه نصرتة، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمة، إلا نصره الله عز وجل في موطن يُحب فيه نصرتة»^(١).

ويدخل فيما لا يعني المسلم السؤال عما سكت عنه القرآن من تفصيلات في بعض القصص، كسكوته عن الشجرة التي أكل منها آدم، وعن اسم أم موسى، وعن اسم فتى موسى، وعن اسم ذي القرنين، وغيرها مما لا ينبغي عليه عمل، ولا يتوصل إليه بخبر صحيح.

كما يدخل فيه السؤال عن ذات الله سبحانه وتعالى، وعن الساعة، وعن الروح، وقد سبق لنا الكلام فيما نهي عنه من السؤال، عند الحديث التاسع من هذه الأربعين: «فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم».

وهو درس في التربية يوجه عناية المربين، إلى لفت أنظار المتربين إلى الاهتمام بما يعينهم، والكف عما لا يعينهم.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - يعد هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الأدب والأخلاق في الإسلام.
- ٢ - يوجه المسلمين إلى العناية بما يهمهم في دينهم ودنياهم، وترك ما لا ينفعهم في دينهم ودنياهم.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٤) وفي إسناده ضعف لجهالة أحد رواته. وانظر الحديث الخامس والثلاثين من هذه الأربعين، وفيه: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله».

- ٣- هذا الحديث درس في التربية، يوجه عناية المربين إلى تربية أبنائهم على فقه الأولويات. والإعراض عما لا يعينهم.
- ٤- وهو درس أيضاً في التزكية والورع بترك الفضول من الأعمال والأقوال.
- ٥- التناصح، والتعاون، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاهتمام بأخبار المسلمين وأحوالهم، كل ذلك مما يهم المسلم، فلا يتركه.
- ٦- ويوجه العلماء والدعاة إلى العناية بفقه الأولويات، وإجراء هذا الحديث في علومهم ودعوتهم، بحيث يتم التركيز على الأهم فالمهم.

الحديث الثالث عشر

بناء الأمة بالمحبة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

أنس بن مالك بن النضر الأنصاري أبو حمزة. الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، خادم رسول الله ﷺ، وتلميذه، وتبعه. وكان يقول: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر، ومات وأنا ابن عشرين، وكن أمهاتي يحثنني على خدمة رسول الله ﷺ. فصحب أنس نبيه ﷺ أتم الصحبة، ولازمه أكمل الملازمة منذ هاجر، وإلى أن مات، وغزاه معه غير مرة، وباع تحت الشجرة. وروى عنه علماً جماً. رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة سنة ٩٣ للهجرة^(١).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث يعد قاعدة عظيمة من قواعد إصلاح الفرد، ليكون لبنة صالحة في بناء الأمة. هذه القاعدة مبنية على بث الروح الجماعية في نفس الفرد، فلا يتعامل مع المجتمع من خلال مصالحه الشخصية فحسب، بل ينظر في مصالح الآخرين، ويهتم لأمرهم كما يهتم لأمر نفسه.

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٣/ ٣٩٥، و«الأعلام» للزركلي ٢/ ٢٤.

وقد ربط النبي ﷺ هذا الخلق بالإيمان، وبين أن الإيمان لا يكتمل في قلب صاحبه حتى يحب للناس ما يحب لنفسه.

وقد تكلم الإمام حسن البنا رحمه الله عن الأخوة، التي لا تتحقق إلا بالحب في الله، فقال^(١): «أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأعلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأول القوة: قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب: سلامة الصدر، وأعلاه: مرتبة الإيثار، ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

المؤمن يحب الهداية للناس

يعمل المؤمن على أن يهتدي الناس إلى الله والطريق المستقيم كما اهتدى هو إليه، فنظرته إلى المجتمع نظرة عطف ورحمة ورأفة، أن يكون الناس جميعاً على الهدى والتقى، فإذا ما رأى عاصياً، رَقَّ قلبه إليه كي يُخرجه مما هو فيه، وإن رأى رجلاً على غير الإسلام، تمنى أن يخرجه الله تعالى من الظلمات إلى النور.

لذلك أُمِرنا بتحمل المشاق، واتخاذ أفضل السبل للدعوة إلى الله، التي تبشر ولا تنفر، وتيسر ولا تعسر. قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وعن أبي موسى الأشعري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا».

وقد روى البخاري في صحيحه (٦٧٧٧) عن أبي هريرة ﷺ في الرجل الذي شرب الخمر، فقال بعض القوم: أخزأك الله! قال: «لا تقولوا هكذا، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ».

(١) انظر ركن الأخوة من أركان البيعة في رسالة التعايلم.

ولم يقل النبي ﷺ ذلك إلا ليُعلم الصحابة الكرام أن يكون همهم هو الإصلاح. وأن ينعم الناس بما نعموا به من الهداية والإسلام.

وقد قال النبي ﷺ لعلي يوم خيبر «لأن يهدي الله بك رجلاً، خير لك من أن يكون لك حُمُرُ النعم»^(١). فيه بيان فضيلة السعي إلى هداية الناس، حتى في ميادين الجهاد والقتال، لذلك كان هدف القتال في الإسلام هو هداية الناس.

وينبني على محبته لهداية الناس أن يحب لهم دخول الجنة، والنجاة من النار، كما يحب ذلك لنفسه. وأن يدعو لإخوانه في ظهر الغيب، كما جاء عن النبي ﷺ: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل»^(٢). ولقد أنزل الله تعالى في كتابه العزيز دعاء المؤمنين لإخوانهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. ولا يتعارض ذلك مع التنافس على الخيرات، والاستباق إلى الطاعات. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

العلماء يحبون الخير للعلماء والناس

وأولى الناس بهذا الحديث هم العلماء، تشيع بينهم المحبة والتواد، رغم الاختلاف في الرأي والاجتهاد، ويتمنى كل منهم للآخر التوفيق والسداد في علمه، كما يتمناه لنفسه، لا أن يتصيد أخطاءه، ويسعى لنشرها بين الناس لانتقاصه، وإسقاطه، وفقد الثقة بعلمه، ليصد الناس عنه.

فهلا تمنى أحدهم للآخر أن يُجري الله تعالى الحق على لسان أخيه، كما يحبه لنفسه، وهلا وصل بهم المقام إلى ذلك المقام الذي وصل إليه الإمام الشافعي حين قال: وددتُ أن النَّاسَ تعلَّموا هذا العلمَ، ولم يُنسَبْ إليَّ منه شيء.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٢).

كما يتمنى العلماء للناس كافة أن يكونوا على منزلة من العلم والمعرفة، التي تعينهم على طاعة الله، واجتناب معاصيه. فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إني لأمرُّ على الآية من كتاب الله، فأودُّ أنَّ النَّاسَ كُلَّهُم يَعْلَمُونَ منها ما أعلم.

من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم

في هذا الحديث يدعو النبي ﷺ المسلمين إلى أن يحب بعضهم لبعض ما يحبون لأنفسهم من الخير، فالمسلمون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

فإذا احتل شبر من أرض المسلمين، انتفض المسلمون في شتى بقاع الأرض، يدافعون عنه بكل ما أتيح لهم من سبل، وبات الجهاد فرضاً على المسلمين الأقرب فالأقرب. وإذا حلت بالمسلمين في أرض ما جائحة، أو كارثة، أو مجاعة، أو مرض، هب المسلمون لنجدتهم ومساعدتهم، وكأن هذه المصائب قد وقعت عليهم أنفسهم. ولما احتلَّ اليهود أرض فلسطين تداعى كثيرٌ من المسلمون من أقطار الأرض لنصرة إخوانهم ونجدتهم، وهبت كتائب الإخوان المسلمين من مصر وسوريا والأردن والعراق والمغرب، لتمتزج دماؤهم مع دماء إخوانهم المسلمين في فلسطين، ولتبقى شاهداً أميناً على حبِّ المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.

وما يجري اليوم على أرض فلسطين، والعراق، وسوريا، واليمن، وتركستان، وإفريقيا الوسطى، وميانمار، وغيرها من البلاد، يجعل المسؤولية على عاتق المسلمين جميعاً في شتى بقاع الأرض، لنصرة إخوانهم المسلمين ونجدتهم.

مجتمع التحاب والتكامل

يعمل هذا الحديث على إشاعة المحبة في المجتمع، ونبذ التباغض والتحاسد، لا سيما وأن النبي ﷺ نهى المسلمين عن التباغض والتحاسد، والمخادعة والغش، فكل هذا ينافي محبة المسلم لأخيه ما يحب لنفسه.

فالتاجر والصانع والمزارع الذي يُحب لنفسه الربح والتوسع في تجارته وصناعته وزراعته، عليه أن يُحب للآخرين الربح والتوسع، وإن كان لا بد من المنافسة في الأسواق، فلتكن منافسةً شريفة قائمة على الصدق والأمانة. فلا يسعى أحدٌ إلى الغش والكذب ونشر الدعايات المضلّة والدعاوى الزائفة، وتشويه الآخرين وانتقاص ما عندهم ترويجاً لبضاعته. ومن أجل ذلك حرم الإسلام الربا والقمار والاحتكار والنجش والغبن.

وكذا في العلاقات الاجتماعية، عليه أن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه، وأن تكون العلاقات المجتمعية مبنية على تبادل المحبة والرفقة والرحمة والرفق والتسامح، وسعة الصدر، وإفشاء السلام، وبشاشة الوجه، وصلة الأرحام، وتبادل الزيارات، والهدايا.

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١ - هذا الحديث قاعدة عظيمة في بناء الأمة على الأخوة والمحبة.
- ٢ - لا يكتمل الإيمان إلا أن يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.
- ٣ - مجالات هذا الحديث تعم جميع جوانب الحياة.
- ٤ - هذا الحديث يرشد الدعاة والعلماء إلى تبادل الاحترام والتقدير والمحبة بينهم، وسلوك مبدأ الرأفة والرحمة في الدعوة إلى الله.

الحديث الرابع عشر

حرمة الدماء في الإسلام

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: الثَّيْبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ». رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

معاني الغريب

الثيب: هو من تزوج ووطئ في عقد صحيح.

شرح الحديث

أهمية الحديث

يعد هذا الحديث أصلاً عظيماً في حفظ الدين والنفس والعرض، ولما كانت هذه الحرمات من الخطورة بمكان، ويتوقف عليها أمن المجتمع وسلامته، فقد أمر الإسلام بعقوبات زاجرة، تمنع الاعتداء عليها، وتؤمن سلامتها في المجتمع المسلم. وفي هذا الحديث بيان حق الإسلام فيما يُستباح به دم المسلم، وعقوبة القتل لكل واحدٍ من هذه الخصال الثلاث متفقٌ عليها بين علماء المسلمين.

وقد روى هذا الحديث عدد من الصحابة غير ابن مسعود، منهم: عائشة، وأنس، وابن عباس، وأبو هريرة، وجابر، وعمار بن ياسر.

الثيب الزاني

من أهم مقاصد هذا الدين حفظ العرض والنسل، فقد حث الإسلام على الطهر والعفة، وشرع الزواج ويسر سبله، ودعا الشباب إليه، ثم شرع عقوبات رادعة للحفاظ

على العرض والأنساب، فحدّ عقوبة الزنا، وجعلها في حق المتزوجين أشدّ، لأن المتزوج المحصن قد آتاه الله هذه النعمة، وعرف معنى حرمة الأزواج والأعراض. أما المجتمعات التي تهاونت في جريمة الزنا، فإن فيها للمسلمين عظةً وعبرة، فقد أصبحت هذه المجتمعات على حافة الهاوية في حالتها السكانية والاجتماعية، حيث تلاشت الأسرة وضاعت، واختلطت الأنساب، وكادت هذه الروابط العظيمة أن تزول منها.

وفي هذا الحديث بين النبي ﷺ عقوبة الثيب الزاني، وهي القتل، وقد أجمع المسلمون على أنّ القتل في هذه الحالة هو الرجم حتّى الموت، وقد رجم النبي ﷺ ماعزاً والغامدية^(١). ورجم بعده خلفاؤه الراشدين، وانعقد عليه الإجماع.

النفس بالنفس

وقد كان من مقاصد هذا الدين العظيم حفظ النفس البشرية، فكرم الله الإنسان، ويسر له سبل الحياة، في جميع مجالاتها، وجعل مصالح الإنسان مناط الأحكام الشرعية، فأينما غلبت المصلحة فثمّ شرعُ الله. وشرع من الأحكام ما يحافظ على هذه النفس، مَصُونَةً من الاعتداء عليها، سواء بالقتل، أو الجرح. وشرع القصاص، وجعل فيه حياة للناس، لما فيه من ردع المجرمين، وزجرهم عن التعدي على حياة الناس.

وقول النبي ﷺ: «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» بيان لتحقيق المساواة بين المسلمين في الدماء، ومعناه: أنّ المسلم المكلف إذا قتل نفساً بغير حق عمداً، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ بها، ما لم يعف أهل القتل، أو يأخذوا الدية. وقد دلّ القرآن على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

(١) أخرج رجم ماعز البخاري (٦٨٢٤)، ومسلم (١٦٩٣) من حديث ابن عباس. وأخرج رجم ماعز والغامدية مسلم (١٦٩٥) من حديث بريدة.

الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى». ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨ - ١٧٩]. وليس في العفو، أو الدية تخفيف من وطأة هذه العقوبة، لأنها متروكة لاختيار ولي الدم، ولا يضمن القاتل أن يختار ولي الدم العفو أو الدية.

وقد سنت بعض الدول تشريعات تمنع عقوبة الإعدام في حق المجرمين القتلة، بحجة أن هذه العقوبة شديدة القسوة، والأصل في العقوبات الرحمة، ونسيت، أو تناست هذه التشريعات حق القتل، والقسوة في قتله، وإزهاق حياته، وما ترتب على هذه الجريمة من ويلات ومصائب، كما نسيت، أو تناست ما سيتلقاه المجرم في السجن من فنون الإجرام، وألوانه، وقد يظل هذا المجرم سبباً في ترويع الآمنين، وتهديد حياة الآلاف من أبناء المجتمع ما دام يدخل السجن ويخرج منه، وقد يتكرر ذلك منه مرات عديدة، وبذلك فإن الرحمة الحقيقية هي التي ضمنها الإسلام بقتل القاتل، فكان ذلك حماية للمجتمع وحياته وأمنه ووقايته. وهذا مما دعا بعض الدول أن تتراجع عن هذه التشريعات، وتعود إلى سن عقوبة الإعدام.

المرتد عن الإسلام

ومن مقاصد الإسلام أيضاً حفظ الدين، وقد كفل للناس حرية الاعتقاد، فقد قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما ضمن لهم أن يتعلموا أحكام دينهم وحدود الحلال والحرام فيه، وفي الوقت نفسه هناك من التشريعات ما يحفظ الدين من كل اعتداء عليه بالتشويه والتزوير والاستهزاء، فقد جعل العقوبة لمن ارتدَّ عن هذا الدين بعد أن دخل فيه مختاراً طائعاً دون إكراه، أن يقتل، ردعاً له لاعتدائه على الدين، وإحداث فتنة بين الناس، وإيهامهم بأن هذا الدين لا يصلح للناس، فرجع عنه، كما كان يفعل اليهود، يؤمنون أول النهار، ويكفرون

آخره، ليُصَدِّدُوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ، فَقَالَ سَبِّحَانَهُ حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. فليس هذا الدين أَلْعُوبَةً فِي أَيْدِي النَّاسِ، يَدْخُلُونَ فِيهِ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهُ مَتَى شَاءُوا.

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَبِيحُ الدَّمُ: الرَّدَّةُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَمُفَارَقَةُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَيَدْخُلُ فِي حُكْمِ الْمُرْتَدِّ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، كإِنْكَارِ حُكْمِ الصَّلَاةِ، أَوْ حُكْمِ الزَّكَاةِ، أَوْ إِنْكَارِ حُكْمِ تَحْرِيمِ الرِّبَا، أَوْ الْخَمْرِ، أَوْ أَنْكَارِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، أَوْ أَنْكَرَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ سَبَّ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةَ، أَوْ الْقُرْآنَ، أَوْ الْإِسْلَامَ، أَوْ الرِّسُولَ ﷺ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ نَوَاقِضِ الشَّهَادَةِ^(١)، ثُمَّ اسْتَتَيْبَ، فَلَمْ يَتَّبِعْ، فَيُقْتَلُ رَدَّةً. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(٢). وَلَا فَرْقَ فِي هَذَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ.

قَالَ ابْنُ قِدَامَةَ^(٣): «وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى وَجوبِ قَتْلِ الْمُرْتَدِّ. وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَمَعَاذٍ، وَأَبِي مُوسَى، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَخَالِدٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ، فَكَانَ إِجْمَاعًا».

تطبيق الحدود مسؤولية الدولة

والذي يقوم بتنفيذ هذه الحدود والعقوبات هي الدولة، بما لديها من أجهزة قضائية وتنفيذية، ولا يجوز للأفراد أن يتولوا أمر التنفيذ من تلقاء أنفسهم، لما يترتب

(١) انظر نواقض الشهادة في شرح الحديث الثالث.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٧).

(٣) انظر «المغني» لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجَمَاعِيْلِي المَقْدِسِي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المَقْدِسِي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م. ٣/٩.

على ذلك من فوضى وتعدّ وظلم في استباحة الدماء والأعراض. فمن المسلمات أن لا يأخذ كل أنسان حقه بيده، فهذه شريعة الغاب، التي لا يضبطها قانون ولا تشريع. وقد ذهب بعض الناس إلى تنفيذ هذه الأحكام فيما بينهم، فأدى ذلك إلى حالة من الظلم والاعتداء والتحكم والخروج عن أهداف الحدود وحكمها إلى نقيضها.

وهذا يستلزم العمل الدؤوب على إقامة دولة الإسلام، وإحياء شريعته، وتطبيق حدوده وأحكامه.

وشيء آخر لا بد من التنبيه عليه، وهو أن نظام العقوبات في الإسلام جزء من النظام الإسلامي العام، الذي يقوم على جملة من الأنظمة، تتكامل فيما بينها، لتحقيق أمن المجتمع وسلامته في جميع جوانبه الاجتماعية والسياسة والأخلاقية والاقتصادية، ويأتي نظام العقوبات كالحافظ لهذه الأنظمة من الاعتداء فيها، والتجاوز عليها. ومن الظلم للإسلام أن يتم التعامل معه على أنه نظام عقوبات وحدود فحسب.

ثبات الحدود والقصاص

وهذه العقوبات من الحدود الثابتة في الإسلام، التي لا تحتل التغيير ولا التبديل، ولا تتعارض مع رحمة الإسلام ورأفته، لا سيما وأن الله تعالى، وهو أرحم الراحمين، قد أمر بتنفيذها، وقال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

وقد التقى الشرع الحكيم والفطر السليمة على أن حفظ النفس والعرض والمال والعقل والدين هو عماد المجتمعات، وأسباب حفظها ورقيها، وقد حافظ الإسلام على هذه المقاصد وحد لها حدوداً، فلا يعتدى عليها، وحدد عقوبات لمن يعتدي عليها، وجعل الحق في تشريعها لله تعالى وحده.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - يؤكد هذا الحديث على حرمة الدين والنفس والعرض .
- ٢ - حدد النبي ﷺ في هذا الحديث عقوبة القتل لثلاثة؛ القاتل عمداً، والشيب الزاني، والمرتد .
- ٣ - هذه العقوبات حدود من الله تعالى، لا تحتل التغير والتبديل .
- ٤ - أداة تنفيذ هذه الأحكام هي الدولة فحسب . ولا يستقل الأفراد بتنفيذها من تلقاء أنفسهم .
- ٥ - على الدعاة والعلماء أن يعملوا جادين على قيام الدولة الإسلامية، التي تحكم بالإسلام، وتطبق شرائعه وأحكامه وحدوده . ودعوة المسلمين إلى ذلك . وأن يبينوا للناس رحمة الإسلام ورأفته في حفظ الدين والنفس والعرض .

الحديث الخامس عشر

من علامات الإيمان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ
جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» رواه البخاري
(٦٠١٨)، ومُسلَّم (٤٧).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث أصل في العلاقات الاجتماعية في الإسلام، واشتمل على ثلاثة أخلاق،
الأول: حرص المسلم على قول الخير، أو الصمت، الثاني: إكرام الجار والقيام
بحقوقه، والثالث: إكرام الضيف.

وجمعتها معاً في حديث واحد وجعلها من خصال الإيمان بالله وباليوم الآخر، مما
يدل على دورها العظيم في بناء المجتمع المسلم، وإقامته على المحبة والأخوة.

قول الخير أو الصمت

من المعلوم أن الكلام هو أعظم وسائل الاتصال بين الناس، ومنه حقوق الله تبارك
وتعالى في الشهادتين والأذان وإقام الصلوات والأذكار والدعاء، وغيرها، ومنه ما يتعلق
بحقوق العباد كإفشاء السلام، والتناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشتى
صوره وأشكاله، ولا يخلو لقاء بين الناس من الكلام في أمور شتى.

وضابط هذا كله وميزانه كما بين النبي ﷺ في هذا الحديث، هو أن يحرص المسلم على قول ما فيه خير، وهو كل كلام أمر الله به، أو ندب إليه، أو أباحه. واجتناب كل كلام فيه شر، وهو ما نهى الله عنه، أو كرهه.

ومما يدل على أهمية الكلمة وخطورتها وموقعها وأثرها حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بِالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(١).

فقد يقول كلمة في موقف ما ينصر فيه مظلوماً، أو يدعو فيه لمُبتلى، أو يُعلم فيه جاهلاً، أو يُبين فيه حكماً شرعياً، أو يشفع لمسلم، يرفعه الله بها درجات في الجنة.

وقد يقول كلمة في موقف ما، يخذل بها مسلماً، أو ينطق بكلمة كفر، أو ينصر ظالماً، أو يعين عدواً على مسلم، أو يشي بمسلم عند ظالم، وغيرها مما قد لا يلتفت إلى خطورتها، فتؤدي إلى قتل مسلم أو قطع رزقه، أو حبسه ظلماً، أو غير ذلك من صور الإيذاء، فكما تبلغ به الكلمة الصالحة أعلى الدرجات، فقد تبلغ به الكلمة السيئة أدنى الدرجات.

وقد وجد في زماننا هذا من يستهين بالكلمة وأثرها، وما درى هذا أن كتاب الله تعالى كلام أنزله على نبيه محمد ﷺ ليبلغه للناس، وأن أكثر سنته ﷺ كلام يرويه عنه صحابته الكرام، وأن العلم أكثره كلام، وما أقام الدعاة الصادقون وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون وأتباعهم من العلماء الربانيين دعواتهم الصادقة عبر التاريخ إلا بالكلمة الطيبة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

أما الصمت، فقد أمر به النبي ﷺ في هذا الحديث، إذا لم يكن ثمة خير يتكلم فيه صاحبه. وما أكثر المواقف التي يجب فيها الصمت، بدل كلمة تقول لصاحبها حينئذ: دعني. كمجالس الغيبة والنميمة، ومجالس السخرية والاستهزاء، والطرائف الكاذبة.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة.

فكما يُحمد الصمتُ أحياناً، فإنه يُذمُّ أحياناً أخرى، وقد يكون حراماً، أو مكروهاً، كما في مواقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلمة الحق، ونصرة المظلوم، وغيرها مما سبق بيانه.

إكرام الجار

أما الخلق الثاني في هذا الحديث فهو إكرام الجار: وفي رواية أخرى لهذا الحديث: «فلا يؤذي جاره»^(١). وفي رواية: «فليحسن إلى جاره»^(٢).

وكل هذه الألفاظ صحيحة، ونستطيع من خلالها أن نتبين مراتب إكرام الجار، وأقلها ألا نؤذي جيراننا، وأوسطها أن نكرمهم، وأعلىها أن نحسن إليهم.

وقد جاء في القرآن الكريم الوصية بالجار، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال النبي ﷺ: «ما زال جبريلُ يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه»^(٣). وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمنُ جاره بوائقه»^(٤).

وحد الجار من كان يساكنك في حيِّك، سواء قرب منك أو بُعد، وقيل: كل من يصلون في مسجد واحد جيران. وحد البعد متروك للعرف.

وقد سن الإسلام للجار حقوقاً: منها: الإحسان إليه، بتفقد أحواله، والسؤال عنه، وإعانتة إن كان فقيراً، وزيارته إن كان مريضاً، ومواساته فيما يُصيبه من بلاء، وتعهد

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر.

(٤) أخرجه مسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة.

بالهدية، وصيانة عرضه، وقضاء حوائجه، ونصرتَه إن كان مظلوماً، والنصح له وإرشاده وتعليمه، وصحبته إلى مجالس العلم والمساجد، والستر عليه، وإحسان الظن به إن كان صالحاً.

والداعية والعالم يعمل على إصلاح جيرانه، ودعوتهم إلى الله، فهم أولى الناس بدعوته، والأقربون أولى بالمعروف، وعلى هذا الأساس تُبنى علاقات من المحبة والمودة والتراحم فيما بينهم، فيقوم المجتمع الصالح، الذي يأتمر بأمر الله، وينتهي بنهيه.

إكرام الضيف

أما الخلق الثالث في هذا الحديث فهو إكرام الضيف، وهو شعبة من شعب الإيمان، وهو من مكارم الأخلاق التي عرف بها العرب في الجاهلية، وزادها الإسلام قوة، وربطها بالإيمان، وهذه الخصلة كانت ضرورة اجتماعية، حيث تقل الخدمات، أو تنعدم، وحيث تتباعد المسافات، وتزداد الحاجة إلى هذا الخلق الكريم في مناطق اللجوء والهجرة، فكانت الضيافة ظاهرة في مجتمع المدينة المنورة، وقد استقبلت المدينة المهاجرين من أرجاء الجزيرة العربية، في أروع حركة من التلاحم الاجتماعي والانصهار السكاني من خلال منظومة الضيافة.

وإكرام الضيف في الإسلام ليس منّة ولا تفضلاً، ولكنه واجب على المضيف، وحق للضيف عند بعض العلماء، وروى البخاري^(١) عن أبي شُرَيْحٍ الكَعْبِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضَّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَوَيَّعَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ». قال ابن رجب^(٢): فالضيافة نفقة واجبة، فلا تجب إلا على مَنْ عنده فضلٌ عن قوته وقوتِ عياله، كنفقة الأقارب، وزكاة الفطر.

(١) في «صحيحه» برقم (٦٠١٩).

(٢) في «جامع العلوم والحكم» ١/ ٣٩٩.

وعند الأكثر الضيافة سُنَّة، لكنها تبقى من مكارم الأخلاق وشعب الإيمان، وكفى بها فضيلة، وحمل آخرون الوجوب في الضيافة على الأماكن المنقطعة والبوادي، دون الحواضر، لا سيما مع انتشار الفنادق والمطاعم فيها.

والدعاة إلى الله تعالى أولى الناس بهذا الخلق الكريم، لما فيه من تأليف للقلوب، واقتداء الناس بهم في هذا الخلق الكريم. فهم الصورة العملية لما يأمرون الناس به.

وقرى الضيف من أظهر أخلاق الأنبياء، لا سيما نبينا محمد ﷺ، حينما أتى خديجة خائفاً مما حدث معه يوم نزل عليه الوحي، فواسته قائلة: كلاً والله ما يُخزيك الله أبداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ^(١).

وفي قوله ﷺ في رواية أبي شريح: «وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ» توجيه للضيف ألا يحرج مُضيفه بالإقامة عنده مدة يُضَيِّقُ عليه فيها. أو يضيق عليه بأي صورة من الصور.

وفي كل هذا يراعى اختلاف عادات البلاد وتقاليدها، علماً بأن هذا الاختلاف قد يوجد بين مدن القطر الواحد. فما يكون إكراماً في بلد قد لا يكون مثله إكراماً في بلد آخر. ويُنْتَظَمُ ذلك كله خلق الإكرام، وإن اختلفت صورته وأشكاله. فالإكرام يحدده العرف، وتغير المكان والزمان وأحوال الضيف، وأحوال المضيف، فيُراعى ذلك كله بلا إحراج أو تضيق.

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. الكل: هو من لا يقدر على العمل والكسب، وحمله: إعانته. وتكسب المعدوم: أي: تؤتي المال من لا يجده. وتقري الضيف: أي: تُطعم الضيف، والقرى: الطعام الذي يقدم للضيف.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - في هذا الحديث ذكر ثلاثة أخلاق عظيمة جعلها الإسلام علامةً على الإيمان.
- ٢ - فيه دعوة المسلم إلى الحرص على كلمة الخير دائماً، وأن يجتنب كلمة السوء.
- ٣ - فيه فضيلة الصمت، إذا لم يكن ثمّة خيرٌ يتكلم فيه صاحبه.
- ٤ - فيه فضيلة الإحسان إلى الجار والقيام بحقوقه، واجتناب ما يؤذيه.
- ٥ - فيه فضيلة إكرام الضيف.
- ٦ - فيه دعوة العلماء والدعاة إلى هذه الفضائل في حياتهم العامة، بل هم أولى الناس بها.

الحديث السادس عشر

ذم الغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب» فردّد مراراً قال: «لا تغضب». رواه البخاري (٦١١٦).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يبين هذا الحديث أهمية اجتناب الغضب، لاقتصاره في هذه الوصية عليه، حيث يُعد الغضب سبباً في كثير من الأخلاق الذميمة، كالحقد والحسد والكبر والعداوة والبغضاء، وغيرها. والغضب لا يخلو منه أحد من الناس، وأكثر ما يكون الغضب مذموماً، وأقله ما يكون محموداً. فهو جماع الشر، والتحرز منه جماع الخير.

وصايا النبي ﷺ

كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بوصايا عامة، كأن يقول: أوصيكم بتقوى الله، وأحياناً يوصيهم بوصايا خاصة، فيكون المقصود بهذه الوصية صحابياً بعينه، كوصيته لأبي ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإنّي أجب لك ما أحبّ لنفسي، لا تأمّر على اثنين، ولا تولّ مال يتيم»^(١).

وكثيراً ما كان النبي ﷺ يوصي أحد أصحابه بشيء، وتكون الوصية عامة لكل الناس، كوصيته لابن عباس: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٦) من حديث أبي ذر.

فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وهو الحديث التاسع عشر من هذه الأربعين. ووصيته ﷺ لمعاذ عندما أخذ بلسانه، وقال: كف عليك هذا، قلت: يا نبي الله، وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم» وهو الحديث التاسع والعشرون من هذه الأربعين.

وهذا الحديث من هذه الوصايا الخاصة، التي أريد بها عموم المسلمين، لا سيما وأنه قد ورد أن النبي ﷺ وصى بها عدداً من الصحابة، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وجارية بن قيس، وأبو الدرداء، وسفيان بن عبد الله الثقفي.

الغضب وأحواله وآثاره

الغضب حالة غريزية نفسية فطرية مركوزة في فطرة الإنسان، لا ينفك منها أحد، تستدعى عند حاجة الإنسان للدفاع عن نفسه، أو دينه، أو عرضه، أو عشيرته، أو ماله، أو رأيه، أو مبادئه، أو عندما يُعتدى على حق من حقوقه.

وقد ينشأ عنه كثير من الأعمال المذمومة، كالسب والضرب والقتل والقذف والأيمان الباطلة، وقطيعة الرحم، وقد يصل الغضب بصاحبه إلى درجة الكفر، بسب الذات الإلهية، أو سب الدين، أو غير ذلك. وبهذا الاعتبار يُعد الغضب مذموماً، لأنه يكون سبباً رئيساً في كثير من الأخلاق الذميمة والتصرفات المنكرة.

لكن إذا غضب المسلم لله تعالى، ولدينه، دفاعاً عن حُرُمات الله، وانتهاك مقدسات المسلمين، ونصرة للمظلومين، ووقوفاً في وجه الظالمين، وكان التعبير عنه بوسائل مشروعة من برامج وخطوات عملية ممكنة، من الخطب والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، وإنشاء المنظمات والجمعيات الحقوقية، وغير ذلك من أعمال النصر والدفاع المشروع، وقد يصل إلى الجهاد في سبيل الله، فإن الغضب حينئذ يكون محموداً، بل واجباً شرعياً.

علاج الغضب

هناك عدة وسائل وردت في الكتاب والسنة لعلاج الغضب، نذكر منها:

أولاً: التربية الإيمانية: فإن التربية الإيمانية التي جاء بها الإسلام خير وسيلة لضبط النفس، وكبح جماح شهواتها وغرائزها، ومن ذلك ضبط الحالة العصبية، وقد سماها القرآن الكريم: كظم الغيظ، قال تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقد مدح النبي ﷺ الذي يملك نفسه عند الغضب، فيكبح جماحها، ويضبط انفعالاته، فقال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

ثانياً: العفو والصفح: وهو أعلى مرتبة من كظم الغيظ، وقد مدح الله تعالى الذين يَعْفُونَ، وَيَصْفَحُونَ، ويغفرون عند الغضب، قائلاً: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

ثالثاً: الاستعاذة بالله من الشيطان: فإن الغضب نزغٌ من الشيطان، تعالجه الاستعاذة بالله من الشيطان، فعن سليمان بن صُرد قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مُغَضَّباً، قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشَّيْطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لستُ بِمَجْنُونٍ^(٢). قال النووي^(٣): فيه أن الغضب في غير الله تعالى من نزغ الشيطان، وأنه ينبغي لصاحب الغضب أن يستعيد، فيقول: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، وأنه سبب لزوال الغضب. وأما قول هذا الرجل الذي

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) في «شرح على مسلم»: ١٦٣/١٦.

اشتد غضبه: هل ترى بي من جنون؟ فهو كلامٌ مَنْ لم يفقه في دين الله تعالى، ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة، وتوهم أن الاستعاذة مُختصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضبَ من نَزغات الشيطان، ولهذا يَخْرُج به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض، وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب، ولهذا قال النبي ﷺ للذي قال له أوصني: «لا تغضب»، فردد مراراً، قال: «لا تغضب»، فلم يزد في الوصية على «لا تغضب»، مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهرٌ في عِظَم مفسدة الغضب، وما ينشأ منه، ويحتمل أن هذا القائل: «هل ترى بي من جنون؟» كان من المنافقين، أو من جُفَاة الأعراب، والله أعلم.

رابعاً: الجلوس إن كان قائماً: فإن في الجلوس نوع تهدئة للنفس، وخروج من حالة الاستنفار والانتقام، إلى حالة الهدوء والاسترخاء، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ، فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»^(١).

خامساً: السكوت: والسكوت عند الغضب يكفي صاحبه الندم بعد سكونه، لأن الغضبان قد يبالغ في ردود أفعاله حالة الغضب، فيخرج منه كلامٌ من غير رَوِيَّة، وفي غير موضعه، فيأتي السكوتُ علاجاً لهذه الحالة، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْكُتْ»^(٢).

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - في هذا الحديث نهى عن الغضب، لما له من آثار سيئة على الفرد والمجتمع.
- ٢ - فيه دعوة لكظم الغيظ وملك النفس عند الغضب.

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢) و(٤٧٨٣) من حديث أبي ذر، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٦)، من حديث ابن عباس، وهو حديث حسن.

٣- أن يميز المسلم بين الغضب المحمود والغضب المذموم.

٤- فيه إرشاد للدعاة والعلماء أن يتخلقوا بكظم الغيظ، ويستلزم ذلك حسن الخلق، والرفق والرحمة في الدعوة إلى الله.

الحديث السابع عشر

الإحسان في كل شيء

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِإِجْدَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرْحَ ذَبِيحَتَهُ». رواه مُسْلِم (١٩٥٥).

التعريف بالصحابيِّ راوي الحديث

شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ بن ثابت الخزرجي الأنصاري، أبو يعلى، من فضلاء الصحابة، وعلمائهم، نزل بيت المقدس. وكانت له عبادة واجتهاد، ولَّاهُ عمر إمارة حمص، ولما قُتل عثمان اعتزل، وعكف على العبادة. كان فصيحاً حليماً حكيماً فقيهاً. توفي سنة ٥٨ للهجرة في القدس عن ٧٥ سنة^(١).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يُعدُّ هذا الحديث من القواعد الجامعة في الإسلام، حيث يطلب من المسلم أن يأتي بما هو مكلف به على خير وجه من الإتقان والتجويد والتمام، لا سيما وأنه يدخل في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق والمباحات.

وقد جاء الأمر بالإحسان في كتاب الله تعالى، في كثير من آياته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٦٠، و«الأعلام» للزركلي ٣/ ١٥٨.

الْمُحْسِنِينَ ﴿البقرة: ١٩٥﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

الإحسان في الاعتقادات والعبادات

ففي الاعتقادات تتفاوت المراتب فيها، فالإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، والتوكل على الله، والاعتماد عليه، والاستعانة به، والخوف منه والرجاء به، والصبر على أقداره، كل هذه الأمور وغيرها مما يدخل في الاعتقادات، فإن لها في القلب والسلوك والعمل مراتب، تختلف من مكلف إلى آخر، ويكون تمام أدائها هو الإحسان المطلوب في هذا الحديث.

كما وقد جاء ذكر الإحسان في حديث جبريل، الذي قال فيه النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذا أعلى درجات الإيمان.

وفي العبادات، فإن لها من الأركان والشروط والواجبات ما يقتضي أن تأتي بها جميعاً دون نقص، فهذا هو أقل الإحسان، والتفاوت في إتقان أداء هذه الأعمال، في أركانها وشروطها وواجباتها وسننها، هو تفاوت في درجات الإحسان فيها. فتجد أن فلاناً أحسن صلاةً من فلان، وفلاناً أحسن صياماً من فلان، وفلاناً أحسن حجاً من فلان، وفلاناً أحسن تلاوةً من فلان. وهكذا، وقد يتفاوت إتقان العبادة الواحدة من الشخص الواحد بين الحين والآخر، وبين النشاط والكسل.

الإحسان في الأعمال والمهن

وكذلك الحال في المعاملات في عقود الزواج والبيع والرهن والكفالة، وفي جميع المعاملات بين المسلمين، وكذا بينهم وبين غير المسلمين، كل هذا يحتاج إلى الإحسان فيه، والإحسان في المهن والصناعات والزراعات مطلوب كذلك.

أما ما نص عليه الحديث من الإحسان، فإنه عمم الإحسان وجعله مطلوباً في كل شيء، ثم مثل بأشياء تعد عند الناس من التصرفات القاسية والأعمال الصعبة، والأمور التي ظاهرها يتنافى مع الرفق والرحمة، وهو القتل والذبح، ومع هذا كتب فيها الإحسان، للتدليل على دخول الإحسان في كل شيء بطريق الأولى.

وعليه فإن الإحسان مطلوب في كل المهمات والوظائف والأعمال التي يقوم بها المسلم، فالداعية في دعوته إلى الله، والوالدان في تربيتهما ورعايتهما لأبنائهما، والمعلم في مدرسته، والطبيب في عيادته، والصانع في مهنته، والتاجر في تجارته، وغيرهم. مطلوب منهم جميعاً أن يُحسنوا في أعمالهم.

أما الدعاة فقد قال الله في حقهم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإحسان الدعوة إلى الله يكون بقوة تمثلها، والالتزام بما يأمر به، وإخلاص النية فيها، ومراعاة قواعد الدعوة وأصولها، واتخاذ أفضل الوسائل لإيصالها إلى الناس، دون كلل أو ملل، ولا يأس ولا قنوط، مع الصبر واحتمال الأذى، فقد قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ٥-١٠].

والوالدان في تربية أبنائهما التربية الإيمانية والجسمية والأخلاقية والسلوكية والنفسية والعلمية والصحية، وذلك بتكوين الشخصية الصالحة القوية المتكاملة النافعة لنفسها ولغيرها، والفاعلة في مجتمعها، واتخاذ أفضل سبل التربية الناجحة وأحسنها، اقتداء بسيرة النبي ﷺ، وأصحابه، وسلف الأمة وعلمائها، والإحسان في ذلك من أهم الواجبات وأعظم القربات.

وأهم السمات المطلوبة في بناء شخصية المسلم لا تتحقق إلا بالإحسان، وهي أن يكون المسلم كما يقول الإمام الشهيد حسن البنا: «قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادراً على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهداً لنفسه، حريصاً على وقته، منظماً في شؤونه، نافعا لغيره»^(١).

وكذا المعلم في مدرسته، عليه أن يحرص على أداء مهمته على أتم وجه من تربية التلاميذ على القيم الإسلامية الراقية، ثم تزويدهم بالمعارف والمعلومات الصحيحة، المناسبة لأعمارهم، حسب المناهج المعدة، وأن يكون قدوة لهم في أخلاقه وسلوكه، في الصف وخارج الصف.

وأما الطبيب في عيادته ومع مرضاه، فمطلوب منه إتقان عمله، وابتغاء الجودة في أعلى مراتبها، فيرفق بمريضه، ويتأنى في علاجه، وي بذل جهده في مواكبة المستجدات في مجاله، والحرص على مراعاة مريضه نفسياً وصحياً ومادياً، فلا يكون تحصيل المال هو همه الأكبر، بل صحة مريضه أولى من كل شيء عنده.

وأما الصانع، سواء الحداد، أو النجار، أو البناء، أو الخياط، أو السباك، أو الكهربائي، وغيرهم، فإن الإحسان والإتقان أكثر ما يتجلى في أداء مهماتهم وصناعاتهم، فالإحسان عندهم يشمل النصيحة لصاحب العمل، والتزام المواعيد، والأسعار، والجودة في المواد، وإتقان الحرفة، والوفاء بالعقود والعهود.

وأما التاجر في تجارته، فإن الإحسان منه أن يكون تاجراً صدوقاً في بضاعته، ووصف ماهيتها، ومصدرها وسعرها، وغير ذلك مما يطلبه المشتري منه في بيان حالها. فالإحسان مطلوب في جميع مجالات الحياة، ولو أحسن الناس في اعتقاداتهم وعباداتهم وأعمالهم لحققوا الغاية من وجودهم في هذه الحياة، وحققوا السعادة في

(١) انظر «الرسائل» ص ٢٧٠.

حياتهم، والأمن والسلام والاستقرار في مجتمعاتهم، هذا في الدنيا، ولهم في الآخرة مغفرة من الله ورضوان، وجنات النعيم.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - هذا الحديث قاعدة عظيمة في اشتماله على الأمر بالإحسان في شتى مجالات الحياة.
- ٢ - الإحسان هو الإتقان، والحرص على تحصيل الكمالات في الأمور كلها.
- ٣ - تدخل قواعد الجودة في هذا الحديث من أوسع الأبواب، وقد سبق الإسلام فيها جميع الأمم.
- ٤ - على الدعاة والعلماء أن يحسنوا في دعوتهم إلى الله تعالى، حتى تصل إلى القلوب، وتؤتي أكمل ثمارها.

الحديث الثامن عشر

التقوى وحسن الخلق

عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». رواه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وفي بعض النسخ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

التعريف بالصحابيين راويي الحديث

أبو ذر جُنْدُب بن جُنَادَةَ الْغِفَارِيُّ أَحَدُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ. قيل: كان خامسَ خمسةٍ في الإسلام. وكان يُفْتِي في خلافة أبي بكر، وعثمان. كان ضخماً، جَسِيماً، كَثَّ اللَّحْيَةُ. وكان رأساً في الزُّهْد، والصدق، والعلم، والعمل، قَوَّالاً بِالْحَقِّ، لا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، عَلَى حِدَّةٍ فِيهِ. وقد شهد فتح بيت المقدس مع عمر. توفي سنة ٣٢ للهجرة^(٢).

معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، السيد، الإمام، أبو عبد الرحمن، الأنصاري، الْخَزَرَجِيُّ، الْمَدَنِيُّ، الْبَدْرِيُّ، شهد العقبة شاباً أمرد. وكان من أحسن الناس وجهاً، ومن

(١) الذي في المطبوع (طبعة الشيخ أحمد شاكر والشيخ شعيب الأرناؤوط وطبعة الدكتور بشار عواد): حسن. وقد استبعد ابن رجب في «جامع العلوم الحكم» أن يكون في بعض النسخ: حسن صحيح. وقد أورد ما يقوي الحديث من طرق أخرى أن النبي ﷺ أوصى معاذاً وأبا ذر بهذه الوصية. ثم أوردته عن شعبة، قال: كنت إذا أردت الخروج، قلت للحكم - يعني ابن عتيبة -: ألك حاجة؟ فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل، فذكره. قلنا: أخرج ابن الجعد في «مسنده» (٣١٢) عن شعبة، بهذا الإسناد. وهذا إسناد رجاله ثقات، لكنه منقطع، فالحكم بن عتيبة لم يدرك معاذاً.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٤٦/٢.

أسمحهم كفاً. وكان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمَعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. أسلم وهو فتى، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك، قاضياً ومُرشداً لأهل اليمن، فبقي في اليمن إلى أن توفي النبي ﷺ وولي أبو بكر، فعاد إلى المدينة. ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام. ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذاً. وأقره عمر، فمات في ذلك العام في الأردن سنة ١٨ للهجرة^(١).

شرح الحديث

أهمية الحديث

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، فوصيته بتقوى الله وصية جامعة لكل ما شرع الله تعالى من الأوامر والنواهي، فهي اسم جامع لفعل الطاعات، واجتناب المنكرات.

اتق الله حيثما كنت

قال ابن رجب^(٢): «وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه».

والتقوى وصية الله تعالى للمؤمنين، وللناس كافة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]،

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٤٦/٢.

(٢) في «جامع العلوم والحكم» ٣٩٨/١.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ومما جاء في السنة من الوصية بتقوى الله، أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية، أو صاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً^(١).

وفي حديث النعمان بن بشير حين أعطاه أبوه عطيةً دون إخوته، وأراد أبوه أن يشهد النبي ﷺ عليها، فسأله النبي ﷺ: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا. قال: «فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم»^(٢).

وفي حديث العرباض بن سارية في موعظته ﷺ للصحابة، حين قالوا له: فماذا تعهد إلينا؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة»^(٣).

والتقوى تكون في الأمور كلها، في المأمورات والمنهيات، وهي الدافع والمحفز للعمل فيما كان مأموراً به من الأعمال، وهي المانعة منه فيما إذا كان منهيّاً عنه. وهذا مقتضى التعميم في قوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»، حيثما كنت في أي زمان، وفي أي مكان، وعلى أي حال: في الشباب، أو الكهولة، أو الشيخوخة، وحيثما كنت، وعلى أي حال: في الصحة، أو المرض، في الفقر، أو الغنى، في السر، أو العلانية، وعليه فإن التقوى تلازم المؤمن من بين يديه ومن خلفه، حتى تصبح لباساً له، شعاراً ودثاراً، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بريدة بن الحصيب.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٣) وهو الحديث الثامن والعشرون من هذه الأربعين.

وأتبع السيئة الحسنة تمحها

ولما كانت التقوى مانعةً من وقوع الذنوب والسيئات، فلا يعني ذلك أن المسلم معصوم من الذنوب، فقد قال النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(١)، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(٢)، وهذا مما يدل على ضعف الإنسان، وأنه قد يقع في الخطيئة، لكن المؤمن سرعان ما يتذكر عظمة الخالق، وعذابه ورحمته، فيؤوب إلى إليه تائباً مستغفراً، ويَتَّبِعُ ما اقترفت يده من الخطايا أعمالاً صالحةً، يَمْحُو اللهُ بها خطاياهم. فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وهذا من فيض رافة الله، وواسع رحمته، وأنه غافر الذنب، وقابل التوب من عباده إذا ما زلت بهم الأقدام في مهالك الذنوب والخطايا، فلا يُقْنِطُهُمْ سبحانه من رحمته، ولا يُؤَيِّسُهُمْ من جنته، فقد كتبها الله تعالى للمتقين التائبين، قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وخالق الناس بخلق حسن

في هذا الجزء من الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الأخلاق في الإسلام، وهي معاملة الناس بالحسنى، لذا تجد صاحب الدين والخلق رفيقاً بالناس، ودوداً معهم، عفيفاً، وفيماً، صاحب وجه طلق، يصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف،

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

وَيَحْفَظُ غِيْبَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَلَوْ خَالَفَهُ فِي الرَّأْيِ، يُحْسِنُ الظَّنَّ، وَيَجْتَنِبُ الشُّكَّ وَالتُّهْمَةَ. وَفِي الْمَقَابِلِ قَدْ نَجَدَ الرَّجُلَ الْعَابِدَ الزَّاهِدَ الدَّائِمَ الذِّكْرَ، لَكِنَّهُ سَيِّئَ الْخُلُقِ، لَا يُحْسِنُ مُعَامَلَةَ أَهْلِهِ، وَلَا يُحْسِنُ مُعَامَلَةَ النَّاسِ، فَتَجِدُهُ بِخِيَلًا، ضَيَّقَ الصَّدْرَ، جَزَوْعًا، هَلْوَعًا، مَنَوَعًا، لَا يُحِبُّ النَّاسَ، يَشْكُ فِيمَنْ حَوْلَهُ، سَيِّئَ الظَّنَّ، سَرِيعَ التُّهْمَةِ، وَلَقَدْ كَانَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ بَعْضُ الْمُوصُوفِينَ بِالْعِلْمِ، فَلَا تَكَادُ تَسْمَعُ فِي مَجَالِسِهِمْ إِلَّا الْوَقِيعَةَ بِالْآخِرِينَ، وَالْكَيْدَ لَهُمْ، وَإِعَانَةَ الظَّالِمِينَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَصُلُّ ذَلِكَ إِلَى اسْتِبَاحَةِ الدَّمِ وَالْمَالِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَيْسَ فِي مِيزَانِ اللَّهِ أَثْقَلُ مِنْ حَسَنِ الْخُلُقِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يَصِلُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الْمُصْلِينَ وَالصَّائِمِينَ، فَقَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يَوْضَعُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»^(١).

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - على المسلم ملازمة التقوى في كل أوقاته وأحواله، في جلّه وتراحاله، وصحته وسقمه، في عباداته ومعاملاته.
- ٢ - المسلم ليس معصوماً من الوقوع في المعصية.
- ٣ - على المسلم أن يحرص على عمل الصالحات والخيرات. وأن يجتنب المنكرات.
- ٤ - الحسنات يذهبن السيئات.
- ٥ - ليس في الميزان عند الله أثقل من حسن الخلق، فعلى المسلم التحلي بالأخلاق الحميدة في معاملته مع الناس.
- ٦ - على الدعاة والعلماء ملازمة تقوى الله، في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتحلي بالأخلاق الحميدة في دعوتهم إلى الله تعالى، وتعاملهم مع الناس.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء، وإسناده صحيح.

الحديث التاسع عشر

احفظ الله يحفظك

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي رواية غير الترمذي^(١): «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشّدّة، واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً».

التعريف بالصحابي راوي الحديث

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس. حَبْرُ الْأُمَّة. وفقهه عصره، وترجمان القرآن، وُلِدَ بِمَكَّةَ قَبْلَ عَامِ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ. وَنَشَأَ فِي بَدْءِ عَصْرِ النَّبَوَّةِ، فَلَازَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، وَرَوَى عَنْهُ وَعَنِ الصَّحَابَةِ. وَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ

(١) عند أحمد في «المسند» (٢٨٠٣)، والحاكم في «المستدرک» ٣/ ٦٢٤، وهو حديث صحيح.

التأويل»^(١). وكُف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر. وكان كثيراً ما يجعل أيامه يوماً للفقهاء، ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر، ويوماً لوقائع العرب. وقد جمع ما ورد عنه من تفسير القرآن في كتب السنة الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، في كتاب سماه «تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة». توفي سنة ٦٨ للهجرة^(٢).

شرح الحديث

أهمية الحديث

قال ابن رجب^(٣): وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرْتُ هذا الحديث، فأدهشني، وكِدْتُ أطيّش، فوأسفَى من الجهل بهذا الحديث، وقِلَّة التفهم لمعناه.

احفظ الله يحفظك

قال ابن رجب^(٤): «احفظ الله، يعني: احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره، ونواهيه. وحفظ ذلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده، فلا يتجاوز ما أمر به، وأذن فيه إلى ما نهى عنه. فمن فعل ذلك، فهو من الحافظين لحدود الله، الذين مدحهم الله في كتابه، وقال - عز وجل - : ﴿هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٧)، والبخاري (٧٥) و(١٤٣). والتأويل: تفسير القرآن. ولفظه عند البخاري (٧٥): «اللهم علمه الكتاب».

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٣/ ٣٣١، و«الأعلام» للزركلي ٩٥/ ٤.

(٣) «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٥٤٨.

(٤) «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٥٤٩.

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانََ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿ق: ٣٢-٣٣﴾. وفسر الحفيظ هاهنا بالحافظ لأوامر الله، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

وأعظم أوامر الله التي يجب التزامها، والحفاظ عليها، هي أركان الإيمان وأركان الإسلام، ومراعاة مقاصد الإسلام، وأولوياته في تقديم مهمات الإسلام وأموره العظيمة على فروعه وجُزئياته، ومراعاة ما يختص بأحوال المسلمين، واجتماع كلمتهم، وتحرير مقدساتهم، واستقلال قرارهم، واستقرار حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتطورها. وما يترتب على ذلك من نشر الإسلام وكلمة التوحيد في ربوع الأرض كلها. حتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله الإسلام، بالعمل وبذل الجهد، واتخاذ أفضل السبل والوسائل المتاحة.

وقد جاء الأمر بحفظ أوامر الله في كثير من آيات الله في كتابه العزيز، وسنة نبيه الكريم ﷺ، كقوله تعالى في الأمر بالمحافظة على الصلاة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقوله تعالى في المحافظة على الأيمان: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. وقوله تعالى في المحافظة على الأعراس: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وفي حديث النبي ﷺ: كقوله ﷺ في حفظ اللسان والفرج: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١). وقوله ﷺ حين ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً، وبرهاناً، ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ، ولا برهانٌ، ولا نجاة»^(٢).

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» من حديث أبي هريرة. وهو في البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل ابن سعد بلفظ: «من يضمن لي»، وعنده (٦٨٠٧) من حديث سهل أيضاً، بلفظ: «من توكل لي» وكلها بمعنى واحد، وهو الحفاظ والصون من الزلل.

(٢) في «جامع العلوم والحكم» ٥٥٢/٢.

فإذا ما التزم المسلم دينَ الله وحافظ على أوامره، فإن الله تعالى سيحفظه، وذلك من باب الجزاء من جنس العمل. قال ابن رجب^(١): «وقوله ﷺ: «يحفظك» يعني: أن من حفظَ حدود الله، وراعى حقوقه، حفظه الله، فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وفي قوله ﷺ: احفظ الله تجده تجاهك، يتضمن معنى معية الله للمؤمنين، واستثناسهم به سبحانه وتعالى، إضافة لمعنى الحفظ والرعاية. ومعية الله للعبد المؤمن ليست معية رمزية، ولا تخيلاً موهوماً، وإنما هي حقيقة ماثلة يشعر بأثرها وقوتها وتوجيهها، كما قال الله تبارك وتعالى لموسى وهارون، عندما ذكرا خوفهما من فرعون: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى، قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥-٤٦]. وقول النبي ﷺ لأبي بكر في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهكذا كان الدعاة والعلماء على مدار التاريخ تراهم عندما تشتد عليهم مُنازلة الظالمين يستحضرون معية الله، ترعاهم وتحوطهم من كل جانب، فيعبرون عن هذه المعية بما يجعل قوتهم في الحق وبأسهم فيه أقوى من سيوف جلاديهم، وعساكر ظالمهم.

وكذا ما يجده المجاهدون في هذا العصر، عندما يشتد عليهم الحصار، ويؤسرون، أو يُعتقلون في سجون الظالمين اليهود وأمثالهم، فمهما طال عليهم مدة السجن، أو تعددت عليهم أحكام القتل والإعدام والمؤبد، فإنهم يجدون في معية الله لهم برداً وسلاماً، وسكينةً واطمئناناً، فلا يتزعزع إيمانهم، ولا تضعف عزائمهم، ثابتين على

(١) أخرجه أحمد (٦٥٧٦) من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده حسن.

الحق، لا يضرُّهم من خالفهم، ولا من عاداهم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وحُذِّوْهُمْ:

أخي أنت حرٌّ وراء السُّدود أخي أنت حرٌّ بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً فماذا يضيرك كيْدُ العبيد
أخي ستبيدُ جيوش الظلام ويشرقُ في الكون فجرٌ جديد

سؤال الله تعالى والاستعانة به

وقول النبي ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» مستمد من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فالسؤال هنا هو الدعاء، والدعاء هو العبادة، كما جاء في الحديث الصحيح، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ، قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، قال ربُّكم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]^(١).

قال صاحب «المِرْقَاة»^(٢): «الدعاء هو العبادة الحقيقية، التي تستأهل أن تُسمى عبادة، لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو، ولا يخاف إلا إياه، قائماً بوجوب العبودية، معترفاً بحق الربوبية، عالماً بنعمة الإيجاد، طالباً لممدد الإمداد، وتوفيق الإِسعاد».

فكلما زادت معرفة العبد لربه، وحقق مقامات عالية في توحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، عرف مدى احتياجه لمولاه، وأن هذه الحاجات لا يقدر على إجابتها إلا الله تعالى، فالعبد يسأل الفردوس الأعلى من الجنة، أو يطلب رؤية الله في الجنة، أو يطلب

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والترمذي (٣٢٠٧)، و(٣٥٢٨)، و(٣٦٦٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٠).

(٢) في «مرقاة المفاتيح» ٦٣٦/٢.

مغفرة ذنوبه، أو يطلب إعانته في صحته وبدنه، أو يطلب رعايته لزوجته وأبنائه، أو يطلب النصر والتمكين للإسلام والمسلمين، أو يطلب هداية الناس وصلاحتهم، إلى غير ذلك مما لا ينتهي من الحاجات، وليست هذه الحاجات بقدرة أحد سواه سبحانه وتعالى، فهو الصمد، الذي يتوجه إليه العبد بحاجته فيسأله، وهو يوقن بأن الله وحده هو القادر على هذه الحاجة، ومن هنا ندرك وصية النبي ﷺ: إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فالله تبارك وتعالى أقرب مسؤول، وأقدر مجيب. وكل ذلك لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، التي سنها الله تعالى، لتحقيق مسبباتها.

وأما سؤال الناس للناس في الحاجات المختلفة، فهذا من متطلبات الحياة، التي لا غنى للإنسان عنها، وهو مما أذن فيه الشارع الحكيم، فقد كثر في النصوص الشرعية الكلام عن مبدأ التعاون على البر والتقوى وقضاء حاجات الناس، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]. وقول النبي ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ، سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(١).

وما ورد في النهي عن السؤال، إنما هو سؤال الناس للتكثير من أموالهم في غير حاجة، كقوله ﷺ: «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ»^(٢). وحديث عوف بن مالك عند مسلم^(٣) حين أخذ عليهم البيعة بأن لا يسألوا الناس شيئاً.

(١) وهو الحديث السادس والثلاثون من هذه الأربعين.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠) من حديث عبد الله بن عمر.

(٣) برقم (١٠٤٣).

النافع والضار هو الله

هاتان الصفتان الحسنيتان تجمعان الرغبة والرغبة، والرجاء والخوف، وهذه خلاصة الحياة الإنسانية في الدنيا والآخرة، فالقادر وحده على جلب النفع، أو دفعه، أو رفع الضر، أو كتبه هو الله تعالى.

قال ابن رجب^(١): «واعلم أنَّ مدارَّ جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذُكر قبله وبعده، فهو متفرِّعٌ عليه، وراجعٌ إليه، فإنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتِهَادَ الخلق كُلِّهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافِعُ، المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبد توحيدَ ربِّه عز وجل، وإفراذه بالطاعة، وحفظَ حدوده، فإنَّ المعبود إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفعَ المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُغني عن عابده شيئاً، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُعطي ولا يمنع غير الله، أوجبَ له ذلك إفراذه بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وأنَّ يتَّقِيَ سخطه، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعاً، وإفراذه بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دونه، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٢٣٨].

ولا يتنافى هذا مع الأخذ بأسباب دفع الضر، وأسباب جلب النفع، فالسعي في الأرض لكسب الرزق، وطلب الدواء لمعالجة المرض، واتخاذ وسائل القوة لدفع

(١) «جامع العلوم والحكم» ٥٧٧/٢.

العدو، كل هذا وغيره أمور شرعية مأمور بها، وعلى المسلم أن يبذل قصارى جهده في اتخاذ هذه الأسباب والتخطيط والتنظيم للإفادة منها وتفعيلها في حياته كلها.

فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]. وقال النبي ﷺ: «تَدَاوُوا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَصْعُدْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ»^(١).

وقوله ﷺ: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» فيه كناية عن أن الله تعالى كتب المقادير في هذا الكون قبل وقوعها بزمان بعيد، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر عند مسلم: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(٢). وقد قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

الصبر طريق النصر

في هذا الحديث بيان أن النصر لا يتحقق إلا بالصبر، والصبر حبس النفس على العمل والجد والاجتهاد، وبذل الأسباب، واتخاذ العدة اللازمة لتحقيق الأهداف. والصبر في نفسه عبادة يؤجر عليها صاحبها، بل يوفى أجره بغير حساب. وهذا فيه دعوة للدعاة أن لا يستعجلوا تحقيق أهدافهم، وبلوغ أمانتهم، بل يبذلون، وينتظرون النتائج بصبر ورباط وقوة تحمل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، والترمذي (٢١٥٩)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥١١) و (٧٥١٢) من حديث أسامة بن شريك بإسناد صحيح.

(٢) برقم (٢٦٥٣).

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ١٥٣﴾. ثم كان جزاء الصابرين عظيمًا عند الله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد كان التواصي بالصبر أحد صفات المؤمنين، التي أشار إليها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد ١٧ - ١٨] وقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]. لذا كان من وصايا الإمام حسن البنا رحمه الله للدعاة^(١) قوله: «إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نُضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات. ومن صبر معي حتى تنمو البذرة، وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة».

الفرج بعد الكرب

يرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى أن الخطوب والابتلاءات مهما اشتدت وادلهمت فإنه لا بد أن يأتي الفرج، وأن الليل مهما طال فلا بد أن يطلع الفجر، وقد بشر الله تعالى نبيه الكريم باليسر مع العسر، وذلك في أحلك الظروف التي لقيها النبي ﷺ في مكة، فأنزل عليه قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦]. ولن يغلب عسرٌ واحدٌ يسرين.

ولقد كان النبي ﷺ على ثقة بنصر الإسلام، فكان كثيراً ما يبشر أصحابه بالفرج والنصر، فهذا خباب بن الأرت، يأتيه يشكو إليه الشدة، ويسأله الاستنصار، فيرشده

(١) «الرسائل» رسالة المؤتمر الخامس ص ٣٣٨.

النبي ﷺ إلى الصبر، ويبشره بالنصر، فيقول: «كَانَ الرَّجُلُ فَيَمَنُ قَبْلَكُمْ يُخَفِّرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّنْبَ عَلَى عَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

وفي هذا الحديث سنة ثابتة عن النبي ﷺ، وهي بث روح الأمل والبشائر بين المسلمين، ولا سيما عندما تكون الكروب في أشدِّ أحوالها، كما هو الحال في هذه الأيام حيث عشرات الألوف من الدعاة والمجاهدين في سجون الظالمين، وحيث تبرم أحكام الإعدام وتنصب المشانق، ولكن لا نرى مع كل هذا الألم إلا فجر الأمل يلوح في الأفق القريب إن شاء الله تعالى. قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - المسلم مطلوبٌ منه أن يحفظ الله، فيقيم على طاعته تعالى، بامتنال أو امره، واجتناب نواهيه.
- ٢ - إذا حفظ المسلم ربه، حفظه الله تعالى في نفسه وماله وأهله، وفي دنياه كلها، وفي آخرته، فيغفر ذنبه، ويدخله الجنة.
- ٣ - على المسلم استحضار معية الله تعالى له في كل أحواله.

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

- ٤- اعتقاد أن النافع والضار هو الله تعالى، مما يُعطي المؤمنَ قوةً في قول الحق، ومواجهة الظلم، والثبات على الإسلام.
- ٥- على الدعاة والعلماء أن يحفظوا الله في أوامره ونواهيه، وأن يستحضروا معية الله تعالى وتأييده لهم في دعوتهم، وأن الله هو الضار والنافع، فلا يخشون فيه لومة لائم.

الحديث العشرون

الحياء ميراث الأنبياء

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٨٣) وَ (٣٤٨٤).

التعريف بالصحابيِّ راوي الحديث

عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري البصري، أبو مسعود، من الخزرج: شهد العقبة وأُحُدًا وما بعدها. ولم يشهد بدرًا على الصحيح، وإنما نزل ماء بدر، فشهر بذلك. وكان شاباً من أقران جابر بن عبد الله في السن. روى أحاديث كثيرة. وهو معدود في علماء الصحابة. ونزل الكوفة. وكان من أصحاب علي، فاستخلفه عليها لما سار إلى صفين، وتوفي فيها نحو سنة أربعين للهجرة ^(١).

معنى الغريب

تستحي: بإسكان الحاء، مضارع استحيا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]. قال ابن حجر ^(٢): والحياء: تغيير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به، وقد يُطلق على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه. وفي الشرع: خُلِقَ يَبْعَثُ على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «الحياء خير كله» ^(٣).

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٩٣، و«الأعلام» للزركلي ٤/ ٢٤٠.

(٢) في «فتح الباري» ١/ ١١٣.

(٣) أخرجه مسلم (٦١) من حديث عمران بن حصين.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يبين هذا الحديث أهمية خُلِقَ الحياء ومنزلته عند جميع الأنبياء وأممهم، وأنهم قد توارثوه على تعاقب الأجيال. قال المُنَاوِي رحمه الله^(١): «على هذا الحديث مدار الإسلام من حيث إن الفعل: إما أن يُستَحْيَا منه: وهو الحرام والمكروه وخلاف الأولى، واجتنابها مشروع. أو لا: وهو الواجب والمندوب والمباح، وفعلها مشروع. وكيفما كان، أفاد أن الحياء كان مندوباً إليه في الأوّلين، كما أنه محثوث عليه في الآخرين».

الحياء شعبة من الإيمان

وقد خصه النبي ﷺ من بين شعب الإيمان للتنبيه عليه في الحديث المشهور: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»^(٢). قال ابن حجر^(٣): «فإن قيل: لِمَ أفردَه بالذِّكْر هنا؟ أُجيبُ بأنه كالدّاعي إلى باقي الشُّعَب، إذ الحَيِّثُ يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر، والله الموفِّق».

أصناف الناس في الحياء

وفي معنى قوله ﷺ: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» رأيان: الأول: على معنى الذم؛ وهو أن الذي لا يستحي فإنه يصنع ما يشاء من المخالفات والفواحش، ويدخله التهديد على فعله هذا، أي: اصنع ما تشاء، وستلقى جزاءك عند الله تعالى.

(١) في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» لزين الدين بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن

زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى -

مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦/٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٥٧).

(٣) في «فتح الباري» ١/ ١١٣.

والثاني: أن لا يستحيي المسلم من فعل الطاعات. قال ابن رجب^(١): «إذا كان الذي تريد فعله مما لا يُستحيى من فعله، لا من الله ولا من الناس، لكونه من أفعال الطاعات، أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة، فاصنع منه حينئذٍ ما شئت».

والناس في مجتمعاتنا أمام هذا الحديث نوعان: نوع يجترئ على المعاصي والمخالفات، وقد يجاهر بها، وهذا النوع لا يردعه رادع، ولا يأبه بكلام الناس إن نصحوه، أو وعظوه، ومع هذا، نقول بوجوب نصحه ودعوته. ومظاهر هذا كثيرة، وخاصة فيما نراه في لباس المرأة وإظهار مفاتها، وفي أنظمة الدول الإسلامية، التي تبيح الربا والخمور وغيرها من الموبقات.

والنوع الثاني: يُقدِّم على الطاعات والقربات والسنن والفضائل، ولا يأبه بكلام الناس مدحوه، أو ذمّوه، وأكثر ما يكون هذا في وقت غربة الإسلام، زماناً أو مكاناً، فقد تحل عليك الصلاة وأنت في مكان يكثر فيه العصاة، فتقوم للصلاة في ذلك المكان، ولا تأبه لما يقوله الناس من حولك. وكذا التي تلبس الحجاب في وسط لا يعرف الحجاب. وأصحاب هذه الغربة هم الذين قال النبي ﷺ فيهم: «طوبى للغرباء».

وفي زماننا هذا مرت بنا أيام كان المسلم يخجل أحياناً من إظهار تديّنه، سواء بلباسه - وخاصة النساء - أو الأذان، أو الصلاة في الجامعات وغيرها. ولكننا نحمد الله تعالى، على ما أنعم علينا من زوال هذه الغربة، بفضل الدعوة الإسلامية المعاصرة، وانتشار الصحوّة الإسلامية في جميع الأوساط.

أهم ما يرشد إليه الحديث

١ - الحياء ميراث النبوات، ودأب الصالحين من أتباع الأنبياء.

(١) «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٥٩٩.

-
- ٢- إذا فقد الحياء اجتُرئ على المعاصي والمنكرات.
 - ٣- المسلم لا يستحيي من إظهار الحق الذي يحمله.
 - ٤- على الدعاة والعلماء أن يواصلوا رسالة الأنبياء بهذا الخلق العظيم خلق الحياء، ونشر الفضائل والمعروف بين الناس.

الحديث الحادي والعشرون

الاستقامة على الإيمان

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». رواه مُسْلِمٌ (٦٢).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

سفيان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث، ويقال: سفيان بن عبد الله بن حطيظ الثقفي، أبو عمرو، ويقال: أبو عمرة، الطائفي، له صحبة، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب على أهل الطائف^(١).

شرح الحديث

أهمية الحديث

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ الذي اشتمل على الإسلام كله، عقائده وشرائعه، فقولُه: «قل آمنْتُ بالله» اشتمل على التوحيد وما يتعلق به، وبقولُه: «ثم استقم» اشتمل على شرائع الإسلام وأعماله وأخلاقه.

(١) انظر «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» ليوסף بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبى المزى (المتوفى: ٧٤٢هـ)، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م. ١/١٦٩.

تعلم الإسلام بشموله

في طلب الصحابي رضي الله عنه من النبي ﷺ أن يقول له في الإسلام قولاً يستغني به عن سؤال غيره حرص الصحابة على تعلم أحكام دينهم، وفيه إرشاد الأمة أن تهتدي بهدي أصحاب رسول الله ﷺ في السؤال عن الدين وأحكامه وشرائعه، لأن التعلم أساس العمل، وتصحيح العبادات، وتقويم السلوك، وأن يسألوا أهل الاختصاص، والعلماء في الدين، ولزوم العلماء. والثقة بعلمهم.

وفيه الحرص على طلب الكمال والشمول والكفاية في تعلم الإسلام وفهمه، لما ينبني عليه من الأخذ بالإسلام كله، دون اجتزاء، فكثيراً ما نرى في عصرنا هذا من يولي جانباً من الإسلام، ويغفل جوانب أخرى. وكثيراً ما يخلطون في الأولويات، فيقدمون المهم على الأهم، والفروع على الأصول، والجزئيات على الكليات.

وفي المقابل فإننا نحمد الله على أننا وجدنا في الأمة من أخذ الإسلام بشموله وكماله، وكلياته، فأعطى جوانبه كلها الاهتمام اللازم لها، وأعطى كل ذي حق حقه، فأولى العقائد ما تحتاجه من الأهمية اللازمة، ثم العبادات والأخلاق والسلوك والمعاملات كذلك ما تحتاجه، ولم يغفل قضايا الأمة في شتى بقاع الأرض، وما تُعانيه من ويلات وابتلاءات، فأعطاهما ما تستحقه من عناية. ولم يغفل الجانب السياسي، ولا الجانب الاقتصادي، ولا الجانب الاجتماعي.

قال الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى^(١): «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً؛ فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة، سواء بسواء».

(١) انظر الرسائل: ص ٢٦٩. وهو الأصل الأول من الأصول العشرين في الركن الأول من أركان البيعة وهو ركن الفهم.

الإيمان أولاً

وفي جواب النبي ﷺ: «قل آمنت بالله» توجيه إلى أن الإيمان بالله تعالى وما يتضمنه من الإيمان بالرسول والملائكة والكتب واليوم الآخر والقدر، هو أساس هذا الدين وكل أمور الإسلام من عبادات وأخلاق ومعاملات متفرعة عنه، ولا يقبل عمل من العبد دون الإيمان بالله على هذا النحو من الشمول.

وما يقوله البعض في زماننا هذا بأنهم يعملون الصالحات والخيرات دون إيمان بالله، ودون أن يدخلوا الإسلام، فنقول لهم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]. وقال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فمهما عملوا من أعمال خيرية وصدقات، فإنها لا تقبل عند الله تعالى دون الإيمان به، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الاستقامة

وفي قول النبي ﷺ: «ثم استقم» دعوة شاملة للأخذ بالإسلام بكل جوانبه العملية، حسب سؤال الصحابي، الذي طلب أن يقول له في الإسلام قولاً لا يسأل بعده أحداً، وهذا من حكمته ﷺ في إجابة السؤال حسب الطلب، فكثيراً ما كان النبي ﷺ يُسأل، فيجيب السائل بما يناسبه، فإذا سئل عن أركان الإسلام، أجاب بما يناسبها، كما سيأتي في الحديث التالي في هذه الأربعين. وإذا سئل عن الأحكام الشرعية الفرعية، أجاب بما يناسبها أيضاً، كالذي سأله عن نذر نذره في الجاهلية، أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: «فأوف بندرك»^(١). أو سأله عن اللقطة قال: «عرّفها سنة»، فإن جاء أحد

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٢)، ومسلم (١٦٥٦) من حديث عمر رضي الله عنه.

يُخْبِرُكَ بِعَفَاصِهَا وَوِكَائِهَا، وَإِلَّا فَاسْتَنْفِقْ بِهَا»^(١). وغير ذلك من عشرات الأسئلة في الفروع. أو أنه يوجه السائل إلى ما هو أهم من سؤاله، كالذي سأله عن الساعة، فقال له: «وماذا أعددت لها؟» وهو ما أطلق عليه العلماء «جواب الحكيم».

أما الاستقامة: فهي اسم جامع لما يقوم به المسلم، وفق شرع الله، قال ابن رجب رحمه الله تعالى^(٢): «والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريض عنه يمنية ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها».

ومع هذا فقد بين النبي ﷺ أن المسلم قد يخطئ، وقد يذنب أحياناً، وقد لا يطيق حق الاستقامة، فأمر بالتسديد والمقاربة، فقال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٣)، وفي رواية للإمام أحمد^(٤): «سدّدوا وقاربوا، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن». وقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [الرعد: ٦]. قال ابن رجب^(٥): فيه إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار، المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كقول النبي ﷺ لمعاذ: «اتّق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣٨)، ومسلم (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» ٦٠٧.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٦)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان، وهو صحيح.

(٤) برقم (٢٢٤٣٣) وهو صحيح.

(٥) في «جامع العلوم والحكم» ٦٠٧/٢.

(٦) وهو الحديث الثامن عشر من هذه الأربعين، وقد سلف شرحه والتعليق عليه.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- في الحديث توجيه إلى السؤال عن كليات الإسلام وشرائعه العظام.
- ٢- فيه بيان أهمية الإيمان، وتقديم الجانب الاعتقادي على الجانب العملي في الإسلام.
- ٣- المطلوب من المسلم الاستقامة على شرائع الإسلام قدر المستطاع؛ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.
- ٤- فيه درس للدعاة والعلماء أن يراعوا في دعوتهم وتعليمهم كليات العلم وأولوياته، وأن يحرصوا على بيان كمال الإسلام وشموله.

الحديث الثاني والعشرون

الطريق إلى الجنة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَاتِ ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ، أَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » . رواه مسلم (١٦) .

التعريف بالصحابي راوي الحديث

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الإمام الكبير، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن الأنصاري، الفقيه. شهد ليلة العقبة مع والده. من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة. غزا تسع عشرة غزوة. فشهد الخندق وبيعة الشجرة، وشاخ، وذهب بصره، وقارب التسعين. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي، يؤخذ عنه العلم، فكان مفتي المدينة في زمانه. توفي سنة ٧٤هـ^(١).

شرح الحديث

أهمية الحديث

هذا الحديث يبين الطريق الذي يوصل إلى الجنة. وهو التزام هذا الدين، بعقائده، وشرائعه، وأخلاقه.

سؤال الجنة

جاء في رواية عند الإمام مسلم وغيره أن الذي سأل النبي ﷺ هو النعمان بن قوقل، حيث كان حريصاً على دخول الجنة، طالباً لها، فقدم لهذا الطلب جملة من الأعمال،

(١) انظر «سير أعلام النبلاء»، والأعلام» للزركلي ٢ / ١٠٤ .

ثم ختمها بالسؤال: هل يدخل الجنة بهذه الأعمال؟ فأجابته النبي ﷺ: «نعم»، وكتب الله له الشهادة في غزوة أحد، وقد كثر في الصحابة مَنْ كان يسأل النبي ﷺ عما يدخل الجنة، مما يدل على اهتمامهم بها، وشوقهم إليها، وحرصهم على دخولها. وكان النبي ﷺ في أكثر الإجابات يعدد أركان الإسلام كلها أو بعضها، أو يبين شرائع الإسلام بالجملة، وفي بعضها يبين التزام حدود الله في الحلال والحرام. وهذا من حكمته ﷺ في التعليم وبيان شرائع الإسلام، فأحياناً يُكثف التعليم ويركزه، وأحياناً يفرقه ويوزعه^(١).

وبالجملة فمن أراد أن يعرف الأعمال التي تباعد من النار، وتدخل الجنة، فإنه لا بد له أن يجمع النصوص في هذا الباب من الكتاب والسنة. وهو مبدأ عام في كل أبواب هذا الدين ومسائله، فللتعرف على الإسلام، أو التعرف على مبدأ من مبادئه، أو معرفة حكم شرعي في الحلال والحرام من أحكام هذا الدين، فإنه لا بد له من الرجوع إلى الكتاب والسنة، وأقوال أهل العلم، فيجمع كل ما يتعلق بذلك، ليخرج بنتيجة جامعة مانعة. ولا يقتصر على نص واحد، قد يكون مخصصاً أو مُقيداً أو منسوخاً أو غير ذلك، مما يجعل العمل على غير ما جاء فيه.

وعلى كلٍّ فإن دخول الجنة إنما يكون بالالتزام بهذا الدين اعتقاداً وعملاً، وامثالاً لأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وما ورد بالاختصار على عمل ما، أو جملة من الأعمال، فإنه لا يفيد حصر دخول الجنة بهذا العمل، وإنما يفيد بيان أهمية هذا العمل ومكانته في الإسلام. وفي كل ذلك يكون دخول الجنة إما ابتداء فلا يدخل النار. وإما انتهاء بالشفاعة لأهل الكبائر، والخروج من النار لمن قال لا إله إلا الله.

وفي هذا الحديث اقتصر على ذكر ركنين من أركان الإسلام، وهما الصلاة والصيام، لكن في قوله: «أحللت الحلال، وحرمت الحرام» اشتمال على الالتزام بجميع أحكام

(١) وهو مبدأ من مبادئ التعليم الحديثة، ويطلق عليه: مبدأ التعليم المركز والتعليم الموزع.

الإسلام، فتدخل فيه بقية الأركان، والواجبات والمندوبات والمباحات والمحرمات والمكروهات.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - شوق الصحابة إلى الجنة، وحرصهم عليها، وسؤالهم عما يدخلهم فيها.
- ٢ - مما يدخل الجنة الصلاة والصيام وتحليل الحلال وتحريم الحرام.
- ٣ - على الدعاة والعلماء اتخاذ أفضل السبل في تعليم الناس أحكام دينهم. وتبشير الناس بما يدخل الجنة ويباعد من النار.

الحديث الثالث والعشرون

العبادات نور وبرهان

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا». رواه مسلم (٢٢٣).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

أبو مالك الأشعري، له صحبة. اختلف في اسمه، قيل: الحارث بن الحارث، وقيل: كعب بن عاصم، وقيل: كعب بن كعب، وقيل غير ذلك، توفي في طاعون عمّواس في خلافة عمر بن الخطاب^(١).

معاني الغريب

الطُّهُور: بضم الطاء، هو فعل التطهر، الوضوء وغيره. وبفتحها الماء الذي يتطهر به.

الشطْر: نصف الشيء.

يغْدُو: يسعى في الغداة.

فَمُعْتِقُهَا: من النار.

مُوبِقُهَا: مهلكها بالنار.

(١) انظر «تهذيب الكمال» ٣٤ / ٢٤٥.

شرح الحديث

أهمية الحديث

جمع هذا الحديث بين أمهات العبادات العملية والقلبية والقولية. وبين أنها نور للمؤمن في حياته الدنيا، ونجاة له في الآخرة.

الطهارة شرط الإيمان

بدأ الحديث ببيان مكانة الطهارة وأهميتها في الإسلام، فجعلها شرط أعمال الإيمان، والمعنى الأظهر بالظهور هنا هو الوضوء، لا سيما وأنه قد جاءت رواية أخرى بلفظ: «الوضوء شرط الإيمان»^(١). فهو مفتاح الصلاة، ولا تقبل إلا به، كما أنه شرط في الطواف، ولا يقبل الطواف إلا به، وهو مستحب على كل حال، فهو مستحب عند قراءة القرآن، وعند النوم، وغيرهما، بل المحافظة عليه سمة من سمات الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «ولا يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٢). فالمؤمن يحرص أن يكون دائماً على طهارة. والطهارة صفة مميزة لهذه الأمة عن جميع الأمم الأخرى. وهي صفة تميزها يوم القيامة، حيث يبعث المسلمون غراً محجلين من آثار الوضوء، فيعرفهم نبيهم ﷺ بهذا التحجيل، فالحمد لله رب العالمين.

فضل التحميد والتسبيح

ثم بين النبي ﷺ في هذا الحديث فضل تحميد الله وتسبيحه، فقال: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض». والتحميد هو ذكر الله، وفيه إثبات المحامد كلها لله تعالى، ويتضمن معنى شكر الله على نعمه. والحمد لله كلمة كل شاكر، فقد قال الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» [المؤمنون:

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان، وهو حديث صحيح.

[٢٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقال في قصة داود وسليمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وأنزل على نبيه ﷺ سورة الفاتحة السبع المثاني، ليقول في كل ركعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١-٢]، وأمره بالحمد في كثير من السور، فقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

والحمد لله في السراء والضراء، وفي الصحة والمرض، وفي الفقر والغنى. فيكون الحمد لله على كل حال.

ولعظم هذه الكلمة قال النبي ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان»، وهي تملؤه على عظمته وسعته بالأجر والثواب لقائلها.

وقوله ﷺ: «وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض» جمع بين التسبيح والتحميد. والتسبيح: تنزيه الله سبحانه وتعالى عن جميع النقائص والعيوب والآفات، والتحميد: كما ذكرنا، هو إثبات المحامد مع الشكر. ولما قال: تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض، فقد دل ذلك على عظم هاتين الكلمتين، وأنهما بجمعهما أو بتفريقهما يملآن ما بين السماء والأرض أجراً، على عظم ما بينهما.

والتسبيح والتحميد الذي يملأ ما بين السماء والأرض هو التسبيح والتحميد الذي يليق بجلال الله سبحانه وتعالى وعظمته. وهو متفاوت بين العباد حسب قوة الإيمان، وحسب حال الذاكرين.

والمؤمن الذي يتأمل هذا الحديث، يجد نفسه أمام ثواب وأجر لا يعلمه إلا الله، فعليه أن يغتنم نعمة الذكر من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ويكثر من قوله:

«سبحان الله وبحمده» فقد جاء في حديث آخر: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

الصلاة نور

وقوله ﷺ: «والصلاة نور» فهي نور للمؤمنين في حياتهم الدنيا، وفي قبورهم، وفي معادهم، ففي الدنيا نور لهم في قلوبهم تشرق بها وتخضع لله تعالى، فيزداد القلب يقيناً وإيماناً وتوكلًا على الله سبحانه وتعالى، وهي نور له في سلوكه وأعماله، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر. ونور له في قبره، فتؤنسُه في وحشته، وتدفع عنه كروب القبر وأهواله. ونور له في المحشر، وعلى الصراط يسعى بين يديه، كما أنها أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة، فتكون سبباً في صلاح سائر عمله.

الصدقة برهان

ثم ذكر النبي ﷺ الصدقة، فقال: «والصدقة برهان» والصدقة هنا بمفهومها الواسع، الذي يشمل فرضها وندبها، فبين مكانتها بهذا الوصف، وأنها دليل على صدق إيمان المؤمن، فهي له كالنور الساطع في وجه الشمس في الدنيا والآخرة، كما ورد في الصلاة. قال ابن الأثير^(٢): «الصدقة برهان: البرهان: الحجة والدليل، أي: أنها حجة لطالب الأجر، من أجل أنها فرض يُجازي الله به وعليه، وقيل: هي دليل على صحة إيمان صاحبها لطيب نفسه بإخراجها، وذلك لعلاقة ما بين النفس والمال».

ومن معاني البرهان الشعاع الذي يلي وجه الشمس، وبهذا المعنى تُشارك الصدقة الصلاة والصبر في أنواع النور، وقد خُصت الصدقة بتشبيهها بهذا النوع من النور، وفيه زيادة على النور شدة الحرارة، لما في الصدقة من شدة على النفس، بسبب الحرص على المال. ولأنها تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) في «النهاية» ١/ ١٢٢.

وقد جاء لفظ «برهان» بمعنى الشعاع في الحديث الذي رواه أبو داود الطيالسي في قبض روح المؤمن، وفيه: «فتشرق - أي: روحه - في السماوات ولها برهان كبرهان الشمس، حتى ينتهي إلى العرش»^(١).

الصبر ضياء

ثم ذكر الصبر، وهو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع، من صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على المصائب والابتلاءات. ووصف الصبر بأنه ضياء، وهو نور مع حرارة وإحراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور فقط، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. ووصفه بالضياء لما فيه من شدة على النفس، وتحمل، وإحراق للذنوب، وتكفير للسيئات، وتهذيب للنفس.

ولما كان الصبر حالة احتمال شديدة، ومكابدة، ومجاهدة للنفس بلا حدود، كان أجره عند الله تعالى بلا حساب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد أمر الله تعالى نبيه بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. والصبر ألزم ما يكون للعلماء والدعاة والقادة، لأن صبرهم على دعوتهم، وثباتهم على حقهم، هو الوسيلة الأنجع في مواجهة أعدائهم، ونصر فكرتهم، ونشر دعوتهم. وما يجوز في حق العامة والأفراد من الرخص والمعاذير، فإنه لا يجوز

(١) أورده ابن القيم في كتاب «الروح» ص ١٠٤، عن أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي وائل، عن أبي موسى الأشعري، قال: تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك، فتنتلق بها الملائكة من دون السماء، فيقولون ما هذا؟ فيقولون: هذا فلان ابن فلان، كان يعمل كيت وكيت، لمحاسن عمله، فيقولون مرحباً بكم وبه، فيقبضونها منهم، فيصعد بها من الباب الذي كان يصعد منه عمله، فتشرق في السماوات ولها برهان كبرهان الشمس حتى ينتهي إلى العرش... الحديث. وإسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة، فإنه صدوق يخطئ.

في حق هؤلاء. ولقد كان في صبر الأنبياء وأتباعهم عبر التاريخ، وفي صبر نبينا ﷺ وأصحابه، قدوة للدعاة والعلماء في كل زمان ومكان^(١).

القرآن حجة

ثم ذكر النبي ﷺ القرآن، فقال: «حجة لك أو عليك»، فهو بينة تشهد لك أو عليك، يشهد لك بتلاوته وحفظه والتزام أحكامه والوقوف عند حدوده، أو يشهد عليك بهجره، ومخالفة أمره ونهيه. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وأظهر ما يكون القرآن حجة في حق العلماء والدعاة، الذين استبانوا الطريق، وعرفوا ما في القرآن من نور وهدى وموعظة، وهؤلاء هم أهل القرآن وخاصته، لا يشبعون من كثرة تلاوته، ولا يملون من دراسته، وفهم آياته، ويحملونها على محمل التنفيذ، ويتلقون القرآن كما لو أنه خطاب مباشر لهم، وهم قدوة للناس في التزام أحكامه.

وأما الذين هجروا القرآن، وعطلوا أحكامه، ولم يحلوا حلاله، ولم يحرموا حرامه، فهؤلاء يكون القرآن حجة عليهم في الدنيا والآخرة، وهم الذين يقول فيهم النبي ﷺ: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

الناس بين النجاة والهلاك

ثم بين النبي ﷺ أن الناس في السعي في هذه الدنيا على صنفين: أما أحدهما فقد آمن بما جاء به النبي ﷺ، وعمل بمقتضى إيمانه، فالتزم شرع الله، يحل ما أحل الله،

(١) وقد تكلمنا عن صبر الدعاة أيضاً عند الحديث التاسع عشر، عند قول النبي ﷺ: «واعلم أن النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ».

ويحرم ما حرم، فهذا ناج من النار، وهو من أهل الجنة بإذن الله، وهو الذي قصده النبي ﷺ بقوله: «معتقها» أي: معتق نفسه من النار.

والثاني: لم يؤمن بهذا الدين، ولم يلتزم أحكامه، بل سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل، فهو هالك من أهل النار والعياذ بالله، وهو الذي قصده النبي ﷺ بقوله: «أو موبقها» أي: يلقي بنفسه في النار.

وكثيراً ما جاء في كتاب الله تعالى بيع النفس وشراؤها، أو بيع النفوس وشراؤها، وكأنها تجارة مع الله تعالى، أو تجارة مع أعدائه سبحانه، تجارة فيها الربح والخسارة، كقوله سبحانه في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١]. وقوله تعالى في حق المنافقين، الذين باعوا أنفسهم للمشركين ولليهود: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

أهم ما يرشد إليه الحديث

١- إرشاد المسلم إلى أهمية الطهارة، وأنها تعدل نصف الإيمان. لذلك يحرص

المسلم على طهارته في كل وقت وحين.

٢- الإكثار من ذكر الله، وخاصة التسبيح والتحميد، ففيهما من الأجر ما لا يعلمه

إلا الله.

- ٣- الصلاة والصدقة والصبر من أهم العبادات في حياة المسلم، وهي نور له في الدنيا والآخرة. تنير قلبه، وتقوّم سلوكه، وتدخّله الجنة.
- ٤- حرص المسلم على كتاب الله قراءة وتدبراً وعملاً.
- ٥- على الدعاة والعلماء أن يحرصوا على طهارة أبدانهم وقلوبهم وسلوكهم، وأن يكونوا قدوةً للمدعوين في امتثال أوامر الله في جميع نواحي الحياة، وخاصة في الصلاة والصدقة والصبر، كي يكون القرآن حجةً لهم، لا حجة عليهم.

الحديث الرابع والعشرون

عظمة الله تعالى

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِّكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». رواه مسلم (٢٥٧٧).

شرح الحديث

الحديث القدسي

يُعدُّ هذا الحديث من الأحاديث القدسيّة، لقول أبي ذر فيه: عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه. والأحاديث القدسية هي الأحاديث التي يقول فيها النبي ﷺ: قال الله تعالى، أو قال: إن روح القدس نفث في روعي، أو قال الصحابي: فيما يرويه - أي النبي ﷺ - عن ربه. فيكون المعنى موحى به من عند الله تعالى، ولفظه من النبي ﷺ.

والأحاديث القدسية قليلة بالنسبة للأحاديث النبوية الأخرى. والصحيح منها قليل ويغلب عليها الوعظ والإرشاد. والفرق بينها وبين القرآن: أن القرآن لفظاً ومعنى من الله تعالى، وهو مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، ونُقل إلينا بالتواتر.

أهمية الحديث

اشتمل هذا الحديث على أهم صفات الربوبية، من العدل بين العباد وتحريم الظلم، وهداية الناس، وقضاء حوائجهم من المَطْعَم والمَشْرَب والملبس والمسكن، وغيرها. وسعة رحمته سبحانه وتعالى، وأنه مالك كل شيء، وأنه النافع والضار، وهو الغني الحميد.

تحريم الظلم

بدأ الحديث بقول الله تعالى: «يا عبادي» نداء فيه تحجب إلى الخلق، وتقرب منهم، وفيه سعة رحمة الله تعالى بعباده، ولطفه بهم.

ثم قال: «إني حرمت الظلم على نفسي»، فيه تحريم الظلم بشئى صورته وأشكاله. والظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه، وقد نزه الله تعالى نفسه في عن الظلم، فهو العدل سبحانه وتعالى، وعدل الله قامت عليه السماوات والأرض، فقد وضع الله تعالى كل شيء في موضعه الذي قدره له، وأقام الكون على قوانين ونواميس غاية في الحكمة والعدل، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

وقد كثر في كتاب الله تعالى تنزيه الله عن الظلم: كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

وكما حرم الله تعالى الظلم على نفسه، حرّمه على عباده فيما بينهم، فقال: «وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا». فنهاهم أن يظلم بعضهم بعضاً، فأقام حياتهم فيما بينهم على العدل، وأمرهم به، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

أما التظالم بين الناس فله صور وأشكال لا حصر لها، فقد يظلم الأخ أخاه، والأب ابنه، والمرأة زوجها، والزوج امرأته، والحاكم رعيته، والمعلم تلاميذه، والقوي الضعيف. وكل تقصير في حق من حقوق الناس فهو ظلم، قلّ أو كثر، صغر أو كبر.

وفي قول الله تعالى: «تظالموا» صورة المشاركة في الظلم، فالظلم يُؤلّد الظلم، والتقصير يولد التقصير، والعداوة تولد العداوة، وهكذا في شتى صور الظلم. والله يدعو الناس إلى ترك الظلم، وإقامة حياتهم على العدل والإحسان، ومقابلة الإساءة بالإحسان.

وأما في هذا الزمان فقد أصبح الظلم شعاراً للمجتمعات والدول، والتظالم واقعاً بين الأفراد والجماعات، وبين الشعوب والحكومات، وبين الدول قوياتها وضعيفها، وأصبح الظلم مُقنّناً ومشرعاً، يكال للضعفاء فيه بمكاييل جائرة، تهضم حقوقهم، ويؤكل الأخضر واليابس من ثرواتهم.

وما أكثر صور الظلم في هذا العصر، من احتلال الأوطان، إلى احتلال العقول والثقافات، ونهب الثروات، حتى صارت كثير من الدول تُدار بالعصابات، والأموال الحرام، والاعتقالات، وفرق الموت والقتل. وكذا السياسات التعليمية والثقافية التي تهدم ولا تبني، وتقتل الطاقات والكفاءات، ولا تُحييها أو تُنمّيها.

وما قضية فلسطين إلا مثلاً صارخاً، يحكي قصة الظلم الكبير في عصر التنوير وعصر وحدة الأمم، التي قامت واتحدت على تحقيق مصالحها وسعادتها، على حساب دمار بلادنا، وتمزيق أمتنا، وتخلف شعوبنا، وتهجيرهم، ونهب خيراتهم.

كل هذا مما يقتضي تداعي العلماء والدعاة والمصلحين أفراداً وجماعات في شتى بقاع الأرض، لأن يبذلوا قصارى جهودهم في أمتنا، وإنقاذ البشرية من هذا الظلم العالمي، الذي يسري في شرايين العالم كالسرطان، يأكل أعضائه حتى الموت.

الله الصمد

قوله: «يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلَّا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنَّكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذُّنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم».

في هذا الجزء من الحديث نداء من الله لعباده أنه تعالى وحده يقضي حوائجهم، ويبيده وحده جميع مصالح العباد الدنيوية والأخروية، قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢]. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. فالله هو المعطي وهو المانع، وهو الباسط وهو القابض. وقد جاء في أول هذه الحاجات الهداية، وفي آخرها المغفرة. فهي مدار وجود الإنسان في هذه الحياة. وهو سبحانه وحده الصمد، الذي يلجأ إليه في النوازل والحاجات.

وقد أُمر الإنسان في هذه الحياة بالأخذ بسنن الله في هذا الكون في كل المجالات، في المأكل والمشرب والملبس والعلم وغيرها، لذلك أُمر بالعمل والسعي والاكتساب، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأْمَسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وفي الحديث: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»^(١).

وكذا الهداية فإن طلبها يقتضي سلوك طريقها، واتخاذ الأسباب الموصلة إليها، ومن ذلك تعلم العلم وتعليمه، ومعرفة الحلال والحرام والأحكام، ومن أجل ذلك فقد أرسل الله تعالى رسله وأنبياءه وأنزل كتبه، وأخذ عهده على العلماء أن يُبينوا للناس أحكام الدين، ولا يكتُمونه، وتوعد من كتم علماً بأن يلجمه بلجام من نار يوم القيامة. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]. وقال النبي ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

ومع هذا فقد خلق الإنسان ضعيفاً، ومن مظاهر ضعفه ما يقع فيه من الخطايا والذنوب، وهو بحاجة إلى مغفرة من الله تعالى بعد توبة صادقة. وسيأتي مزيد كلام حول التوبة والاستغفار عند الحديث الثاني والأربعين: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٨)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث أبي هريرة، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦١) و(٢٦٦)، والترمذي (٢٨٤٠) من حديث أبي هريرة، وهو حديث صحيح.

ما دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

الله الغني

قوله تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

في هذا الجزء من الحديث بيان أن الله تعالى غني عن العباد وعن عبادتهم، مليك كل شيء والقادر عليه، خزائنه لا تنقص بالعتاء، ولا حتى كما ينقص البحر من مخيط إذا أُدخل فيه، ثم أخرج منه. وهذا مثل لتقريب المعنى، وإلا فإنها لا تنقص حتى كما ينقص المخيط من البحر.

الإنسان مسؤول

«يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

في هذا الجزء من الحديث تحميل الإنسان المسؤولية عن أعماله، التي يُحْصِيهَا اللَّهُ تعالى عليه، وهي مناط الجزاء يوم القيامة، ولا يظلم ربك أحداً، وقد قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ

لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ - ١٨].

وهكذا بدأ هذا الحديث الشريف بتحريم الظلم، وانتهى بتحقيق العدل.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - أن الله تبارك وتعالى حرم الظلم على نفسه، وحرمه على العباد فيما بينهم.
- ٢ - أن الله تعالى هو الصمد المقصود بحوائج العباد كلها الدنيوية والأخروية، وهو القادر على كل شيء.
- ٣ - يدعو هذا الحديث المؤمنين إلى إخلاص التوحيد لله تعالى، وتعلم أسمائه الحسنی وصفاته العليا، وإدارة الحياة بمقتضاها.
- ٤ - وأن الله تعالى هو الغني عن عباده، وعباده فقراء إليه.
- ٥ - وأن الإنسان مسؤول بين يدي الله عن أعماله في هذه الحياة، إن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعليها.
- ٦ - يدعو هذا الحديث الدعاة والعلماء إلى مُحاربة الظلم بجميع صورهِ وأشكاله، وبيان عظمة الله سبحانه وتعالى، وغرس التوحيد في قلوب العباد، وبيان مسؤولية الإنسان عن أعماله.

الحديث الخامس والعشرون

أنواع الصدقات

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ. فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٢٠).

معاني الغريب

الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير.

البُضْع: كناية عن الجماع.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

تضمن هذا الحديث معاني مهمة: أهمها: توسيع مفهوم الصدقة وأنواعها ومجالاتها، وإشراك المسلمين جميعاً في اكتسابها، وشمولها لجميع جوانب الحياة الدنيوية والأخروية.

وما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من التنافس في فعل الخيرات، وحزنهم على فوات الطاعات، بسبب العجز عنها. وفي هذا كله دليل على أن ذلك الجيل القرآني قد فهم

الإسلام وعمل به، وكان حريصاً على الاستكثار من الفضائل، فاستحق أن يكون جيلاً قرآنياً فريداً.

تنافس الصحابة في الطاعات وحزنهم على فواتها

وكما قلنا، في هذا الحديث يظهر حرص الصحابة على المسابقة في تحصيل الأجور، فشكى الفقراء إلى النبي ﷺ سبق الأغنياء لهم، وهم الذين شاركوهم في العبادات، لكنهم سبقوهم في الصدقات، ويظهر في هذه الشكوى ما كان عليه فقراء الصحابة من الحزن بسبب فواتهم التصديق بالأموال.

وفي هذا دليل على مشروعية التنافس في الطاعات، وفعل الخيرات والأعمال الصالحات، وقد قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ، خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٦].

وفي مقابل هذا جاء التحذير من التنافس على الدنيا، حيث قال النبي ﷺ للأنصار: «والله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

ومما ورد في حزن الصحابة على فوات الطاعات حين العجز عنها، قوله تعالى في رفع الحرج عن الذين لم يشاركوا في غزوة تبوك، حين عجزوا عن نفقة الجهاد: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلمين حين يعجزون عن نصرة إخوانهم المستضعفين والدفاع عنهم، وإطعام جوعهم، وإعانة محتاجيهم، وفك أسراهم، ورفع الظلم عنهم. فلا أقل من عبرات العيون، إن لم تسعف الجيوب.

مفهوم الصدقة وأنواعها

لما ظن الصحابة أن الصدقة مقتصرة على المال دون غيره من أعمال البر، بين النبي ﷺ أن الصدقة أوسع مدلولاً ومفهوماً من هذا، وأنها أنواع كثيرة يدخل فيها جميع أعمال البر والإحسان، سواء المقتصرة على النفس من العبادات والأذكار والأدعية، أو المتعدي نفعها إلى الآخرين، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد روي في حديث أبي ذرٍّ زيادات أخرى من الصدقة، كما جاء عند الترمذي^(١) عن أبي ذرٍّ، عن النبي ﷺ: «تَسْمُكُ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَ وَالْعِظَمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ».

وقد بين النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أنواعاً أخرى من الصدقة منها: ما جاء في حديث أبي هريرة التالي في هذه الأربعين، ومنها: قوله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^(٢). وقوله ﷺ: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا، فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٣). وقوله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، أَوْ طَيْرٌ، أَوْ دَابَّةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٤).

وفي كتاب الله من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤].

(١) برقم (١٩٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٠٦)، مسلم (١٠٠٢) من حديث أبي مسعود.

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٢٠)، مسلم (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك.

ويحتاج المجتمع في كل عصر إلى أنواع من أعمال البر والصدقات ما يتناسب مع حاجاته ومتطلباته، فحاجتنا اليوم كثيرة، كنصرة المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها، ولا سيما في فلسطين. والعمل على مقاومة الفساد في البلاد، سواء الفساد الإداري، أو المالي، أو الأخلاقي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو الثقافي. وجميع أعمال التعليم والتربية والتوجيه والإعلام الهادف. وإنشاء المؤسسات الخدمية والتربوية والإعلامية والحقوقية، وغيرها مما ينهض بالأمة ويرفع من شأنها، فهي كلها صدقات.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - التنافس في أعمال الخير محمود كما كان عليه أصحاب النبي ﷺ.
- ٢ - أن نتألم على فوات الطاعات، وعلى عجزنا عن نصرة إخواننا المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها.
- ٣ - الصدقات تشمل جميع أبواب الخير الفردية والجماعية القاصرة والمتعدية.
- ٤ - على العلماء والدعاة التنويع في الصدقات بما يخدم هذا الدين، وبما يرفع من شأن الأمة، ويبعث كيائها من جديد.

الحديث السادس والعشرون

شكر الله على نعمه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

معاني الغريب

السُّلَامَى: المقصود بها مفاصل الإنسان.

شرح الحديث

أهمية الحديث

في هذا الحديث ربط بين النعم وشكر المنعم، وبيان فضل النعم التي أنعم الله بها علينا، وصور الشكر بتنوع الأعمال الصالحة.

نعمة المفاصل للإنسان

في هذا الحديث يلفت النبي ﷺ أنظارنا إلى نعمة عظيمة، أنعم الله بها على الإنسان، وهي نعمة المفاصل، هذه النعمة التي قد يغفل عنها الناس، وهم لا يستغنون عن استخدامها في جميع أوقاتهم وأحوالهم. كالكتابة والطباعة واستخدام الآلات والمهن والصناعات، وكذا في العبادات كالصلاة وهيئاتها، ابتداء من رفع اليدين في تكبيرة الإحرام إلى التسليم من الصلاة.

وقد جاء في روايات أخرى لهذا الحديث أن عدد هذه المفاصل ثلاث مئة وستون مَفَصِلاً، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «إنه خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثَ مِئَةِ مَفْصِلٍ»^(١). وقد سبق النبي ﷺ العلم الحديث في عدد هذه المفاصل، فقد قال الدكتور زغلول النجار في مقال مطول في موقعه^(٢) تحت عنوان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]: «ويفصل هذا العدد الهائل من العظام (٣٦٠) مَفَصِلاً على النحو التالي:

- (١٤٧) مَفَصِلاً بالعمود الفقري (٢٥ منها بين الفقرات، ٧٣ بين الفقرات والأضلاع، ٥٠ بين الفقرات عن طريق اللقيمات الجانبية).
- (٢٤) مَفَصِلاً بالصدر (١٨ منها بين القص والضلع، ٢ بين الترقوة ولوحي الكتف، ٢ بين لوحي الكتف والصدر).
- (٨٦) مَفَصِلاً بالأطراف العلوية (٢ منها بين عظام الكتفين، ٦ بين عظام الكوعين، ٨ بين عظام الرسغين، ٧٠ بين عظام اليدين).
- (٨٨) مَفَصِلاً بالأطراف السفلية (٢ منها بين الفخذين، ٦ بين عظام الركبتين، ٦ بين عظام الكاحلين، ٧٤ بين عظام القدمين).
- (١٥) مَفَصِلاً بالحوض (٦ منها بين عظام الفخذ، ١ مفصل الارتفاق العاني، ٤ بين فقرات العصعص، ٤ بين عظام الركبتين).

شكر الله بالأعمال

وقد بين لنا نبينا ﷺ كيف نشكر الله تعالى على هذه النعم، فجعل على كل مَفَصِل صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، أي: على المسلم أن يتصدق كل يوم بستين وثلاث مئة صدقة.

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٧).

(٢) انظر الرابط: <http://www.elnaggarzr.com>

ولما استكثرَ الصحابةُ هذه الصدقات، وسع عليهم في مفهوم الصدقة، ونوع من أشكالها^(١)، فقال: «تَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةً»، وفي هذا حث على الإصلاح بين الناس، وحل الخصومات، ومعالجة مشكلات الأزواج والأسر، وما أكثر هذه المشكلات، ولا سيما ما يعرض للدعاة والعلماء.

ثم قال: «وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةً»، فذكر الإعانة في وسائل المواصلات للكبير والصغير والعاجز والرجل والمرأة، وما أكثر المحرومين منها، والمحتاجين إليها، والمنقطعين في طرقهم.

ثم قال: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»، والكلمة الطيبة في النصيحة، أو الإرشاد، أو التعليم، أو الدعوة صدقة كذلك، وما أيسر ذلك، وما أكثره في عصرنا هذا مع اتساع وسائل التواصل الاجتماعي وكثرتها، ويستطيع الداعية استثمارها في دعوته بعمل أفلام دعوية قصيرة، أو مقالات، أو عبارات قصيرة، وغير ذلك، ينشرها عبر وسائل التواصل الإلكترونية الكثيرة.

ثم قال: «وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ» وانظر كم يمشي المسلم الى صلواته الخمس، وله بكل خطوة صدقة.

«وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» وإمطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، بل إن كل ما ورد من أعمال في هذا الحديث هي من شعب الإيمان. وإمطة الأذى تشمل إزالة كل ما يؤذي الناس، من الحجارة والأوراق وأغصان الشجر، وفي الحديث: «أن رجلا دخل الجنة في غصن شجرة نحاها عن الطريق»^(٢). وفي هذا يتبين لنا مدى عناية الإسلام بالبيئة.

(١) انظر شرح حديث أبي ذر السابق في هذه الأربعين، عنوان: مفهوم الصدقة وأنواعها.

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٤).

وذكر هذه الأعمال كان على سبيل التمثيل لا الحصر، فقد جاء في غير ما رواية للحديث أنواع أخرى من الأعمال الصالحة، منها ما ورد في حديث أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس». قيل: يا رسول الله، ومن أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتمييط الأذى عن الطريق، وتُسْمَعُ الأصمُّ، وتَهْدِي الأعمى، وتَدُلُّ المُسْتَدِلَّ على حاجته، وتسعى بِشِدَّةٍ ساقيك مع اللهفان المُسْتَغِيث، وتَحْمِلُ بِشِدَّةٍ ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك»^(١).

وهذه الأنواع التي ذكرها النبي ﷺ من الصدقات منها ما هو قاصر على صاحبه، كالذكر والمشي إلى المسجد وصلاة الضحى، ومنها ما هو متعدّد إلى الآخرين، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإمالة الأذى عن الطريق وغيرها، وما ذلك إلا لتنويع الصدقات كي تشتمل على جميع نواحي الحياة.

فضل صلاة الضحى

وقد جاء في رواية أخرى لهذا الحديث عن أبي ذر بأن ركعتي الضحى تجزئ عن صدقة جميع المفاصل في الإنسان، وما ذلك إلا لفضل هذه الصلاة ومكانتها في الإسلام، فعن أبي ذر، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(٢).

(١) أخرجه ابن حبان (٣٣٧٧) وإسناده صحيح. وانظر حديث أبي ذر السابق في هذه الأربعين وشرحه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٠).

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- في هذا الحديث بيان لنعمة الله على الإنسان في خلقه وتكوينه في أحسن صورة.
- ٢- وفي هذا الحديث شكر الله على نعمه بالأعمال الصالحة.
- ٣- وفي هذا الحديث تعدد طرق الخير.
- ٤- يرشد هذا الحديث العلماء والدعاة إلى بيان منهج الإسلام في تعدد طرق الخير، وفاعلية المسلم في المجتمع، ونفعه له، ومنه تعدد أساليب الدعوة إلى الله ووسائلها، إضافة إلى ما يصلح به نفسه من أعمال العبادات والأذكار.

الحديث السابع والعشرون

البر والإثم

عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». رواه مسلم (٢٥٣٣).

وَعَنْ وَابِصَةَ بِنِ مَعْبَدٍ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ». حديث حسنٌ رُوِيَناهُ فِي مُسْنَدِي الْإِمَامَيْنِ أَحْمَدَ (١٨٠٠١)، وَالدَّارِمِيِّ (٢٥٣٣) بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

التعريف بالصحابيين راويي الحديثين

النَّوَاسُ بْنُ سَمْعَانَ الْكَلَابِي الْعَامِرِيُّ، سَكَنَ الشَّامَ، لَهُ صَحْبَةٌ وَرَوَايَةٌ. رَوَى عَنْهُ: جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، وَأَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، وَجَمَاعَةٌ. تُوْفِيَ نَحْوَ الْخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ (١).

وَإِبْصَةُ بِنْتُ مَعْبَدِ بْنِ عُتْبَةَ الْأَسَدِيِّ، أَسَدُ خُزَيْمَةَ، أَبُو سَالِمٍ. وَقَدْ عَلِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَنَةَ تِسْعٍ فِي عَشْرَةٍ مِنْ رَهْطِهِ، فَأَسْلَمُوا وَرَجَعُوا إِلَى أَرْضِهِمْ. ثُمَّ نَزَلَ وَابِصَةُ الْجَزِيرَةَ، وَلَهُ بِدَمَشْقٍ دَارٌ. وَسَكَنَ الرِّقَّةَ، إِلَى أَنْ تُوْفِيَ فِيهَا. وَكَانَ كَثِيرَ الْبُكَاءِ، لَا يَمْلِكُ دَمْعَتَهُ،

(١) انظر «تاريخ الإسلام» لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م. ٢/٤٤٥.

وكان له بالرقّة عَقَب. مِنْ ولده: عبد الرحمن بن صخر، قاضي الرقة أيام هارون الرشيد. توفي نحو الستين للهجرة^(١).

شرح الحديث

أهمية الحديثين

في هذين الحديثين بيان من النبي ﷺ لمفهوم البر، واطمئنان النفس إليه، ومفهوم الإثم، وتردد النفس فيه. ودور الفطرة السليمة في معرفتهما.

البر حسن الخلق

بين النبي ﷺ البر بمعناه الواسع، ويشمل جميع مَهَمَّات الدين وشرائعه وأخلاقه وآدابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن رجب^(٢): «فالبرُّ بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار، كالمرض والفقر، وعلى الطاعات، كالصبر عند لقاء العدو. وقد يكون جوابُ النبي ﷺ في حديث النَّوَّاسِ شاملاً

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» ٧٣٥ / ٢.

(٢) انظر «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لأبي الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجَزَرِي، ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ٣٨٩ / ٥. و«تاريخ الإسلام» ٥٥٠ / ٢.

لهذه الخصال كلها؛ لأنَّ حُسْنَ الخُلُقِ قد يُراد به التخلُّقُ بأخلاق الشريعة، والتأدُّبُ بآداب الله التي أدَّبَ بها عباده في كتابه، كما قال تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقالت عائشة: «كَانَ خُلُقُهُ ﷺ الْقُرْآنَ»^(١)، يعني: أَنَّهُ يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ، فيفعل أوامره ويجتنب نواهيه، فصار العملُ بالقرآن له خُلُقًا كالجبلة والطبيعة لا يُفارقُهُ، وهذا أحسنُ الأخلاق وأشرفُها وأجملُها. وقد قيل: إِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ خُلُقٌ.

الإثم ما حاك في النفس

المقصود بهذا الحديث هو النظر في بعض الأمور المشتبهة، التي لا يجد المسلم فيها حُكماً فاصلاً، فتشبه عليه وتتردد في نفسه بين الحِلِّ والحُرمة، فجعل من علامات الإثم نفور قلب المسلم منها، واضطراب نفسه تجاهها، وعدم رضاه بها.

وقد ورد - أضافة لهذا الحديث - عدة أحاديث تؤسس بمجموعها لمنهج الورع في الإسلام في التعامل مع المشتبهات، منها في هذه الأربعين: الحديث السادس: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات»، والحديث الحادي عشر «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وانظر تنمة كلامنا وشرحنا عليها هناك.

الفطرة السليمة

وقد أرجع النبي ﷺ تمييز الإثم من غيره فيما تشبه فيه الأمور إلى القلب واطمئنان النفس إليه، وهذا ما يطلق عليه هداية الفطرة، حيث تعد الفطرة السليمة مرجعاً يأنس إليه المؤمن، الذي نشأ في بيئة صالحة، وتشرب معاني الإسلام والتزم بأحكامه وأدرك مقاصده وغاياته، مما يجعل له نوراً في قلبه يهديه إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ويزيل ترددده.

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

أما عند فساد الفطر، وشيوع الأهواء والجهل بالإسلام، فلا يعتبر القلب حينها مرجعاً في تمييز الحق من الباطل. فإذا ما أفتى العالم هذا النوع من الناس، فما عليهم إلا أن يستجيبوا لفتواه.

وفي حال إذا لم يجد المسلم من يُفتيه، وكان في الأمر ريبة لم تزل من قلبه، فالأولى إعمال حديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وهو عين الورع.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- فيه بيان لمعنى البر، والحض عليه.
- ٢- فيه بيان لحكم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وهو الإثم.
- ٣- فيه بيان للفطرة السليمة، ودورها في التمييز بين البر والإثم.
- ٤- وللعلماء والدعاة دور عظيم في تربية الناس التربية الإسلامية السليمة، التي تحافظ على الفطرة السليمة. وأن يعملوا على تكوين العلماء القادرين على إصدار الفتاوى الصحيحة بشروطها.

الحديث الثامن والعشرون

موعظة مودع

عَنْ الْعَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً، وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَُا مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ، فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مِنْ يَعْشَ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

التعريف بالصحابي راوي الحديث

العرباض بن سارية أبو نجیح السلمي. صاحب رسول الله ﷺ، وأحد أصحاب الصُّفَّة التي بمسجد رسول الله ﷺ، ومن البكائين الذين نزل فيهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٩٢]. سكن حمص، وروى عن النبي ﷺ، وأبي عبيدة. توفي سنة خمس وسبعين للهجرة^(١).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يعد هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، لما اشتمل عليه من أصول الدين ومهماته، فهو أصل في تقوى الله تعالى، وطاعة أولي الأمر بالمعروف، وأصل في الأخذ بسنته ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، وأصل في اجتناب البدع ومحدثات الأمور.

(١) انظر «تاريخ الإسلام» ٢/ ٨٦٢.

الموعظة من سنة النبي ﷺ

في هذا الحديث بيان لأهمية الموعظة، وهي التذكير بالخير، فيما يرقّ له القلب، وقد استجاب النبي ﷺ لأمر ربه في الكتاب، حين قال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. وقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وكان النبي ﷺ يتخير الأوقات والأحوال المناسبة للموعظة، ولا سيما بعد صلاة الفجر^(١)، حيث تكون القلوب أكثر استعداداً لتلقي الموعظة، وقد ورد عن ابن مسعود قوله: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ، كَرَاهَةِ السَّامَةِ عَلَيْنَا»^(٢).

وفي هذا بيان سنة النبي ﷺ في الوعظ، ليقتردي بها العلماء والدعاة، فهم ورثة الأنبياء في تبليغ رسالتهم، وأن لا يقصروا في هذا الجانب، وأن يولوه بالغ اهتمامهم، فالناس بحاجة ماسة لما يرقق قلوبهم، ويذكرهم بشرع ربهم، وأحكام دينهم، وما يقربهم من الله تعالى، وينفرهم من المعاصي، والله تعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقد كان للعلماء عبر التاريخ مجالس للوعظ وترقيق القلوب، يحضرها الآلاف من الناس، كمجالس الحسن البصري، وابن الجوزي، وغيرهما.

البلاغة في الموعظة

جاء في رواية أبي داود لهذا الحديث وصف الموعظة بأنها «بليغة»، والبلاغة: هي إيصال المعاني إلى قلب السامع بعبارة فصيحة موجزة. وهي مُستحسنة في المواعظ، كي تكون أكثر تأثيراً ووقعاً في القلوب، وقد كان النبي ﷺ من أبلغ الناس عبارة وأوجزها، وأجمعها للمعاني. فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم.

(١) ففي رواية الترمذي (٢٦٧٦) لهذا الحديث أن موعظته هذه كانت بعد صلاة الغداة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).

وكان لهذه الموعظة أثرٌ في قلوب الصحابة، إذ يقول العرياض: «ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب» وذلك لبلاغتها وقوة عبارتها، وفي قوله تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] أمر بأن يكون الكلام موصلاً للمعاني المراد تبليغها للناس، قال الرازي^(١): «وهو أن يكون كلاماً بليغاً، طويلاً، حسنَ الألفاظ، حسنَ المعاني، مُشتملاً على الترغيب والترهيب والإحذار والإنذار والثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان هكذا عَظُم وقَعُه في القلب».

فعلى العلماء والدعاة أن يحرصوا في مواعظهم على أن تكون سليمةً، فصيحةً، بليغةً، وأن يعتنوا بأدب العرب نثراً وشِعراً، وفي نظم القرآن مَبْنًى ومعنىً، بل هم أحوَج ما يكونون لهذا، ولا يُعذرون بالتقصير فيه.

طلب الوصية

وفي قولهم: «يا رسول الله كأنها موعظةٌ مودِّعٌ، فأوصنا» حرصٌ من الصحابة على العلم والمعرفة في الدين، وما ينجيهم عند ربهم، فبادروا إلى طلب الوصية، وما أكثر ما كان الصحابة يسألون النبي ﷺ أن يوصيهم، وأن يدلَّهم على الأعمال الصالحة. وقد استجاب النبي ﷺ لطلبهم، فأوصاهم بما أوصاهم به في هذا الحديث. وفي هذا دعوة للعلماء والدعاة بأن لا ييخلوا على أحد بوصيةٍ أو موعظةٍ يطلبها.

الوصية بالتقوى، والسمع والطاعة في المعروف

وأول ما أوصاهم به النبي ﷺ تقوى الله، فقال: «أوصيكم بتقوى الله» والتقوى اسم جامع لما يقي من عذاب الله وسخطه، وقد سلف الكلام عليها عند وصية النبي ﷺ في الحديث الثامن عشر: «اتقِ الله حيثما كنت».

(١) انظر «التفسير الكبير» لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الرِّيِّ (المتوفى: ٦٠٦هـ). دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ. ١٠/١٢٤.

ثم الوصية بطاعة أولي الأمر في قوله ﷺ: «والسمع والطاعة» لما فيه من الحفاظ على وحدة الأمة، وقيام جماعتها، واتفاق كلمتها، لأن السلطان في الإسلام يحوط المسلمين بالحفظ والرعاية في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، ملتزماً بإقامة الدين وأحكامه، وما دام كذلك فعلى المسلمين أن يسمعون له ويطيعوا. وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف»^(١). وفي قوله: «وإن تأمر عليكم عبد» إشارة إلى وجوب هذه الطاعة، بغض النظر عن الصفات الشخصية لهذا الحاكم، من حيث أصله ونسبه، ما دام يملك الأهلية للحكم متصفاً بالأمانة والقوة، وقد حدث في تاريخ المسلمين مثل هذا، وفترة حكم المماليك فترة حافلة بالجهاد والإنجاز الحضاري.

الاعتصام بالسنة عند اختلاف الأمة

وقوله ﷺ: «فمن يعيش منكم بعدي، فسرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضواً عليها بالنواجذ». هذا إخبارٌ منه ﷺ بما يقع في أُمَّته بعده من كثرة الاختلاف، ونشوء الفرق والأهواء والبدع، وما يتلو ذلك من قتال بين المسلمين، وقد وقع، وإن كان هذا الاختلاف لم ينل من أصول الدين، بل بقي الدين محفوظاً في مصادره وأحكامه، كما تركه رسول الله ﷺ.

وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث أن العصمة من آثار الافتراق والاختلاف، إنما تكون بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده. والسنة: هي ما صدر عن رسول الله من الأقوال والأفعال والصفات والإقرارات والإشارات، ويلحق بها أقوال الخلفاء الراشدين وأفعالهم. وفي هذا الحديث دليلٌ على أن سنة الخلفاء الراشدين سنة متبعة. وقد وصفهم النبي ﷺ بالرشد والهداية.

وفي قوله ﷺ: «عضوا عليها بالنواجذ». كناية عن شدة التمسك بها، والسير على هديها.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

التحذير من البدع

وفي قوله ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة» تحذير من أية إضافة يخترعها الناس، ويقحمونها في الدين، وينسبونها إليه، لا يشهد لها كتابٌ ولا سُنَّة، مما يخالف أو يزيد في أحكامه الثابتة، التي لا يدخلها التغيير، أو التبديل، أو الزيادة، أو النقصان، كالعقائد، أو العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق، أما ما كان له أصل شرعي معتبر فلا يدخل في حكم البدعة. والبدعة كما عرفها الإمام الشاطبي في كتابه «الاعتصام»^(١): «طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه».

وما يدخله التغير من الوسائل والأساليب فهذا فيه سعة، ولا يدخل في دائرة الابتداع. كاستخدام وسائل المواصلات والاتصالات المختلفة في حياتنا المعاصرة، وتطوير وسائل القتال والصناعة والزراعة والتجارة، والوسائل الطبية المعاصرة، وغير ذلك مما لا حصر له من الوسائل.

ولا يدخل في دائرة الابتداع تشكيل الجمعيات الخيرية، والمؤسسات الاجتماعية والأحزاب السياسية، والتكتلات الاقتصادية، والنوادي الرياضية. وما ينبثق عنها من وسائل تنظيمية لتحقيق أهدافها. شريطة أن تكون أهدافها ووسائلها مما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية.

وكذا لا يدخل في دائرة الابتداع الوسائل السلمية في التعبير عن الرأي سواء بالمقالات، أو الاعتصامات، أو المسيرات، أو المظاهرات، أو غيرها من وسائل التعبير المعاصرة.

وقد تقدم لنا شيء من التفصيل في معنى الابتداع عند الحديث الخامس من هذه الأربعين، وهو حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ».

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - بيان دور الموعظة وترقيق القلوب في تعليم الدين وتفهم أحكامه.
- ٢ - الحرص على أن تكون الموعظة جامعة وبليغة.
- ٣ - الحرص على طلب النصيحة والموعظة من أهل العلم والتقوى.
- ٤ - التأكيد في المواعظ على تقوى الله.
- ٥ - التأكيد على طاعة أولي الأمر ما أقاموا الدين وأحكام الشريعة في الأمة.
- ٦ - الاعتصام بسنة النبي ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده.
- ٧ - اجتناب البدع ومحدثات الأمور.
- ٨ - فيه توجيه للعلماء والدعاة أن يقتدوا بالنبي ﷺ في وعظ الناس، وترقيق قلوبهم، وتعليمهم أحكام دينهم.

الحديث التاسع والعشرون

أبواب الخير

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧].

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أَمُّكَ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ». رواه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

معاني الغريب

جُنَّة: وقاية.

مَلَاك: بكسر الميم وفتحها، قوام الشيء، ونظامه، وما يعتمد عليه.

حصائد اللسان: ما يلاقيه الإنسان من نتائج أقواله.

شرح الحديث

أهمية الحديث

تضمن هذا الحديث وصايا جامعة لأهميات فرائض الدين ومهماته، مما يُدخل الجنة ويباعد من النار، وفيه بيان أهمية الصوم، والصلاة، والصدقة، وقيام الليل، والجهاد في سبيل الله، وبيان خطر اللسان، والعمل على حفظه.

وفيه بيان حرص الصحابة على الجنة وشوقهم إليها، ومباعدتهم من النار وخوفهم منها. وفي الحديث تقدير سؤال السائل، وتخفيف الجواب عليه، واعتماد أسلوب الحوار، وتقريب المعاني بالأمثال.

دخول الجنة بالأعمال

وفي الحديث أن الأعمال سبب لدخول الجنة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. ولا يتعارض هذا مع قول النبي ﷺ: «ما من أحد يُدخله عمله الجنة» فقليل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمة»^(١). فإن من رحمة الله أن جعل الأعمال سبباً لدخول الجنة. وإلا فإن الأعمال بنفسها لا يستحق أحد دخول الجنة بها.

بين السائل والمسؤول

تضمن هذا الحديث حواراً بين النبي ﷺ ومعاذ بن جبل، سأل فيه معاذ عما يدخل الجنة، ويباعد من النار، فبادر النبي ﷺ إلى تعظيم هذا السؤال، وتقديره، وبيان أهميته، وفيه تعزيز لأهمية السؤال عن الدين، لا سيما أن هذا السؤال عما يتمناه كل مسلم، وهو ما يدخل الجنة.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يكثر من سؤال النبي ﷺ عن الأعمال وأفضلها، ونحو ذلك. مما يبين مدى اهتمام الصحابة بشؤون الدين، وما يصححون به أعمالهم، وقد أشرنا لهذا الموضوع مراراً من قبل^(١).

ومع تعظيم هذا السؤال فقد بين النبي ﷺ أن الأمر يسير، وأن الحرج مرفوع، وفيه طمأنة لمعاذ لما ينتابه من خوف على آخرته.

العبادة في الإسلام

ثم بين له النبي ﷺ أن أعظم الأعمال التي تدخل صاحبها الجنة هي توحيد الله وعبادته، والقيام بأركان الإسلام، وأداء فرائضه العظام. فبدأ بالصلاة، ثم الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج. وقد سلف الكلام عنها في حديث ابن عمر الثالث من هذه الأربعين. وبعد أن ذكر الأركان والفرائض، دله على أبواب الخير، فذكر له بعض نوافل هذه الفرائض، لما فيها من تعزيز لإصلاح الفرد، وتقوية إيمانه في الدنيا، وإصلاح ما نقص من الفرائض عند الحساب في الآخرة. وقد قال النبي ﷺ: «أول ما يُحاسب به العبد صلاته، فإن كان أتمها كُتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع، فتكملوا بها فريضته؟ ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»^(٢).

فبدأ بالصوم فقال له: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»: ومعناه أن الصوم وقاية للمسلم من النار، فالصوم يحد من شهوتي البطن والفرج، وهما من أكثر ما يدخل الناس النار، وقد وجه النبي ﷺ الشباب للصوم في حال عدم القدرة على الزواج، لما فيه من تهذيب للشهوة،

(١) انظر مثلاً الحديث السابق، والحديث التاسع، والحديث الثاني والعشرين، والحديث الخامس والعشرين.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٦١٤) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، وهو حديث صحيح.

والحد منها، فقال: «يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوّج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

ثم دله على الصدقة، فقال ﷺ: «والصدقة تُطفئ الخبيثة كما يطفئ الماء النار»، فالصدقة، تصلح نفس المتصدق فتطهرها من الشح، وتركها بالجود والإحسان، وتصلح المجتمع بالعلاقات الطيبة، وإشاعة المحبة والتآلف والتكافل، كما تصلح ما نقص من فرض الزكاة عند الحساب والميزان.

ثم ذكر له فضل قيام الليل، فقال ﷺ: «وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾»، لما فيه من تهذيب للنفس، بخلو المسلم مع ربه، واعترافه بذنوبه، واستغفار الله منها، ولما في قيام الليل من فضائل عديدة، فهو أفضل الصلوات بعد صلاة الفريضة، وأعظمها أجراً، وهو أقرب إلى الإخلاص، وصدق التوجه إلى الله. ولما فيه من زيادة في الخشوع والتضرع إلى الله. وهو شرف المؤمن، ومَظَنَّة إدراك أوقات الاستجابة، فالله جل وعلا يتنزل في الثلث الأخير من الليل، فيسأل هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ وقيام الليل سِمَة من سمات المحسنين، قال تعالى: ﴿نَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٧]. وبه يستدركون ما نقص من الفرائض عند الحساب والميزان.

رأس الأمر وعموده وذروة سنامه

ذكر هنا الإسلام وما يحفظ الإسلام، فبين أن غاية وجود الإنسان في هذه الحياة هي إقامة الإسلام في الأرض، ثم بين ما يحفظ الإسلام في قلوب الناس، وهو الصلاة، ثم بين ما يحفظ الإسلام في الأرض، وهو الجهاد في سبيل الله.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث أبي هريرة.

وهذا مما يدل على مكانة الصلاة في الإسلام، وتعزيز لما ذكره سابقاً في هذا الحديث من فضل الصلاة وفضل قيام الليل.

ومما يدل أيضاً على مكانة الجهاد في سبيل الله، وأنه ذروة سنام الإسلام، لما فيه من علو وتمكين للإسلام والمسلمين في الأرض. فذروة السنام هي أعلى شيء في الجمل بعد رأسه. فإذا كان رأس الأمر هو الإسلام، فإن أعلاه وأرفع مكان فيه هو الجهاد.

حفظ اللسان

ثم ختم النبي ﷺ بما يحافظ على هذه العبادات، بما يكون فيه قوامها ونظامها، أو ما يكون فيه خللها وفسادها، ألا وهو اللسان، فوصفه بملاك ذلك كله. واستخدم النبي ﷺ في بيان ذلك العبارة والإشارة، فأخذ بلسان نفسه وقال: كف عليك هذا.

وهذا اللسان هو مجمع الخيرات والطيبات، كما أنه مصدر المفسد والردائل والمعاصي. فما من عمل من خير أو شر إلا ولللسان فيه نصيب، كالتوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج والأذكار والدعاء وقراءة القرآن والدعوة إلى الله والإصلاح بين الناس، وغير ذلك من الخيرات.

وفي المقابل، فإن حصائد الألسنة هي أكثر ما يدخل الناس النار، من النطق بالكفر وبالباطل وبالظلم وشهادة الزور والنفاق والكذب والغيبة والنميمة، ومداينة الظالمين والمجرمين، وقلب الحقائق وتزويرها وتشويهها.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- فيه حرص الصحابة على الجنة وشوقهم إليها.
- ٢- وفيه حرصهم على التعلم والتزود بالمعرفة الشرعية.
- ٣- وفيه تنوع الخطاب من النبي ﷺ في الدعوة إلى الله، بالعبارة والإشارة والمثل.
- ٤- وفيه بيان مراتب الأعمال وأولوياتها. الفراض ثم النوافل.

٥- فيه بيان منزلة الإسلام، وما يحفظه في القلوب وهو الصلاة، وما يحفظه في الأرض وهو الجهاد.

٦- فيه بيان منزلة اللسان، ومكانته من الأعمال، وأنه سبب في دخول الجنة أو النار.

٧- فيه دعوة للعلماء والدعاة إلى الحرص على وعظ الناس وتعليمهم وإرشادهم إلى ما يرضي الله تعالى، وبيان مراتب الأعمال، ومنزلة كل منها، وتوجيه عناية الناس إلى أهمية التربية الروحية والإيمانية، وبيان أهمية الجهاد في سبيل الله، وأهمية الحفاظ على الألسنة من الزلل.

الحديث الثلاثون

كمال الإسلام وشموله ورحمته

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُسَنِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبَحَثُوا عَنْهَا». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ^(١).

التعريف بالصحابي راوي الحديث

أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه، اختلف في اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيراً، ولا يكاد يُعرف إلا بكنيته، روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث، منها في الصحيحين، وهو من أهل بيعة الرضوان، وأسهم له النبي ﷺ يوم خيبر، وأرسله إلى قومه فأسلموا. نزل الشام، وسكن دارياً. توفي وهو في الصلاة، ساجداً في جوف الليل، سنة خمس وسبعين للهجرة^(٢).

شرح الحديث

أهمية الحديث

يعد هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، فقد احتوى على أحكام الإسلام كلها، ولم يبق في الإسلام شيء إلا وقد دخل فيه، فالإسلام: واجب ومحرم ومسكوت عنه،

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤٣٩٦)، والطبراني في «الكبير» ٢٢١/٢٢ (٥٨٩)، و٣٦٣/٢٢

(٦٧٧)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» ٣١٤، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» ١٧/٩، وابن عبد البر

في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٠١٢)، وابن عساكر في «معجمه» (١٢٣٢).

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٥٦٧/٢، و«الإصابة في تمييز الصحابة» ٥٠/٧.

وحدود يجب حفظها. فأَيُّ تقصير في الواجبات، أو اقتراف للمحرمات، فقد تعدى على حدود الله تعالى.

قال أبو بكر بن السَّمعاني^(١): «هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين، قال: وحُكي عن بعضهم أنه قال: ليس في أحاديث رسول الله ﷺ حديث واحد أجمع بانفراده لأصول العلم وفروعه من حديث أبي ثعلبة، قال: وحُكي عن أبي واثلة المزني أنه قال: جَمَعَ رسول الله ﷺ الدين في أربع كلمات، ثم ذكر حديث أبي ثعلبة. قال ابن السَّمعاني: فمن عمل بهذا الحديث، فقد حاز الثَّواب، وأَمِنَ العقاب؛ لأنَّ من أدَّى الفرائض، واجتنب المحارم، ووقف عند الحدود، وترك البحث عمَّا غاب عنه، فقد استوفى أقسام الفضل، وأوفى حقوق الدين؛ لأنَّ الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث»^(٢).

الفريضة

بين النبي ﷺ أن الله تعالى فرض فرائض، وأمرنا بإتيانها على وجهها، والمحافظة عليها، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، والصدق والأمانة وبر الوالدين وصلة الرحم. ومن هذه الفرائض ما هو فرض عيني، ومنها ما هو فرض كفائي، فالعيني كالذي سبق ذكره، من الصلاة والزكاة والحج، والكفائي كطلب العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والعمل على تحرير المقدسات، وما احتل

(١) هو محمد بن منصور بن عبد الجبار التميمي السمعاني المروزي، أبو بكر: فقيه محدث، من الوعاظ المبرزين. له علم بالتأريخ والأنساب. وله كتب في الحديث والوعظ، منها (الأمالى) مئة وأربعون مجلساً، قال عنها السبكي: في غاية الحسن والفوائد. مولده ووفاته بمرور. سمع بنيسابور وبغداد وهمذان وأصبهان ومكة وغيرها. وهو والد (عبد الكريم) صاحب كتاب «الأنساب»، توفي سنة ٥١٠ للهجرة.

(٢) انظر «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٨١٩.

من بلاد المسلمين، والعمل على تحقيق بشائر انتصار الإسلام^(١)، وغيرها مما إذا قام به بعض المسلمين، وتحقق وجوده، سقط الإثم عن الباقيين.

بين الفرض والواجب

الفرض والواجب عند الجمهور من العلماء سواء، وهو ما كان طلبه على وجه الحتم والإلزام، والتفريق بينهما عند الحنفية هو من حيث الثبوت، فالفرض عندهم ما ثبت بدليل قطعي، والواجب ما ثبت بدليل ظني، وهو خلاف لفظي لا يترتب عليه مسألة علمية، فهما عند الجميع في الإلزام سواء، ويأثم تاركهما، ويدخلان في قوله ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض».

الحدود

وفي هذا الحديث بين النبي ﷺ أن هناك حدوداً في الشرع، لا يجوز تعديها، والمقصود بها هو ما أمر الله تعالى به أو نهى عنه، فلا يترك المسلم ما أمر به، ولا ينتهك ما حرّمه الله تعالى عليه. قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، وجاءت الآية في معرض النهي عن ارتكاب بعض محظورات الصيام والاعتكاف في المساجد، وفيها تسمية المحارم حدوداً، ومثله قول النبي ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ»^(٢) أراد بالقائم على حدود الله: هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وتسمى العقوبات المقدرة في الشرع حدوداً أيضاً، كجزاء الزنى، والسرقة، وشرب الخمر، والقذف، ومنه قول النبي ﷺ لأسامة حين أراد أن يشفع في قصة المخزومية التي سرقَت: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»^(٣).

(١) انظر كتابنا «الأربعون في فروض الأمة».

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة.

الحرام

وقد نهى النبي ﷺ في هذا الحديث عن انتهاك ما حرم الله تعالى، فقال: «وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَنْتَهَكُوهَا»، والحرام ما نهى الشارع عنه نهياً جازماً، ويأثم فاعله، ومن هذه المحرمات: الموبقات السبع، وعقوق الوالدين، والغيبة، والتجسس، ونقض العهد، والغدر، وموالات أعداء الله، والغلول، والاعتداء على المال العام، وغير ذلك كثير.

المسكوت عنه

وأما ما سكت عنه الشارع فهو كل شيء لم يرد في حكمه نص شرعي، سواء بالوجوب أو التحريم أو ما بينهما من الكراهة أو الندب، فيكون المسكوت عنه مباحاً لكثير من الأطعمة والأشربة والألبسة وغيرها من مرافق الحياة المختلفة. وأما ما يلحق بحكم شرعي، بقياس، أو استصحاب، أو غيرها من الأدلة الشرعية، فليس من باب المسكوت عنه، كالمخدرات، والدخان، وكل ما غلب ضرره نفعه من المأكولات أو المشروبات وغيرها، فهذه ملحقة بما قيس عليه في الحكم.

وفي قوله ﷺ: «رحمة لكم من غير نسيان» رفق وتوسعة ويسر ورفع حرج عن العباد، لكثرة المباحات في مقابل قلة المحرمات والواجبات. وهذا فيه رد على من يقول بأن الإسلام يحرم كل شيء، ويشدد على الناس. بل هو الرحمة المهداة، والنعمة المسداة التي من الله بها على البشرية جمعاء، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

البحث والتحري في المسكوت عنه

أما قوله ﷺ: «فلا تبحثوا عنها» هذا النهي يختص بعصر الرسالة، لما يغلب عليه من منهج التلقي وتنزل الأحكام على الناس، وفق منهج رباني قائم على الاستسلام لأمر الله تعالى، وكثرة السؤال تتنافى مع هذا المنهج.

أما البحث والتحري والتحقيق والسؤال عن الأحكام الشرعية فيما بعد، فهو واجب شرعي مأمور به، وباب الاجتهاد مفتوح في هذا لمن ملك أهليته من أهل العلم.

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١- أن هذا الدين كامل في أحكامه شامل لحاجات البشر.
- ٢- السؤال عن الأحكام الشرعية بعد عصر الرسالة واجب. أما في عصر الرسالة فالدين قائم على منهج التلقي.
- ٣- أحكام الإسلام قائمة على الرفق والرحمة ورفع الحرج.
- ٤- على الدعاة والعلماء أن يبينوا للناس محاسن الإسلام وسعته ورحمته ويسره، وأن يبينوا للناس الأحكام الشرعية فيما يستجد لهم من أمور الحياة المختلفة.

الحديث الحادي والثلاثون

المحبة ثمرة الزهد

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ». حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٤١٠٢) وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدٍ حَسَنَةٍ.

التعريف بالصحابي راوي الحديث

سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري، من بني ساعدة، من مشاهير الصحابة. وكان أبوه من الصحابة الذين توفوا في حياة النبي ﷺ. روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث، وهو من أهل المدينة، وآخر من مات فيها من الصحابة. كان اسمه حَزَنًا - وهو ما ارتفع من الأرض، أي: الصعب - فغيره النبي ﷺ إلى سهل، عاش نحو مئة سنة، توفي سنة ٧١ للهجرة^(١).

معاني الغريب

الزهد: قال الراغب الأصبهاني^(٢): الزَّهِيدُ: الشيء القليل، والزَّاهِدُ في الشيء: الرَّاغِبُ عنه، والرَّاضِي منه بالزَّهيد، أي: القليل. قال تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ٤٢٢/٣، و«الأعلام» للزركلي ١٤٣/٣.

(٢) «المفردات في غريب القرآن» أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ. ص ٣٨٤.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يحرص المسلم على نوعين من المحبة؛ محبة الله ومحبة الناس، ويعد هذا الحديث أصلاً في أسباب محبة الله للعبد، ومحبة الناس له. فجعل الزهد أساس هذه المحبة.

الزهد في الدنيا

أقام الإسلام التوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة على قاعدة الزهد، فقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، فبين سبحانه في هذه الآية أن الهدف الأسمى والأكبر هو تحقيق رضى الله تعالى في الدنيا والآخرة، فجعل العمل للآخرة أوسع مدى وأكبر، فدل ذلك على أن الدنيا تبع للآخرة ووسيلة إليها، وهي دار عمل للآخرة، وعمارتها من أجل عمارة الآخرة.

والعمل لتحقيق المتطلبات المختلفة من حاجات الإنسان الحياتية، من مأكل ومشرب وملبس وعمارة، مطلوب وفق شرع الله، لنيل رضاه. فيكون له فيه الأجر والثواب، إن قصد به رضى الله تعالى.

قال أبو سليمان الداراني: «اختلفوا علينا في الزهد بالعراق، فمنهم من قال: الزهد في ترك لقاء الناس، ومنهم من قال: في ترك الشهوات، ومنهم من قال: في ترك الشَّبَعِ، وكلامهم قريبٌ بعضه من بعضٍ، قال: وأنا أذهبُ إلى أنَّ الزُّهْدَ في ترك ما يشغلك عن الله عز وجل». قال ابن رجب: «هذا الذي قاله أبو سليمان حسن، وهو يجمعُ جميعَ معاني الزُّهْدِ وأقسامه وأنواعه»^(١).

فالمقصود بالزهد في الدنيا والتقلل منها في هذا الحديث هو تجنب ما حرمه الله تعالى منها، وما خالف شرعه فيها، وأن لا يشغلك طلبُ الدنيا وعمارتها عن ذكر الله

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٨٦٥.

وعبادته، والقيام بما فرضه الله عليك. وليس عمارة الأرض بما يصلحها ويصلح أحوالها وأحوال الناس فيها مما يتنافى مع الزهد، بل هو من المطلوب وفق شرع الله، فبناء المصانع، واستثمار الثروات، وزراعة الأرض، وتبادل التجارات، ونشر الدعوة الإسلامية، والجهاد في سبيل الله، وطلب العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحكيم شرع الله، إنما يبتغي المسلم في كل ذلك الدار الآخرة، ولا يريد علواً في الأرض ولا فساداً، وحياته كلها لله سبحانه وتعالى، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وفي المقابل نرى البعض قد تستغرقه الحياة الدنيا ومطالبها والسعي فيها عن القيام بواجباته الدعوية، فيبالغ في طلب الدنيا والاستزادة منها على حساب ذلك، والمطلوب من المسلم أن يضحي من وقته وماله وجهده ونفسه في سبيل الله، لما يترتب على هذه التضحية من نشر للدين، وتمكين له، وإعزاز للأمة.

قال الإمام حسن البنا رحمه الله^(١): «وأريد بالتضحية: بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاداً لا تضحية معه، ولا تضحية في سبيل فكرتنا تضحية، وإنما هو الأجر الجزيل والثواب الجميل، ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ...﴾ الآية [التوبة: ٢٤]».

وعلى كل حال فالمسلم يعمل في حياته الدنيا، ويجعل الآخرة بين عينيه، يعمل لأجلها، لتحصيل مرضاة الله فيها، لذلك كان من دعاء النبي ﷺ وهو يعلم المسلمين، حيث يقول: «ولا تجعل الدنيا أكبر همًّا ولا مبلغ علمنا»^(٢).

(١) في «الرسائل» رسالة التعاليم، أركان البيعة، ص ٢٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وهو حديث حسن.

ما يُمدَح من الدنيا وما يذم

وفيما ورد عن النبي ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالمٌ أو متعلمٌ»^(١) بيان لما يحمد من الدنيا، ولا يتعارض مع الزهد فيها، فالدنيا لا تذم بذاتها بما فيها من أشياء، إنما الذي يُمدح منها أو يذم هو أعمالُ الناس فيها، فما وافق الشرع فيها كان ممدوحاً وطيباً، وما خالفه كان مذموماً وخبيثاً، وقولُ النبي ﷺ: «إلا ذكر الله وما والاه» دل على ذلك. ويدخل فيه كلُّ ما جاء به الشرع من الأقوال والأعمال المشروعة.

الزهد فيما في أيدي الناس

تقوم العلاقات بين الناس في الدنيا على التنافس والمُشاحَّة والآثرة وحُبِّ التملك والتنازع على الأشياء، وقد تَنَكَّبَت البشرية طريق الحق والعدل في تنظيم هذه العلاقات، حيث نظرت إليه على أنه صراع طبقي، فاشتقت له حُلُولاً أدت إلى أن تطغى طبقةٌ على طبقة أخرى، أو فئة على فئة أخرى، بينما جاء الإسلام بنظامٍ اقتصادي عادلٍ شاملٍ، يعترف بهذا التنافس، لكنه يُوجهه ويضبطه بضوابط الحق والعدل، المبني على التوازن بين الحقوق والواجبات، والمغارم والمغانم.

وفي هذا الصدد يوجه هذا الحديث المسلم إلى الزهد فيما في أيدي الناس، بمعنى أن يتخلَّص من الحسد والطمع والجشع والآثرة، والحرص على تحصيل ما ليس له فيه حق.

لذا حرم الإسلام السرقة والقمار والربا والغش والغرر والنَّجش وكلَّ ما فيه أكل أموال الناس بالباطل. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْنُوا

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١١٢)، والترمذي (٢٤٧٥)، وإسناده حسن.

بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٨٨﴾. وقال سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. وفي الحديث: « لا تَنَاجَشُوا، ولا تَحَاسَدُوا»، زاد في رواية مسلم: «ولا تنافسوا»^(١). قال النووي^(٢): «المنافسة والتنافس معناهما الرغبة في الشيء، وفي الانفراد به، ونافسته منافسة إذا رغبت فيما رغب فيه، وقيل معنى الحديث: التباري في الرغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها».

أما التحاسد: فهو تمني زوال النعمة عن الغير، وأن تنتقل إليه. وأما النجش: فهو رفع الأسعار عند المزايدة، لا بغرض الشراء، وإنما بغرض التغيرير بالمشتريين.

ولا يدخل في هذا كله السعي لنيل الحقوق من أيدي مغتصبيها، وإعادتها إلى أصحابها، كما لا يدخل فيه محاربة الفساد، وكشف الفاسدين الذي سَطَوْا على أموال الناس بالباطل.

ومن الزهد فيما في أيدي الناس الزهد في المناصب والرياسات والألقاب، على أن لا تُترك لمن ليس لها بأهل. وقد قال النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(٣). أي ليس هناك ما هو أفسد لدين المسلم من حرصه على المال وحرصه على الجاه والمنصب. فإذا تخلص المسلم من هذه الأمور نال حب الناس ورضاهم.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة. وانظر الحديث الخامس والثلاثين من هذه الأربعين.

(٢) انظر «شرح النووي على مسلم» ١١٩/١٦.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤)، والترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك، وإسناده صحيح.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- بيان حرص الصحابة على الجمع بين محبة الله تعالى، ومحبة الناس.
- ٢- الزهد في الدنيا سبب في محبة الله ومحبة الناس. وهو الحرص على الالتزام، والتقيد بما شرع الله تعالى، وعدم الانشغال بالدنيا عن الآخرة.
- ٣- على الدعاة والعلماء الزهد في الدنيا، والتضحية بالمال والوقت والجهد والنفس في سبيل نشر الدعوة، والتمكين لدين الله في الأرض.
- ٤- وعلى الدعاة أيضاً الزهد في المناصب والألقاب، كي يكتب لهم القبول، ويُسمع لهم.

الحديث الثاني والثلاثون

لا ضرر ولا ضرار

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ وَالدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُمَا مُسْنَدًا ، وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلًا ، فَأَسْقَطَ أَبُو سَعِيدٍ ، وَلَهُ طُرُقٌ يَقْوَى بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ^(١) .

التعريف بالصحابي راوي الحديث

هو أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان، الإمام، المجاهد، مفتي المدينة، شهد الخندق، وبيعة الرضوان. وحَدَّثَ عن النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر. وكان أحدَ الفقهاء المجتهدين. رَدَّه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُدٍ لصغرِ سنه. فقد كان عمره ثلاث عشرة سنة. توفي في المدينة سنة أربع وسبعين للهجرة ^(٢) .

معاني الغريب

لا ضرر ولا ضرار: قيل: هما بمعنى واحد، وقيل: الضرر هو إلحاق مفسدة بالغير، بغير حق، والضرار هو مقابلة الضرر بالضرر، والحق في ذلك هو بالتزام الشرع. فمعاينة الجاني مثلاً فيه إلحاق الضرر به بحق.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠) من حديث عبادة بن الصامت، و(٢٣٤١) من حديث ابن عباس، ولم يخرج من حديث أبي سعيد الخدري. وأخرجه الدارقطني (٣٠٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري. وأخرجه مالك مرسلاً (٢٧٥٨) عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ١٦٨/٣. و«الأعلام» للزركلي ٨٧/٣.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

قال أبو داود السجستاني: يدور الفقه على خمسة أحاديث، وذكر منها هذا الحديث. فهو حديث جامع، وقاعدة ثابتة من قواعد الفقه الإسلامي يُبنى عليها كل ما يغلب فيه الضرر.

بل يعد هذا الحديث مدار الأحكام الشرعية بكليتها، فليس من حكم شرعي إلا وفيه مصلحة للإنسان على هذه الأرض، وكل ما يخالف هذه المصلحة ففيه ضرر.

ويقوم الإسلام الحياة الإنسانية على فعل الخير وترك الشر، قال تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. فكل ما فيه خير ففيه النفع، وهو مطلوب. وكل ما فيه شر ففيه مفسدة وضرر، وهو مردود.

القواعد الفقهية في هذا الباب

ولذلك بنى علماء الأصول والفقه كثيراً من الأحكام الشرعية على جملة من القواعد الفقهية المبنية على هذا الحديث، مثل قاعدة: الضرر يزال، وقاعدة: الضرر يدفع بقدر الإمكان، وقاعدة: الضرر لا يزال بمثله، وقاعدة: الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف، وقاعدة: درء المفسد أولى من جلب المنافع. وغيرها.

من صور النهي عن المضارة

في هذا الحديث توجيه إسلامي عظيم في المحافظة على المقاصد الخمسة لهذا الدين، وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العقل، وحفظ النسل. وكل ضرر غالب يقع على مقصد من هذه المقاصد فإنه يزال.

فيُمنع الإنسان أن يوقع الضررَ على نفسه، أو على غيره، معنوياً أو مادياً، على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات والدول، فكل ما يغلب ضرره نفعه يحرم فعله، وتلزم إزالته، كما يلزم التعويض عنه أحياناً، فلا يجوز تعاطي المُسكرات، أو المخدرات، أو كل ما يضر البدن ضرراً غالباً، ولا يجوز إيذاء الجار، أو الشريك، أو غيرهما بصورة من الصور.

كما لا تجوز المضارة في الوصية، فقد قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢] فقد يضر الموصي في وصيته إذا وصى لوارث، أو زاد على الثلث لغير الوارث. إلا أن يأذن الورثة.

وكذا في الرجعة في النكاح: قال تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١] قد يضر الرجل بها إذا طلقها، ثم أرجعها قريباً من انتهاء العدة، ثم يطلقها، ثم يرجعها مرة أخرى عند اقتراب انتهاء العدة، وما يقصد بذلك إلا تطويل العدة عليها للإضرار بها.

وفي الرضاع قال تعالى: ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودُ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي: لا يجوز له أن يمنع أمه من إرضاع ولدها فيحزنها ويضرها. وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودُ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي: أن تضر المطلقة والد الطفل بأن تطالب بنفقة الإرضاع زيادة عن الحاجة المقدرة، أو أن تمنعه من رؤية ولده، أو غير ذلك.

ومن الصور المعاصرة في المضارة وأثرها السيء ذلك التعدي على الحقوق الفكرية في تأليف الكتب والأبحاث، والاعتداء على براءات الاختراع، وكلها حقوق خاصة يمنع الإسلام الاعتداء عليها، ويأمر بإزالة الضرر الواقع عليها، ويحكم بالتعويض المناسب.

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١- تحريم الضرر وإيقاعه على الآخرين.
- ٢- الحكم بإزالة الضرر وإيقاع العقوبة، أو التعويض المناسب إن لزم الأمر.
- ٣- تحريم مقابلة الضرر بالضرر إلا بالحق.
- ٤- على العلماء والدعاة بيان حكمة الإسلام في تشريعاته المبنية على تحقيق مصالح الناس، ومنافعهم. كما يجب عليهم العمل على محاربة الفساد، وجميع صور الاعتداء على الأبدان والأموال وغيرها من مصالح الناس.

الحديث الثالث والثلاثون

البينة على المدعي واليمين على من أنكر

عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ». حديثٌ حسنٌ، رواه البيهقي وغيره هكذا، وبَعْضُهُ فِي الصَّحِيحِينَ (البخاري ٤٥٥٢، ومسلم ١٧١١).

معاني الغريب

البينة: هي ما يبين الحق ويظهره بالدليل، بالشهادة، أو القرينة، أو الخبرة، وغيرها.
اليمين: في اللغة: القُوَّة، وفي الشرع: تقوية أحد طرفي الخبر، بذكر الله تعالى على وجه القسم.

شرح الحديث

أهمية الحديث

هذا الحديث أصل عظيم من أصول المحاكمات، وفض الخصومات، ورد المظالم، وتحصيل الحقوق، وإشاعة السلام والوئام بين الناس، وتأكيد مبدأ العدالة والمساواة في القضاء.

خطر العلاقات بين الناس

العلاقة بين البشر قائمة على المُشَاحَةِ والمُنَازَعَةِ، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ»، أي: لو ترك العلاقات بين الناس لمجرد الدعاوى، هذا يدعي على هذا، وهذا على ذاك، لتعرضت أموال

الناس وأعراضهم ودمائهم لخطر الضياع والاعتداء، ولعادت البشرية إلى شريعة الغاب، فجاء هذا الحديث ليضبط هذه الدعاوى، وينظم العلاقة بين الطالب والمطلوب. فألزم أصحاب الادعاء بالبيّنات، وإقامة الحجة على صحة دعاواهم. وفي المقابل ألزم المدعى عليه باليمن في حالة الإنكار.

البيّنات

ألزم النبي ﷺ كل مُدَّعٍ بحق على آخر أن يثبت حقه بالبيّنة، والبيّنة ما تقوم به الحجة وتظهر، وعلى رأس البيّنات الإقرار بالحق، وهو أن يعترف المدعى عليه بالحق لصاحبه، وهو سيد الأدلة لأنه يُعفي المدعي من إقامة البيّنة على دعواه.

ومن البيّنات التي تثبت بها الدعوى الشهادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وهي من أقوى أدلة الإثبات، ولها صور متعددة، وأحكام كثيرة، لا مجال لتفصيلها في هذا المقام.

ومنها كذلك القرينة الدالة على الحق، وهي ما يدل على المراد من غير كونه صريحاً، أو هي كل أمانة ظاهرة تقارن شيئاً خفياً وتدل عليه، وهي مأخوذة من المُقارنة بمعنى الموافقة والمصاحبة^(١).

وهناك أدلة إثبات حديثة توصل إليها الإنسان من خلال الاختراعات والتقدم الصناعي، كاستعمال البصمة بأنواعها، بصمة اليد، أو الوجه، أو العين، واستخدام الـ (DNA) كإثبات في بعض القضايا المتعلقة بالبصمة الوراثية، واستخدام الأجهزة الإلكترونية في الكشف عن الجرائم الإلكترونية وغيرها، وفي كل ذلك لا بد من اعتبار الخبرة والتخصص في إثبات الأدلة.

(١) انظر «المدخل الفقهي العام» لمصطفى أحمد الزرقاء، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة السابعة، ١٩٦٣. ٢/٩١٤.

وفي الجملة فإن هذا الحديث قد نظم إجراءات التقاضي بين المتخاصمين، وأقامها على الدليل والبرهان والحجة، ولم يتركها لتحكم الناس وأهوائهم. وقلل من الدور الشخصي للقاضي، وبناه على الترجيح بين الأدلة. ولا يتعداه إلى الحكم بعلمه، إلا في نطاق ضيق، على خلاف بين العلماء في ذلك.

لماذا طلبت البينة من المدعي

وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث أن المطالب بالإثبات هو المدعي، لأنه يدعي شيئاً خفياً على خلاف الظاهر، وعلى خلاف الأصل، فلا بد له من إثبات قوي لدعواه، ولولا ذلك لكان من السهل أن يدعي كل أحد أموال الآخرين، ويعتدي على أعراضهم ودمائهم.

اليمين على المدعى عليه

وفي حال لم يستطع المدعي إثبات دعواه ببينة من هذه البينات، فإن الأمر يرجع إلى المدعى عليه، فيلزم باليمين، ويحكم له بها، وفي حال نكوله عنه، يُحكم للمدعي بدعواه. وللعلماء في هذا تفصيل واسع يرجع إليه في مظأنه. وفي حلف اليمين لرد الدعوى، مبدأ إسلامي عظيم في الحفاظ على الحق، ولا حرج فيه على المدعى عليه، وإلا فنكوله عن اليمين يحسب عليه.

من أخلاق المسلمين

يؤكد هذا الحديث على جانب التوثيق واستحضار البينات والأدلة على كل دعوى، فلا يجوز للمسلم أن يُلقي بالتهم جُزافاً، دون بينات تُصدّق دعواه، سواء ذلك على المستوى الفردي أو الجماعي.

وأولى الناس بهذا العلماء والدعاة، فيلزم الداعية أن لا يتكلم كلمة أو يتصرف تصرفاً إلا وبين يديه من المُستندات ما يؤيد كلامه، وهذا مما يُقوي حجته وبيانه. ويكون موضع تقدير الناس واحترامهم.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحديث يدعو المسلم إلى الصدق والأمانة في أقواله وأفعاله، ويدعوه إلى التثبت في تلقي الأخبار ونقلها. فما أكثر ما يشيع بين الناس في هذه الأيام التقارير والدراسات الكاذبة، حول كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسة، التي تدع الناس في حيرة من أمرهم.

وكذلك يدعو هذا الحديث إلى الحرص على التزام الحلال، وتجنب الحرام من أموال الناس وأعراضهم ودمائهم. فقد يكون المدعي من أصحاب البيان وقوة الحجة، فيأكل مال أخيه بغير حق. وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا»^(١). وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١ - إقامة العدل وصيانة الحقوق ورفع الظلم.
- ٢ - طلب البينة على كل دعوى، سواء بالشهود، أو القرائن، أو بالإقرار، أو غيرها من الأدلة.
- ٣ - إلزام المدعى عليه باليمين لإثبات حقه في حال انتفاء الأدلة.
- ٤ - النكول عن اليمين يثبت الحق للمدعي.
- ٥ - على العلماء والدعاة أن يسلكوا طريق التوثيق بالبينات في أقوالهم وأفعالهم، وأن يُعلِّموا الناس كيفية تحصيل الحقوق بالطرق الشرعية الصحيحة.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

الحديث الرابع والثلاثون

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». رواه مُسْلِمٌ (٧٨).

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يعد هذا الحديث قاعدة من قواعد التغيير في الإسلام، حيث يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة كفائية على المسلمين، كل قدر وسعه وطاقته، قال ابن دقيق العيد^(١): «إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر. ثم إنه قد يتعين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده على منكر ويقتصر». قلنا: وذلك فيما يتعلق بالإنكار باليد أو اللسان، أما الإنكار بالقلب فهو ممكن لكل أحد في كل حال.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة للمسلمين، وقد سلف حديث «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قلنا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، وهو الحديث السابع، وانظر تنمة الكلام عليه هناك.

(١) انظر «شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية» لتقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)، مؤسسة الريان الطبعة السادسة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. ص ١١٢.

قال الإمام النووي رحمه الله^(١): «واعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيّع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاؤه، وإذا كثر الخبث عمّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أو شك أن يعمهم الله بعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].»

قصة للحديث

ورد في رواية للحديث عند مسلم^(٢) عن أبي سعيد، قال: «أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أمّا هذا، فقد قضى ما عليه، ثم روى هذا الحديث.

وقد جاء في حديث آخر اتفق عليه البخاري ومسلم، وأخرجاه في باب صلاة العيدين^(٣): أن أبا سعيد هو الذي جذب بيد مروان، أو بثوبه حين أراد أن يصعد المنبر، فردّ عليه مروان بمثل ما ردّ هنا على الرجل، فيُحتمل أنهما قضيتان. قال ابن حجر^(٤): «ولا بُعد في أن يُنكر عليه تقديم الخطبة على الصلاة مرّة بعد أخرى، ويدلّ على التغيّر أيضاً أن إنكار أبي سعيد وقع بينه وبينه، وإنكار الآخر وقع على رؤوس الناس».

(١) انظر «شرح على مسلم» ٢/ ٢٤.

(٢) برقم (٧٨) (٤٩).

(٣) عند البخاري برقم (٩٥٦)، ومسلم برقم (٨٨٩) عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلّى، فأول شيء يبداً به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم، ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف. قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك، حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلّى إذا منبر بناء كثير بن الصلّ، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يُصلّي، فجبذت بثوبه، فجبذني، فارتفع فخطب قبل الصلاة فقلت له: غيّرتم والله، فقال: أبا سعيد، قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير ممّا لا أعلم، فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلتها قبل الصلاة.

(٤) «فتح الباري» ٤/ ٢٦.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد

وقد عدَّ النبي ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاداً، لما يلاقيه المسلم في ذلك من العنت والمشقة، والمناوأة والإيذاء، وقد يصل به الحال إلى الاعتقال، أو التضييق عليه بالرزق، أو السفر، أو ربما يصل الأمر إلى القتل. ففي حديث ابن مسعود، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «ما من نبيٍّ بعثه الله في أمةٍ قبلي، إلا كان له من أمتِّه حوارِثون وأصحابٌ يأخذون بسُنَّتِهِ، ويقتدون بأمرِهِ، ثمَّ إنَّها تخلفُ من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدْهم بيده، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدْهم بلسانه، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدْهم بقلبه، فهو مؤمنٌ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبةٌ خردلٍ»^(١).

من ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان عالماً بما يأمر وينهى، ولا يشترط فيه أن يكون صاحبَ ولاية عامة، أو أن يكون من العلماء. كما لا يشترط فيه أن يكون كامل الحال خالياً من الآثام، وإن كان يتعين عليه أن يلتزم شرع الله في نفسه أولاً، قبل أن يعمل على التغيير في غيره. ولا يأمر أو ينهى في الأمور المختلف فيها، إلا على سبيل النصيحة في حدود الرِّفق واللين.

ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وإن كان يظن أنه لا يُقبل منه، بل عليه البلاغ، وإقامة الحجة، وليس عليه القبول، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

(١) أخرجه مسلم (٧٩).

لا يمنعه من الأمر أو الإنكار خشيةُ كلام الناس، أو وقوعُ الأذى منهم باللسان، أو باليد، أو الأذى من ذي سلطان. ويبقى التقدير حسب حال الأمر والمأمور والمقام والمصلحة المتوخاة، فقد قال النبي ﷺ: «لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقِّ إِذَا رَأَاهُ أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ»^(١).

كما لا يمنعه من ذلك صداقة أو قرابة أو منفعة شخصية، بل إن ذلك كله يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكد وأولى.

وعليه أن يراعي الرفق في الأمر والنهي، فهو أدعى إلى الاستجابة وتحصيل المطلوب.

أما مسألة السر أو العلن في الأمر والنهي فيراعي الحال في ذلك، فإن تطلب الأمر السر في السر، وإن تطلب العلانية في العلانية، لا سيما إذا كان المنكر شائعاً وضرره على العامة، كالفواحش الظاهرة، والمعاهدات الجائرة، والفساد العام الإداري والمالي والأخلاقي.

لكن إن كان المنكر من أفراد الناس مقتصرًا على آحادهم، فيتعين السر في الأغلب الأعم، قال الإمام الشافعي: من وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه^(٢).

الإنكار بالقلب

قال ابن رجب^(٣): «فدلَّت هذه الأحاديثُ كُلُّها على وُجوبِ إنكارِ المنكر بحسبِ القدرة عليه، وأنَّ إنكارَه بالقلب لا بدَّ منه، فمن لم يُنكر قلبه المنكر، دلَّ على ذهابِ الإيمانِ من قلبه».

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم ١١٤٩٨، وهو حديث صحيح، وهو الحديث العاشر من «الأربعون في فروض الأمة». وانظر تمة كلامنا عليه والتفصيل فيه هناك.

(٢) انظر «شرح النووي على مسلم» ٢٤ / ٢.

(٣) انظر «جامع العلوم والحكم» ٢٤ / ٢.

قال ابن دقيق العيد^(١): «قوله: وذلك أضعف الإيمان» معناه - والله أعلم - أقله ثمرة.

قال عليّ: إنّ أول ما تُغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه المعروف، ويُنكر قلبه المنكر، نُكِسَ فجُعِلَ أعلاه أسفله^(٢).

وفي هذا العصر غلب المسلمون على الجهاد بأيديهم، فاحتلت بلادهم وديست مقدساتهم، وسلبت أموالهم وثرواتهم، وانتَهكت أعراسهم، بل أصبح جهاد الأعداء ومقاومتهم إرهاباً، والدفاع عن المقدسات تطرّفاً. مقابل ذلك زجت جيوش المسلمين في معارك داخلية، لا طائل من ورائها، بل تفتت في عضد الإسلام والمسلمين. والأنكى من ذلك أن يوجه سلاح هذه الجيوش إلى صدور أبناء الأمة من الأبرياء المسالمين.

أما اللسان فقد حُجِر عليه وضيّق، حتى صار الناس يحاسبون على كل كلمة يقولونها، أو يكتبونها، أو يُصرّحون بها، وضيّق على العلماء والدعاة في منابرهم المختلفة في المساجد والجامعات والفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، وها هي المعتقلات تزخر بالعلماء والدعاة من أصحاب الكلمة الحقة، والنصيحة الصحيحة المخلصة. وفي مقابل ذلك تُفتح الأبواب أمام كل ناعق من أتباع الظلمة والطغاة، يزينون لهم أفعالهم، ويسوّغونها، ويلبسونها لباس التقوى والصلاح، ويقلبون الحقائق فيجعلون الحق باطلاً، والباطل حقاً. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أما أن يُغلب المسلمون على قلوبهم، فلا ينكرون المنكر فيها، ولا يعرفون المعروف، فهذا أخطر ما يمكن أن يصل إليه حال المسلمين.

(١) انظر «شرح النووي على مسلم» ٢/ ٢٤.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٣٥)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٣٧٥٧٨).

لكننا والحمد لله نشهد بأن هناك أمة من المسلمين لم تُغلب على جهادها، وهي صابرة قائمة على أمر الله، لا تخشى في الله لومة لائم، تقاوم المحتل بكل ما أوتيت من قوة، رغم الحصار والتضييق المضروب عليها من القريب قبل البعيد.

وكذلك هناك أمة من الدعاة والعلماء أخذت على عاتقها الصدع بالحق، وكشف زيف الباطل، تُجاهد بالكلمة كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

أما إنكار المنكر بالقلب فلا نعلم من هذه الأمة إلا خيراً، حيث إن الناس بالجُملة يحبون الإسلام وأهله، ويُبغضون الكفر وأهله، ويعرفون المعروف ويحبونه، وينكرون المنكر ويمقتونه، رغم الحرب الإعلامية الهائلة على الأفكار والمعتقدات والمواقف والأعمال الصالحة.

وصدق رسول الله ﷺ القائل: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(١).

المسلمون بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكما بدأ هذا الإسلام غريباً في مكة، في فجر البعثة، حيث كان المنكر هو الأعم والأغلب في العقائد والمعاملات والأخلاق، وحيث كان الباطل ذا صولة وجولة، ولا يكاد يُذكر الحق وأهله، وكان الإسلام محصوراً في عدد قليل من أصحاب النبي ﷺ، الذين يَسْتَخْفُونَ في عبادتهم وحضورهم في ذلك المجتمع الجاهلي. فإنه في مثل هذه الأحوال يكون المطلوب تغليب جانب المعروف، والأمر به، وتحبيب الناس به.

ثم بدأت هذه الغربة تزول شيئاً فشيئاً، حيث شاع المعروف، ونادى به أصحاب النبي ﷺ في قبائلهم وأسواقهم، وبدأ الناس يستجيبون لهذا المعروف، وفي كل ساحة

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان.

يتقدم فيها المعروف، كان ينحسر فيها المنكر، إلى أن كانت الهجرة، فقامت دولة الإسلام، وأصبح للمعروف سلطانه وقوته ونظامه وقيادته، فانتشر المعروف في كل زاوية من زوايا المجتمع المسلم في المدينة، وبات المنكر مهجوراً مدحوراً. وفي هذه الأحوال يُغلب جانب إنكار المنكر، لكون المنكر خارجاً عن أخلاق المجتمع وشريعته.

ومنذ مئة سنة أصاب المجتمع الإسلامي ما أصابه من سُقوط خلافته، وانفراط عقد دولته، وظهور المُنكرات والفساد في نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي، وأصبحت المنكرات هي السائدة، ولها سلطان من خلال القوانين والأنظمة والتشريعات ودوائر التنفيذ، وفي هذه الحال عاد الإسلام غريباً كما بدأ، وأصبح من لوازم التغيير أن تُوسّع دائرة المعروف، حتى يعرفه الناس، ويقتنعوا به، ويقبلوا عليه، وتستخدم في سبيل ذلك وسائل الإصلاح القديمة والحديثة في شتى المجالات، وهذا ما فعلته الدعوة الإسلامية المعاصرة، بما نشرته من فكر إسلامي صحيح، وما قامت به من إرشاد الناس إلى الخير، وتربيتهم على هدي هذا الدين، وقد نجحت بفضل الله تعالى، فاتسعت دائرة المعروف، وبدأت دائرة المنكر بالانحسار.

المسلم لا يمل من تكرار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وعلى منهج القرآن في تكرار الوعد والوعيد، والأمر والنهي، في كثير من القضايا التي تهم المسلمين في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم، فإن المسلم يتخير من الطرق المختلفة في بث المعروف ونشره، وإنكار المنكر وردّه، وتكرار ذلك بأساليب ووسائل شتى، مع اليقين بأنه في كل مرة يغرس غرساً، ويحدث في قلوب الناس نقلة، ويبني عليها في كل مرة، حتى تنضج الفكرة، وتؤتي ثمارها على خير ما يرام.

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الأمة، التي يقوم عليها هذا الدين.
- ٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب، أقلها الإنكار بالقلب، وهو أضعف الإيمان، وليس بعد ذلك شيء من الإيمان.
- ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد.
- ٤- المسلم لا يمل من تكرار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٥- المجتمعات غير المسلمة يُغلب فيها الأمر بالمعروف، وأما المجتمعات المسلمة فيُغلب فيها النهي عن المنكر.
- ٦- على العلماء والدعاة أن يقوموا بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتبار أنه أخص واجباتهم، وأن لا يخشوا في ذلك لومة لائم.

الحديث الخامس والثلاثون

آفات الأخوة بين المسلمين

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا»، - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ». رواه مسلم (٢٥٦٤).

معاني الغريب

لا تناجشوا: النجش: قال ابن الأثير: هو أن يمدح السلعة لينفقها ويروجها، أو يزيد في ثمنها، وهو لا يريد شراءها، ليقع غيره فيها. والأصل فيه: تنفير الصيد من مكان إلى مكان ليتمكن من اصطياده.

شرح الحديث

أهمية الحديث

جمع النبي ﷺ في هذا الحديث عدداً من الآفات الاجتماعية، التي تفسد الأخوة الإسلامية، فبين خطرهما، وجعل التقوى علاجهما. فكلما ازدادت التقوى في قلوب المؤمنين ضعفت هذه الآفات.

ولما كان ضرر هذه التصرفات يهدد الناس في أموالهم وأعراضهم، فقد أكد النبي ﷺ على حرمتها.

آفة التحاسد

الحسد آفة قلبية محرمة، منشؤها الحرص والطمع وحب الدنيا. وأصل الحسد تمنى زوال النعمة عن الغير، وقد يسعى الحاسد إلى تحويل هذه النعمة إلى نفسه، أو يسعى إلى زوالها فحسب، دون أن تنتقل إليه، وكلاهما بغي وظلم منه لأخيه المسلم. وقد جاء النهي عن الحسد في القرآن الكريم، حيث أمرنا الله تعالى بالاستعاذة منه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. وقد ذم اليهود بسبب حسدهم، حين قال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فهم يتمنون زوال نعمة الإيمان عن المسلمين، وأن يعودوا إلى الكفر، وهذا أشنع أنواع الحسد.

وللحسد أسباب منها: العداوة والبغضاء، وحب الرياسة وطلب الجاه، وخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، وغيرها^(١).

ودواؤه كما قال الغزالي: «اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضررٌ عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك، فارقت الحسد لا محالة»^(٢).

وقد سمى النبي ﷺ الغبطة حسداً من باب الاستعارة، فقال: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ: فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَهُوَ يُهْلِكُهُ

(١) انظر «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» لمحمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق مأمون محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م. ص ٢١٤.

(٢) انظر «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» ص ٢١٥.

في الحق، فقال رجلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ^(١). فهذا تمنى ما عند غيره من الخير، وأن يؤتیه الله مثله، دون زواله عنه، وسماه العلماء غبطة، وهو أمر لا يضر صاحبه، بل هو مباح ومطلوب.

آفة التناجش

النجش هو أن يزيد في سعر السلعة لا لشرائها، وإنما لإغراء المشتري فيها، وهو نوع من الغرر والخداع، المنهي عنه شرعاً، وإنما شرع الإسلام منع مادة الغش والخداع، وأقام العلاقات التجارية على النصيحة والرحمة والعدل، وأن يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، فلا يغشه، ولا يخدعه. لذلك نهى النبي ﷺ عن الغش والخداع، فقال: «من غشنا فليس منا»^(٢). وفي التناجش إثارة للتباغض والتحاسد والتقاطع بين المسلمين، وإفساد للأخوة بينهم.

آفة التباغض

الأصل في العلاقة بين المسلمين أنها قائمة على الأخوة والمودة والحب في الله، وقد امتن الله على المؤمنين حين قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقد نهى النبي ﷺ عن بغض المسلمين بعضهم لبعض، والتباغض هو ما يضمره المسلم لأخيه المسلم من الضغينة والكراهة.

وقد ورد في القرآن الكريم أن الشيطان يسعى بين المسلمين في إثارة العداوة والبغضاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١].

(١) أخرجه البخاري (٨٠٢٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة.

وكلما شاعت المحبة والمودة بين المسلمين كانوا بذلك أهنأ عيشاً، وأهدأ بالاً، وأكثر اطمئناناً.

أما بغض أهل المعاصي والمنكرات المصرين على منكراتهم، ولا يستجيبون لنصح من ينصحهم، ودعوة من يدعوهم إلى الله، فهو أمر محمود، مع السعي في هدايتهم وإرشادهم والرفق بهم، والدعاء لهم بصلاح الحال.

آفة التدابر

والتدابر هو الهجران والمقاطعة، مأخوذ من الدُّبُر، وهو أن يولي دبره لأخيه. وقد جاء في رواية أخرى: «ولا تقاطعوا»^(١).

وقد نهى النبي ﷺ عن المقاطعة فوق ثلاث ليال، حيث قال: «لا يحلُّ لرجل أن يَهْجُرَ أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيُعْرِضُ هذا ويُعْرِضُ هذا، وخيرُهما الَّذي يَبْدَأُ بالسَّلام»^(٢).

وقد يكون الهجران مشروعاً فوق ثلاث ليالٍ، إذا كان لسبب متعلق بالدين والأخلاق والعقائد، من ارتكاب الفواحش والموبقات وكبائر الآثام. وقد هجر النبي ﷺ والصحابة الكرام الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك.

أما ما يقع بين الأقارب والأرحام والأصحاب والجيران من خلاف على أمور دنيوية، وما يحصل بين الدعاة والعلماء من خلاف على أمور تحتل الاجتهاد والرأي والنظر، ويؤدي هذا إلى التقاطع والهجران، فهذا كله مذموم ومنهي عنه. وقد يَأْثُم صاحبه.

(١) أخرجه مسلم (٢٣) من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

آفة البيع على البيع

وصورة ذلك أن يأتي المشتري بعد أن تم عقد البيع، فيقول له: افسخ هذا العقد، وأنا أبيعك بثمان أقل، أو سلعة أجود من هذه السلعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو أن يأتي إليه في مرحلة التراضي، وقبل أن يتم العقد، فيقول له ذلك. وهذا كله حرام شرعاً.

وقد جاء النهي عن هذه الآفة في كثير من الأحاديث منها ما رواه مسلم^(١) من حديث عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ، قال: «المؤمنُ أخو المؤمنِ، فلا يحلُّ للمؤمن أن يبتاعَ على بيع أخيه، ولا يخطبَ على خطبة أخيه، حتى يذَرَ». فضم إليه في هذه الرواية تحريم الخطبة على الخطبة، علماً بأن الخطبة لا تعدو كونها وعداً بالزواج.

وفي هذا السلوك ما فيه من آثار سيئة على العقود واضطرابها، والعلاقات الاجتماعية من تباغض وتحاسد وتدابير.

آفات تطعن بالأخوة

ثم بين النبي ﷺ في هذا الحديث علة النهي عن هذه الآفات، وهي التنافي بينها وبين الأخوة، أي: كونوا إخوة في الله واجتنبوا كل ما يخل بهذه الأخوة. وفيه أمر بالمحافظة على حقوق الأخوة جميعها.

ثم ذكر مطاعن وآفات أخرى تخل بهذه الأخوة، وهي الظلم والخذلان والكذب والاحتقار.

أما الظلم فهو محرم قطعاً في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد سبق لنا الكلام فيه عند الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(٢).

(١) برقم (١٤١٤).

(٢) وهو الحديث الرابع والعشرون من هذه الأربعين.

وأما الخذلان فهو تخلي المسلم عن نصرته أخيه المسلم، وإغاثته، وتقديم العون له في مصيبتته، سواء كانت مصيبة بسبب الكوارث الطبيعية، أو بسبب اعتداء وقع عليه من الآخرين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

وما تخلي الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية عن إخوانهم في فلسطين وسوريا والعراق واليمن، وغيرها من بلاد المسلمين، والسكوت على حصارهم، وتجويعهم، ومعاناتهم، إلا مثلاً صارخاً على خذلان الأخ لأخيه، والله المستعان.

وأما الكذب، فقد حرمه الإسلام، وجعله من آفات الأخوة، فقد أمر المسلمين بالصدق فيما بينهم، فقد جاء في الحديث: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقاً، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً»^(١).

وأما احتقار المسلم للمسلم فهو أسوأ الأخلاق التي يرتكبها المسلم، فلا استعلاء والكبر من أكثر الآفات إفساداً للعلاقات الاجتماعية بين المسلمين، فالإنسان بفطرته يُغض ويكره من يستعلي عليه. فكيف به إذا أضاف إلى ذلك الاستكبار الاستصغار والإذلال والاحتقار.

وقد يكون هذا الاحتقار بسبب نزعة جاهلية من لون، أو عرق، أو بلد، أو شهادة علمية، أو مال، أو جاه، وكل ذلك مُحَرَّم شرعاً، لما فيه من الأذى والإفساد للعلاقات الأخوية بين المسلمين.

وقد جعل النبي ﷺ الاحتقار من أعظم صور الشر، حين أعاد التأكيد عليه في هذا الحديث، فقال: بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، أي: أنه لو لم يقترب إلا هذه الآفة لكفاه شراً وسوءاً.

(١) أخرجه: البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود.

التقوى أساس العلاقات بين المسلمين

ثم وجه النبي ﷺ الأمة إلى أساس الفضائل والأخلاق الكريمة، التي تقوم عليها حياة المجتمع الصالح، وهي التقوى^(١)، فقال: «التَّقْوَى هَاهُنَا»، - ويُشِيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ - «يَحْسَبُ امْرِئٌ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ». فالأتقياء يجتنبون هذه الآفات كلها، ويحافظون على أخوة الإسلام ومودته، لذلك أعقب النبي ﷺ هذه الإشارة بتحريم مال المسلم ودمه وعرضه على المسلم. وهي من مقاصد الشرع الخمسة، فينضاف إليها حفظ الدين والعقل.

أما تحريمُ المال، فلا يعتدي على مال أخيه، ولا يأخذه إلا بطيب نفسٍ منه، لذلك حُرِّمَت السرقة، والربا، والغَرَر، والغش في البيع، والميسر، وغير ذلك من المكاسب المحرمة في الشرع.

وأما دم المسلم على المسلم فهو حرام بنص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بأي صورة من الصور، سواء بالقتل أو بالجرح، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وأما حفظ عرض المسلم فهو من أكد حقوقه، لذلك حرم الغيبة، والنميمة، والطعن في الأنساب، وقذف المحصنات، والافتراء بالباطل. وأما تزوير الحقائق وقلبها، واتهام العلماء والدعاة وزجهم بالسجون والمعتقلات فهي من أشد المنكرات التي يقترفها الظلمة والطغاة.

وهذه الحقوق الثلاثة جاء التأكيد عليها في خطبته ﷺ يوم النحر، حين قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(٢).

(١) انظر الحديث الثامن عشر من هذه الأربعين، عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكر.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - المحافظة على الأخوة بين المسلمين.
- ٢ - اجتناب ما يطعن في الأخوة من آفات، من التحاسد والتناجش والتباغض والتدابير، وغيرها.
- ٣ - تحريم الاعتداء على مال المسلم ونفسه وعرضه.
- ٤ - التأكيد على أن التقوى هي أساس العلاقات بين المسلمين وعلاج آفات هذه العلاقات.
- ٥ - أولى الناس بالمحافظة على حقوق الأخوة واجتناب آفاتهم الدعاة والعلماء، وأن يعملوا على نشر الأخوة والمحبة بين المسلمين، وإصلاح ذات البين، وإشاعة ذلك.

الحديث السادس والثلاثون

الطريق إلى الجنة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا جَلَسَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ.

وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» رواه مسلم.

معاني الغريب

نَفَسَ: خَفَّفَ.

كُرْبَةً: قال ابن رجب^(١): «هي الشَّدَّةُ العظيمة التي تُوقِعُ صاحبَهَا في الكَرْبِ، وتنفيسُهَا أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ مِنْهَا، مأخوذٌ مِنْ تنفيسِ الخناق، كَأَنَّهُ يُرَخَّى لَهُ الخناق حَتَّى يَأْخُذَ نَفْسًا، والتفريجُ أعظمُ مِنْ ذَلِكَ، وهو أَنْ يُزِيلَ عَنْهُ الكُرْبَةُ، فتتفرج عنه كُرْبَتُهُ، ويزول همُّهُ وغمُّهُ، فجزاءُ التَّنْفِيسِ التَّنْفِيسُ، وجزاءُ التَّفْرِيجِ التَّفْرِيجُ».

(١) في «جامع العلوم والحكم» ٣/ ١٠٠٤.

شرح الحديث

أهمية الحديث

جمع هذا الحديث بين أمور ثلاثة، تعد من أسباب دخول الجنة: الأول: إعانة المسلم لأخيه المسلم بصور شتى، والثاني: طلب العلم ومدارسته، والثالث: العمل الصالح أساس المفاضلة بين المسلمين.

الإعانة

أقام الإسلام العلاقة بين المسلمين على التعاون والتكافل، لذا كثرت الآيات والأحاديث في هذا الشأن، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقد سلف في هذه الأربعين^(١) قول النبي ﷺ: «وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةً»، فعد إعانة المسلم لأخيه المسلم من الصدقة، وقد أوردنا هناك حديث: «كل معروف صدقة»^(٢). وجاء في هذا الحديث قول النبي ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» بعد أن ذكر ثلاث صور من صور الإعانة: تنفيس كربات المسلمين، والتيسير على المعسرين، وستر عورات المسلمين.

التفريع على المكروبين والمُعسرين

خلق الله تعالى هذه الحياة وجعلها دار ابتلاء، فما أكثر ما يصيب المسلم فيها من المكاره، فقد يصاب في أهله وماله ونفسه، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]،

(١) وهو الحديث الخامس والعشرون.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة.

وهو في كل ذلك بحاجة إلى أخيه المسلم ومواساته، والتخفيف عنه من كرباته. فجعل النبي ﷺ هذا النوع من الإعانة والتنفيس سبباً من أسباب تنفيس الكربات في المحشر يوم القيامة، وهو من سبل دخول الجنة.

وقد خص النبي ﷺ الإعسار بالذكر لأهمية التيسير فيه، وجعله النبي ﷺ سبباً في التيسير في الدنيا، وأعظم من ذلك ما سيلقاه هذا المحسن عند ربه يوم القيامة. وقد لمس الناس ذلك كثيراً في حياتهم الدنيا، بأن يسّر الله تعالى حياة الذين يسعون في إعانة المسلمين، والمشى في حاجاتهم، والتيسير عليهم.

ومن صور التيسير على المعسرين، تأجيل سداد الدين، والصبر عليهم، بل حث الله تعالى الدائنين على الصدقة على المدينين من أجل تفريج كُرْبَتِهِمْ. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. قال ابن كثير: يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي، وإما أن تُربّي. ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعدّ على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين.

وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان تاجرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فإذا رأى مُعْسِراً قال لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١).

وقد جعل الله تعالى المعسرين والغارمين من أهل الزكاة، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ﴾ الآية [التوبة: ٦٠].

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٨)، مسلم (١٥٦٢).

ستر عورات المسلمين

ومما أمر الإسلام به في المحافظة على أعراض المسلمين، وحسن العلاقات الاجتماعية فيما بينهم، هو ستر عوراتهم، فيما يقعون فيه من أخطاء، أو ذنوب غير مجاهرين فيها، مع القيام بواجب النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن التشريعات التي سنّها الإسلام التي تأتي في السياق نفسه، تحريم الغيبة والنميمة، فعن أبي بَرزّة، عن النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتَّبَعَ عوراتهم يَتَّبِعِ اللهُ عورته، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عورته يفضحه في بيته»^(١).

وفي الستر عليه إعانة له على طاعة الله، والرجوع عن الذنب الذي اقترفه، وإبقاء على الحياء في نفسه، فلا يتمادى في المعصية ولا يجاهر بها. وقد جعل الله تعالى جزاء الستر من جنسه، فيستر الله عورة من ستر على أخيه في الدنيا والآخرة.

طلب العلم ومدارسته

والسبب الثاني من أسباب دخول الجنة في هذا الحديث هو طلب العلم، ومدارسته، وأن مجرد سلوك الطريق إلى العلم، وبذل الجهد في ذلك، فإنه يكون سبباً في دخول الجنة. وطلب العلم فريضة من فرائض الأمة، التي لا بد من تحقيقها والعمل على تسهيلها للناس، وقد تناولنا هذه الفريضة في كتابنا «الأربعون في فروض الأمة»، وبيننا هناك أدلته وأهميته ومجالاته.

أما مُدارسة العلم، فقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث أهميته وجزاءه، فوجه المسلمين إلى مدارس القرآن، تلاوةً، وتدبراً، وفهماً، فهو دستور الأمة، والأساس

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠)، وإسناده حسن.

الذي تُبنى عليه العلوم، حيث هو الضابط لها، والمُوجِّه، والمُرشد، يبين ما يحلُّ، وما يحرم، وذلك فيما حواه من قواعد وأصول وكميات عامة تضبط الحياة كلّها، وتوجهها وترشدّها إلى الصراط القويم. فرتبّ الجزاء على مدارسته، بقوله ﷺ: «نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَخَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ». فإله من جزاء. أمّا السكينة، فهي الطمأنينة والهدوء وسكون النفس، وهي نعمة من الله، يجدها المؤمن في قلبه، والرحمة نعمة أخرى، تصحب المؤمن في حله وترحاله، وفي دنياه وآخرته، والأعظم من هذا كله، أن الله تعالى يذكرهم في الملائكة الأعلى.

العمل الصالح ميزان التفاضل

ختم النبي ﷺ هذا الحديث بلفت النظر إلى أن أساس المفاضلة بين الناس هو عملهم الموافق لشرع الله تعالى، والمبني على تقوى الله ومخافته. وليس التفاضل بالأحساب والأنساب والعشائر والقبائل، وقد بدأ النبي ﷺ ذلك بنفسه وعشيرته، وأنه لا يُغني عنهم من الله شيئاً، ففي الصحيحين^(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، سَلِّبِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً».

وقد بين الله تعالى في كتابه العزيز أنه خلق الناس شعوباً وقبائل، وأمرهم بالتعرف على أنسابهم وعشائرهم كي يصلوا أرحامهم، وفي هذا بيان لدور العشيرة ومكانتها في الإسلام، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

(١) البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٣٤٨).

وَقَبَائِلَ لِّتَعَارَفُوا ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ مَدَارُ التَّفَاضُلِ وَالتَّكْرِيمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١ - يدعو هذا الحديث إلى سلوك طريق الجنة بالتعاون، وطلب العلم، والأعمال الصالحة.
- ٢ - من صور التعاون فيما بين المسلمين: تنفيس الكربات، والتيسير على المعسرين، وستر العورات.
- ٣ - سلوك طريق طلب العلم سبب من أسباب دخول الجنة.
- ٤ - الحث على مدارس القرآن وفهمه وتدبره. وهو الأساس في طلب العلم.
- ٥ - العمل الصالح هو ميزان التفاضل بين الناس.
- ٦ - هذا الحديث يقدم برنامجاً اجتماعياً دعوياً للعلماء والدعاة يصلون من خلاله إلى قلوب الناس، لتوجيههم وإرشادهم، وقد يكون ذلك من خلال الجمعيات الخيرية، والتعاونية، والمدارس، والجامعات، والمساجد.

الحديث السابع والثلاثون

سعة فضل الله

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن الله - عز وجل - كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة، فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة، فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها، فعملها كتبها الله سيئة واحدة». رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

معاني الغريب

كتب الحسنات والسيئات: أي: قدر جزاء الحسنات والسيئات.
الهم: قال ابن حجر^(١): «الهم: ترجيح قصد الفعل، تقول: هممت بكذا، أي: قصدته بهمتي، وهو فوق مجرد خُطُور الشيء بالقلب». قلنا: وهو دون العزم والإصرار على الفعل.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

هذا الحديث عنوان على سعة فضل الله تعالى ورحمته بعباده، حيث ضاعف الحسنات أضعافاً كثيرة لمن عمل بها، ولم يضاعف السيئات، وجازى على الهم بالحسنة حسنة، وعلى الهم بالسيئة أيضاً حسنة لمن لم يعملهما.

(١) في «فتح الباري» ٢٠ / ٢٠٠.

قال ابن بطّال^(١): «في هذا الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة، لأنّه لو لا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنّة، لأنّ عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم الحسنات، ويُؤيّد ما دلّ عليه حديث الباب من الإثابة على الهمّ بالحسنة، وعدم المؤاخذه على الهمّ بالسيئة، قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قلنا: والاكْتِسَاب هو القيام بالعمل، لذلك قوله: «وعليها ما اكتسبت» دل على عدم المؤاخذه على الهم بالسيئة.

جزاء الحسنات

من فضل الله تعالى على عباده أن ضاعف لهم الحسنات، إذا عملوا بها ابتغاء رضوانه سبحانه وتعالى، فقد قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقد تزيد الحسنات عن العشر إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، وقد قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وفي حق الصابرين والصائمين لا حدّ لها، الله يعلمها: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقد قال النبي ﷺ: «كلُّ عمل ابن آدم يُضاعف: الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، قال الله عز وجل: إِلَّا الصَّيَامَ، فإنّه لي، وأنا أجزي به» فلا يعلم أجر الصيام ومضاعفته إلا الله.

ولمضاعفة الحسنات عند الله تعالى أسباب كثيرة، دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، منها: حُسن إسلام المرء، وكمال إخلاصه لله تعالى في عمله، ومنها فضل الزمان كصيام يوم عرفة وعاشوراء، وفضل ساعة الجمعة، وفضل العمل في العشر من ذي الحجة وغيرها، وفضل المكان، كفضل المساجد الثلاثة، ومنها قيمة العمل وعظمته كالجهاد في سبيل الله، وصدقة السر، والصلاة، والصيام، والقيام، والحج،

(١) انظر «فتح الباري» ٢٠/٢١٢.

وغيرها، وكلّما تعدى فضلُ العمل من فرد إلى أفراد، ومن زمان إلى أزمنة، ومن مكان إلى أمكنة زاد الأجر، وكذا كلما كانت الحاجةُ إليه أشدّ وأعم، وأكثر فائدة للناس، كان الأجر والثواب أكثر.

الهم بالحسنات

ومن سعة فضل الله تعالى أنه لا يضيع أجر المحسنين، حتى لو لم يفعلوا الحسنات، بل هموا بها، فحسب، فإنه يكتبها لهم حسنة كاملة.

والهم المقصود في هذا الحديث إنما «هو العزم المصمّم، الذي يوجد معه الحرص على العمل، لا مجرد الخطرة التي تخطر، ثم تنفسخ من غير عزم ولا تصميم»^(١). وقد دل على هذا حديث خريم بن فاتك: «مَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها، فعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ قد أشعرها قلبه، وحرَصَ عليها، كتبت له حسنة»^(٢).

أما قوله: «كتبها الله عنده حسنةً كاملةً» قال النووي^(٣): «وقوله: «عنده» إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله: «كاملة» للتأكيد، وشدة الاعتناء بها، وقال في السيئة التي هم بها، ثم تركها «كتبها الله عنده حسنة كاملة» فأكد بها بكاملة، «وإن عملها كتبها سيئة واحدة» فأكد تقليلها بواحدة، ولم يؤكد بها بكاملة، فلله الحمد والمنة، سبحانه لا نحصي ثناء عليه، وبالله التوفيق».

جزاء السيئات والهم بها

ومن رحمة الله بعباده وفضله أن خفف عليهم، فجعل جزاء السيئة سيئة واحدة، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» ٣/ ١٠٤٣.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٠٣٥)، وابن جبان (٦١٧١)، والحاكم ٢/ ٨٧. بإسناد حسن.

(٣) في «شرحه على الأربعين النووية» ص ١٠١.

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن جعل جزاء الهم بالسيئة دون العزم عليها والإصرار على المعاودة إليها، فإنه يكتبها له حسنة كاملة.

العزم والإصرار على المعصية

فإذا عزم القلب عليها واستقر فإنه يؤاخذ بها، قال النووي^(١): «وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] الآية. وقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرت نصوص الشرع، وإجماع العلماء على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين، وإرادة المكروه بهم، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها، والله أعلم».

وقال ابن الجوزي^(٢): إذا حدث نفسه بالمعصية لم يؤاخذ، فإن عزم وصمم زاد على حديث النفس، وهو من عمل القلب. قال: والدليل على التفريق بين الهم والعزم أن من كان في الصلاة فوقع في خاطره أن يقطعها لم تنقطع، فإن صمم على قطعها بطلت.

قال السبكي الكبير: «الهاجس لا يؤاخذ به إجماعاً، والخاطر - وهو جريان ذلك الهاجس - وحديث النفس لا يؤاخذ بهما للحديث المشار إليه، والهم - وهو قصد فعل المعصية مع التردد، لا يؤاخذ به لحديث الباب، والعزم - وهو قوة ذلك القصد، والعزم به، ورفع التردد - قال المحققون: يؤاخذ به»^(٣).

أما إذا ارتكب معصية، ولم يتب منها، ثم عزم على العودة إليها، مصرّاً على ارتكابها، فإنه يكتب عليه سيئة الإصرار، فإذا ارتكبها كتب عليه سيئة أخرى. أما إذا

(١) في «شرح على مسلم» ١٥١/٢.

(٢) انظر «فتح الباري» ٢٠/٢٠٨.

(٣) انظر «فتح الباري» ٢٠/٢٠٨.

تاب منها، وعزم على ألا يعود إليها، ثم عاد إليها، فإنه يكتب عليه سيئة واحدة. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ يَنْجِبْهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

من أسباب تعظيم السيئة

وقد يعظم جزاء السيئة تبعاً لشرف المكان أو الزمان أو الحال، أما المكان كمن يعصي الله تعالى في البيت الحرام، أو المسجد النبوي، أو بيت المقدس، أو في أي مسجد، أو في مكة، أو في المدينة. وأما الزمان كمن يعصي الله تعالى في الأشهر الحرم، أو يوم عرفة، وأما الحال، كالصائم، أو العالم. فكل ذلك من دواعي طاعة الله واجتناب نواهيه. فالسيئة فيها قد تعظم، لكن لا تضاعف، والله أعلم.

قال ابن حجر^(١): «وقد استثنى بعض العلماء وقوع المعصية في الحرم المكي^(٢)، قال إسحاق بن منصور: قلت لأحمد: هل ورد في شيء من الحديث أن السيئة تكتب بأكثر من واحدة؟ قال: لا، ما سمعت إلا بمكة لتعظيم البلد. والجمهور على التعميم في الأزمنة والأمكنة، لكن قد يتفاوت بالعظم، ولا يرد على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، لأن ذلك ورد تعظيماً لحق النبي ﷺ، لأن وقوع ذلك من نسائه يقتضي أمراً زائداً على الفاحشة، وهو أذى النبي ﷺ».

ترك السيئة لأجل الله

ولا تكتب الحسنه على الترك إلا بعد القدرة عليها، ثم يتركها لأجل الله تعالى، وظاهر هذا الحديث أن كتابة الحسنه لمن هم بها ولم يعملها إنما هو لمجرد الترك، لكنه

(١) انظر «فتح الباري» ٢٠ / ٢١١.

(٢) أي: استثنى أن تكتب واحدة، بل تضاعف.

جاء مقيداً بإخلاص النية لله تعالى في رواية أبي هريرة عند البخاري^(١)، ولفظه: «إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكْتُبْوها له بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكْتُبْوها له حسنة». وفي رواية عند مسلم^(٢): «إنما تركها من جراي» أي: من أجلي.

وقال الخطَّابِيُّ^(٣): «مَحَلُّ كتابة الحسنة على التَّرك أن يكون التارك قد قَدَرَ على الفعل، ثم تَرَكَه، لأنَّ الإنسان لا يُسَمَّى تاركاً إلاَّ مع القُدرة، ويدخل فيه مَنْ حال بينه وبين حرصه على الفعل مانعٌ». قلنا: كمن أراد أن يسرق، فحال بينه وبين السرقة باب محكم، فلا يسمى تاركاً، لعدم القدرة.

أهم ما يرشد إليه هذا الحديث

- ١ - فيه سعة فضل الله تعالى في كتابة الحسنات والسيئات. حيث إن الله تعالى ضاعف الحسنات ولم يضاعف السيئات.
- ٢ - يفتح هذا الحديث باب الرجاء للمؤمن. بل قد غلب عنده باب الرجاء على باب الخوف.
- ٣ - فيه تعظيم الله تعالى والإخلاص له في ترك السيئات.
- ٤ - فيه عدم المؤاخذه على الهَمِّ بالسيئة، ما لم تصل إلى حد العزم والإصرار.
- ٥ - يرشد هذا الحديث الدعاة والعلماء إلى فتح باب الأمل والرجاء في دعوتهم للناس.

(١) برقم (٧٥٠١).

(٢) برقم (٢٠٣ / ١٢٨).

(٣) انظر «فتح الباري» ٢٠ / ٢٠٧.

الحديث الثامن والثلاثون

دفاع الله عن أوليائه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فإِذَا أَحَبَّهُتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِذَنَّهُ». رواه البخاري^(١).

معاني الغريب

ولي الله: المراد به المؤمن التقي، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، قال ابن حجر^(٢): «المراد بولي الله: العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته». قلنا: وولايته سبحانه له: تأييده، والدفاع عنه، ونصرته.

آذنته بالحرب: أي: أعلمته، وأعلنت عليه الحرب.

(١) في صحيحه برقم (٦٥٠٢) وقد تكلم البعض في صحة هذا الحديث، لأجل بعض من تُكلم فيه في إسناده، لكن منهج البخاري فيما قاله كثير من العلماء، هو الانتقاء من صحيح حديث هؤلاء المتكلم فيهم. وبذلك يكون الحديث صحيحاً. انظر كتاب «إسماعيل بن أبي أويس ومروياته في صحيح البخاري» للدكتور هيثم عبد الغفور، الآثار الشرقية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠١١.

(٢) انظر «فتح الباري» ٢٠/٢٣٩.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

في هذا الحديث بيان كرامة المؤمن عند الله تعالى، وأن من عاداه فقد عادى الله تعالى، ثم بيان ولاية الله للمؤمن، وأسبابها، وآثارها.

إعلان الحرب من الله على أعداء أوليائه

بدأ هذا الحديث بإعلان الحرب من الله تعالى على أعداء أوليائه، فقال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ». وقدم هذه الحرب على ذكر النصر لأوليائه، لما في ذلك من شدة التهديد والوعيد لمن يعادون أولياء الله. ولما فيه من مواساة لأوليائه وشفاء لصدورهم.

قال الفاكهاني^(١): «ومعنى الأذان: الإعلام. والحرب: المحاربة والقتال، وهذا من التهديد في الغاية القصوى، لأن من حاربه الله تعالى أهلكه إهلاكاً، وهو من المجاز البليغ إذ لا يتصور محاربة الله تعالى، وكأن المعنى فيه المعاندة والمخالفة والكراهة لمن أحبه الله تعالى ضرورة كون الولي محبوباً لله تعالى، ومن كره ما أحبه الله تعالى فقد خالف الله وعانده... وإذا ثبت هذا في جانب المعادة ثبت العكس في جانب الموالاتة».

أسباب ولاية الله للمؤمنين

تقوى الله تعالى هي السبب الرئيس في محبة الله تعالى للمؤمنين، وولايته لهم، لا سيما وأنها ذكرت صفة لأوليائه في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، وذكر الله تعالى في هذا الحديث أن أحب الأعمال إليه هي التقرب إليه بما فرضه على عباده، سواء أكانت هذه

(١) انظر «المنهج المبين في شرح الأربعين» عمر بن علي الفاكهاني المالكي ٧٣١ هـ، تحقيق شوكت ابن رفاقي بن شوكت، دار الصميعي، الرياض، ط ١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م. ص ٥٣٥.

الفروض عينية، أم كفائية، ثم التقرب إليه بالنوافل . فإذا امتثل العبد المؤمن أوامر الله تعالى، واجتنب ما نهاه عنه، كان من الأتقياء الذين يستحقون ولاية الله لهم .

قال الطوفي^(١): «الأمر بالفرائض جازم، ويقع بتركها المعاقبة، بخلاف النفل في الأمرين، وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب فكانت الفرائض أكمل، فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى، وأشدّ تقريباً، وأيضاً فالفرض كالأصل والأُس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر، واحترام الأمر، وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية، وذُلُّ العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل، والذي يؤدّي الفرائض، قد يفعله خوفاً من العقوبة، ومؤدّي النفل لا يفعله إلا إيثاراً للخدمة، فيجازى بالمحبة، التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته» .

وقال ابن هبيرة^(٢): «قوله: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه»، فإنه يشير إلى ألاّ تُقدّم نافلة على فريضة. وقوله: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»، فإذا أحببته»، لأن التقرب بالنوافل يكون تلو أداء الفرائض، بدليل أنها ذكرت بعد ذكر الفرائض، يعني إذا أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك إلى أن يحبه الله» .

(١) هو سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين: فقيه حنبلي، من العلماء. ولد بقرية طوف، أو طوفا، من أعمال صرصر: في العراق، وتوفي في الخليل بفلسطين سنة ٧١٦ للهجرة. وانظر «فتح الباري» ٢٠/ ٢٤١.

(٢) هو يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر، عون الدين، من كبار الوزراء في الدولة العباسية. عالم بالفقه والأدب. له نظم جيد. ولد في قرية من أعمال دُجيل بالعراق، توفي ببغداد سنة ٥٦٠ للهجرة. انظر كتابه «الإفصاح عن معاني الصحاح» المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ. ٣٠٣/٧.

قال ابن حجر^(١): «وأيضاً فقد جرت العادة أن التَّقَرُّبَ يكون غالباً بغير ما وَجَبَ على المتقَرِّب، كالهديَّة والتَّحْفَة، بخلاف مَنْ يُؤَدِّي ما عليه من خَرَجٍ، أو يقضي ما عليه من دينٍ».

نصرة الله تعالى لأوليائه

وقوله تعالى في هذا الحديث: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...» مجاز وكناية عن شدة قربته تعالى من عبده، وعنايته به، وتأنيده ونصرته له.

قال ابن حجر^(٢): «قال الخطابي: هذه أمثال، والمعنى: توفيق الله لعبده في الأعمال التي يُبَاشِرُهَا بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه عن مُوَاقَعَة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النَّظَرِ إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البَطْشِ فيما لا يحل له بيده، ومن السَّعي إلى الباطل برجله. وإلى هذا نَحَا الدَّأُوودِيّ، ومثله الكَلَابَاذِيّ، وعَبَّرَ بقوله: أَحْفَظُهُ، فلا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي مَحَابِّي، لَأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فيما يَكْرَهُهُ منه».

استجابة الله تعالى لدعاء أوليائه

وفي قوله سبحانه وتعالى في آخر هذا الحديث: «وَلَمَّا سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَمَّا اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَّنَّهُ» زيادة فضل من الله تعالى لأوليائه المتقين، بأن يستجيب دعاءهم، وأن يحقق آمالهم، فيما طلبوا وسألوا.

لذا كان من صفات هؤلاء وخصالهم الحميدة أنهم يلجؤون إلى الله تعالى في صغير الأمور وكبيرها، ويعوذون به في الأزمات والملمات، ورد كيد الأعداء. فالدعاء ملجأ الأتقياء، بعد استفراغ وسعهم، يرفعون شكواهم إلى الله تعالى في صلواتهم، وسائر أوقاتهم.

(١) انظر «فتح الباري» ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) انظر «فتح الباري» ٢٠/ ٢٤٤.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - أولياء الله تعالى هم المؤمنون الأتقياء .
- ٢ - تهديد الله تعالى ووعيده لأعداء أوليائه . وإعلان الحرب عليهم .
- ٣ - أعظم أسباب نصره الله تعالى لأوليائه تقواهم له ، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، والحرص على أداء ما افترض عليهم ، والتطوع بنوافل العبادات .
- ٤ - توفيقُ الله تعالى لأوليائه ، وحفظ جوارحهم ، وعصمتهم من الوقوع فيما يكرهه سبحانه من المعاصي .
- ٥ - استجابة الله تعالى لدعاء أوليائه ، واستعانتهم به سبحانه .
- ٦ - فيه بشارة للدعاة والعلماء بحفظ الله تعالى لهم ، وحربه لأعدائهم ، ليواصلوا مسيرتهم في الدعوة إلى الله ، وقول الحق ، لا يخافون في الله لومة لائم .

الحديث التاسع والثلاثون

أحوال رفع الإثم

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ». حديثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه (٢٠٤٥)، وَابَيْهَقِي (٦/ ٨٤ و ٧/ ١٥٦)، وَغَيْرُهُمَا.

معاني الغريب

الإكراه: هو إجبار إنسان على فعل شيء ما مع انتفاء اختياره وإرادته.

شرح الحديث

أهمية الحديث

هذا الحديث أصل عظيم في رحمة الله تعالى في رفع الإثم عمن وقع في عمل دون قصد، وهو مما أطلق عليه «عيوب الإرادة»، وهي الخطأ، والنسيان، وما استكره عليه.

رحمة الله تعالى بعباده

قال تعالى: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) النساء (٢٨)، ومن ضعفه كثرة الخطأ والنسيان، فكان من رحمة الله تعالى بعباده أن رفع عنهم الحرج والمشقة، فقد جعل الله تعالى مدار المؤاخذة في الأقوال والأفعال على القصد والنية، فكل عمل عار عن هذا لا مؤاخذة فيه، ولا إثم عليه، كالنائم والناسي والمجنون والمغمى عليه والمخطئ والمكره، وهذا الحديث دليل على ذلك، فلا يؤاخذهم بالنسيان، أو الخطأ الذي يقع منهم، أو ما أكرهوا على فعله، ولا يُحْمَلُهم وزر تلك الأعمال.

قال ابن رجب^(١): «والأظهر - والله أعلم - أنَّ الناسي والمخطئ إنما عُفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما، لأنَّ الإثم مرتَّبٌ على المقاصد والنيَّات، والناسي والمخطئ لا قصدَ لهما، فلا إثمَ عليهما، وأمَّا رفعُ الأحكام عنهما، فليس مراداً من هذه النصوص، فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليلٍ آخر».

وقد قال سبحانه وتعالى في نفي الإثم عن المخطئ والناسي: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وفي الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال سبحانه في المكروه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

حكم الخطأ والنسيان

الخطأ: هو إتيان الفعل أو القول على وجه غير مقصود.

والنسيان: هو أن يكون ذاكرةً لشيء ما، ثم ينساه عند الفعل^(٢).

فالمسلم لا يأثم إذا أخطأ أو نسي، لكنه يتحمل تبعة خطئه ونسيانه، لما في ذلك من تعويض وجبر لما يفوت من نقص في العبادات، أو ما يفوت على الناس من الحقوق، إلا ما استثناه الشارع في بعض الأحكام، كمن أكل أو شرب ناسياً وهو صائم فليس عليه الإعادة.

ففي الخطأ مثلاً هناك الدية والكفارة على من قتل خطأً. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» ١١١٦/٣.

(٢) انظر «جامع العلوم والحكم» ١١١٣/٣.

وكمّن صلى ظاناً دخول وقت الصلاة، ولمّا يدخل وقتها بعد، فعليه الإعادة.
هذا في الخطأ أما في النسيان فهناك الإعادة على من صلى من غير وضوء ناسياً. وكذا من نسي ركناً من أركان الصلاة فعليه الإتيان به، أو بتلك الركعة التي نسي ركناً من أركانها. وأمثلة ذلك كثيرة، وفيها تفصيل ليس هذا مقامه. وفيما ذكرنا كفاية.

حكم الإكراه

ومن رحمة الله بعباده أنه رفع عنهم إثم ما يفعلونه، في حال انتفاء اختيارهم وإرادتهم، وهو ما يُكرهون على فعله، فهو مما لا طاقة للإنسان به. ولما نزل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله تعالى: نعم^(١). أي: استجاب الله تعالى لهم.

ولا بد من توافر بعض الشروط حتى يكون الإكراه معتبراً به، ولا يؤاخذ المكره عليه، ولا يتحمل مسؤوليته، وهذه الشروط هي: قدرة المُكرِه على إيقاع ما هُدِّد به، وخوف المكره من إيقاع ما هُدِّد به، وأن يكون ما هُدِّد به قتلًا أو إتلاف عضو، ولو بإذهاب قوته مع بقاءه. وأن يكون المُكرِه ممتنعاً عن الفعل المكره عليه لولا الإكراه، وأن يكون محلُّ الفعل المكره عليه مُتَعَيِّناً. وألا يكون للمكره أي خيار عن الفعل المكره عليه، فإن كان له خيار عنه، ثم فعله لا يكون مُكرهاً عليه^(٢).

فإذا أكره رجل على فعل ما وهو مسلوب الإرادة فإن المسؤولية تقع على من أكرهه، واستثنى العلماء من ذلك الزنا والقتل. فلا يعتبر فيهما الإكراه، ويتحمل المكره فيهما المسؤولية.

(١) أخرجه مسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر «الموسوعة الفقهية الكويتية» ٦/ ١٠١. ففيها شرح وتفصيل واف ومهم للإكراه وأنواعه وشروطه وما يتعلق به.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١- في هذا الحديث بيان سعة رحمة الله تعالى بعباده، إذ رفع عنهم الإثم في حال الخطأ والنسيان وما استكروها عليه.
- ٢- المقاصد والنيات هي مناط المؤاخذة على الأفعال والأقوال.
- ٣- لم ينف الحديث المسؤولية الحقوقية، أو التعبدية عن الناسي والمخطئ، والمكروه أحياناً.
- ٤- على الدعاة والعلماء أن يبينوا للناس سعة هذا الدين، ورحمة الله بعباده، ورفع الحرج عنهم.

الحديث الأربعون

حقيقة الدنيا

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ، فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤١٦).

معاني الغريب

الْمَنْكِبُ: الْكَتِفُ.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يبين هذا الحديث حقيقة الدنيا ومكانتها في الإسلام، وكيف يتعامل المسلم معها. قال ابن رجب^(١): «هذا الحديث أصلٌ في قِصَرِ الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخِذَ الدُّنْيَا وَطَنًا وَمَسْكَنًا، فيطمئنَّ فيها، ولكن ينبغي أن يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يَهَيِّئُ جهازَه للرحيل. وقد اتَّفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]».

من صفات الدنيا في القرآن والسنة

خلق الله تعالى هذه الحياة لتكون دار عبادة وعمل وابتلاء، وجعلها قصيرة، فانية، ووصفها بأنها لهو ولعب وزينة وتكاثر في الأموال والأولاد. وبين رسول الله ﷺ قيمتها

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» ٣/ ١١٢٤.

وهو أنها على الله تعالى في كثير من أحاديثه الشريفة. فهي دار سفر وارتحال، وليست دار مقام واستقرار، لذلك جاء في هذا الحديث قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وقد وصفها الله تعالى في كتابه، ووصفها رسوله الكريم ﷺ في سنته بصفات كثيرة، كلها تُهَوِّنُ من شأنها، كي لا يعتز بها المسلم، ومن ذلك ما يلي:

الدنيا دار عمل وابتلاء

خلق الله تعالى الإنسان في هذه الدنيا، وجعله مستخلفاً فيها، وهياً له سبل العيش فيها، وأنعم عليه بنعم لا تحصى، وجعل الدنيا دار فتنة واختبار للعباد، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦].

الدنيا متاع الغرور

ولما كان الناس يخذعون بهذه الحياة وزينتها، ويستبطنون آجالهم فيها، وينشغلون بمتاعها وزينتها، جاء التنبيه في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ على أن متاعها زائل، فلا يغتر به أحد.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هوان الدنيا على الله

وقد جاء في سنة النبي ﷺ عدة أحاديث في تهوين الدنيا، والتقليل من شأنها، كي لا يغتر بها المسلم، ولا تكون أكبر همه. منها:

عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس كنفثيه، فمرَّ بجدي أسكٍ ميّ، فتناوله بأذنه، ثم قال: «أَيْكُمْ يَحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدْرَهُمْ؟». فقالوا: ما نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وما نصنعُ به؟ قال: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟». قالوا: والله لو كان حياً لكان عيباً فيه، لأنه أسكٌ، فكيف وهو ميّ؟ فقال: والله للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم^(١). ولو نظرنا في هذا الحديث، لن نجد أبلغ منه في وصف الدنيا، وبيان

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٧). (العالية): ما كان من المزارع والقرى من جهة المدينة العليا مما يلي نجد، وتمتد مسافتها من ثلاثة أميال إلى ثمانية. (كنفثيه): جانبيه. (أسك): صغير الأذنين.

هوانها، بصورة جذبي معيب ميت، ملقى على قارعة الطريق، وما كل ذلك إلا لينزع حب الدنيا من قلوب أصحابه ﷺ.

وفي حديث آخر عن سهل بن سعد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَمَْوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١). ففي هذا الحديث ينبه النبي ﷺ على أن العمل الصالح فيها خير من كل ما فيها من زينة وتفاخر ومباهج، وكذا فإن أي موضع صغير في الجنة، ثواباً على ذلك العمل هو خير من الدنيا وما فيها.

وفي الحديث أيضاً عن المستورد بن شداد، قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه في اليمِّ، فليَنظُرْ بِمِ تَرَجِعُ؟»^(٢). ومقارنة بما في الجنة من نعيم وجزاء للمؤمن، فإن الدنيا لا تساوي شيئاً.

وبعد هذه الأحاديث في وصف الدنيا وهوانها، هل يبقى في نفس المؤمن شيء من حلاوتها والركون إليها والاطمئنان بها؟! والمقصود من هذا كله أن يلتفت المسلم إلى مهمته وغاية وجوده في هذه الحياة، وأن يخرج من قلبه حب الدنيا وزينتها، ويعظم الآخرة، وما يقرب منها من قول أو عمل. وللداعية في ذلك كله أكبر نصيب.

قصر الدنيا وسرعة انقضائها

ومن صفات الدنيا التي قد يغفل عنها كثير من الناس أن عُمرَها قصير، وانقضائها سريع، تمر سنواتها كأنها لحظات، والعاقل يلمس ذلك في حياته الدنيا، مهما طال عمره، فكيف بمقارنتها بالآخرة، والخلود في الجنة أو النار، فإنه من المعروف أن أي رقم إذا قارناه بغير المتناهي، فإنه يساوي صفراً. فعمر هذه الدنيا مهما طال فإنه لا تساوي شيئاً

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٦٣). وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

مقارنة بالآخرة. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا، يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ، قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

زوال الدنيا وفناؤها

وفي وصف الدنيا بأنها زائلة، وأن كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، إنما هو من أجل الاستعداد للحياة الباقية الدائمة بالأعمال الصالحة. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ، وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ...﴾ إلى أن قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٤ - ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].
وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

الدنيا دار غربة وارتحال

وفي قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» تأكيد على أن الدنيا دار سفر، وأن المسلم فيها متأهبٌ للرحيل، وهذا هو حال الغريب في دار الغربة، الذي لا يتخذ دار غربته موطنًا، فيتقلل من الزاد والمتاع، لعلمه بأنه راحلٌ عن دار غربته إلى

دار إقامته، وكذلك عابرُ السبيل الذي لا يهْمُهُ إِلَّا أن يقطع مسافة الطريق إلى داره، وأثناء ذلك لا يُثْقِلُ نفسه بالزاد والمتاع، وإنما يكتفي من ذلك بالبلاغ، وكذا المسلم، فإنه يرى في كل يوم من أيامه مرحلةً إلى الآخرة، فليست الدنيا في قلبه دارَ استقرار ومُقام، بل هي دارُ غُربةٍ وارتحال.

وفي هذا المعنى أيضاً جاء عن عبد الله بن مسعود، قال: نام رسول الله ﷺ على حصيرٍ، فقام وقد أثّرَ في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فقال: «ما لي وللدُّنيا، ما أنا في الدُّنيا إِلَّا كراكِبٍ اسْتَظَلَ تحتَ شجرةٍ، ثمَّ راحَ وتركَهَا»^(١).

قصر الأمل والاشتغال بأمر الآخرة

وفي قول ابن عمر: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي» إشارة إلى أن الحديث متوجه إلى شاب في مقتبل العمر، وفي العادة يكون الشباب أكثر استشرافاً للدنيا، وحرصاً عليها، وطلباً لزيارتها، وأملًا في تحصيل رغائبها، واستبعاداً لمكدراتها. فكان فيه توجيه لابن عمر في قصر الأمل، وحثه على العمل، والاشتغال بأمر الآخرة. فصوب نظرته إلى الدنيا وقيمتها، وإلى الآخرة ومكانتها.

ففهم ابن عمر هذا التوجيه النبوي، فكان يقول: «إِذَا أَمْسَيْتَ، فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ». وكان ﷺ مثال الاستجابة لهذه التربية الصالحة، فقد عرف ﷺ بالتزامه بسنة النبي ﷺ، وحرصه على الاقتداء به في جميع أموره، والاشتغال بالعبادات والقربات، والزهد في الدنيا وزينتها، والتقليل منها.

الدنيا فرص وتحديات

وفي قول ابن عمر ﷺ: «وُحِّدْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»، فهم عميق للفرص والتحديات في هذه الحياة، فالصحة فرصة، والمرض تحدٍّ، والشباب

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٣٤)، وابن ماجه (٤١٠٩). وهو حديث صحيح.

فرصةٌ والهرمُ تحدُّ، والغنىُ فرصةٌ والفقرُ تحدُّ، والفراغُ فرصةٌ والانشغالُ تحدُّ، والقوةُ فرصةٌ والضعفُ تحدُّ، والحياةُ فرصةٌ، والموتُ تحدُّ. والعاقلُ هو الذي يغتنمُ هذه الفرصَ فيملؤها بالأعمالِ الصالحة، قبل طُروءِ التحديات، فتعطل قدرته على العمل. لذا كثر التنبيه على هذه الفرص والتحديات في حديث النبي ﷺ، ومنه:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١). ففيه دعوة من النبي ﷺ إلى اغتنام فرصة الصحة والفراغ.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدِّخَانُ، أَوِ الدِّجَالُ، أَوِ الدَّابَّةُ، أَوِ خَاصَّةٌ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرُ الْعَامَةِ»^(٢).

قال ابن رجب بعد أن ساق عدداً من هذه الأحاديث^(٣): «والمرادُّ من هذا أنَّ هذه الأشياءَ كُلُّهَا تعوقُّ عن الأعمالِ، فبعضُها يشغل عنها، إمَّا في خاصَّةِ الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضُها عامٌّ، كقيام الساعة، وخروج الدجال، وكذلك الفتنُ المزعجةُ، كما جاء في حديث آخر: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ»^(٤).

أهم ما يرشد إليه الحديث

١- في هذا الحديث توجيه النبي ﷺ للشباب في التعريف بحقيقة الدنيا.

٢- في هذا الحديث تأكيد على قصر الأمل، والاشتغال بأمر الآخرة.

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).

(٣) انظر «جامع العلوم والحكم» ١١٣٨/٣.

(٤) أخرجه مسلم (١١٨).

-
- ٣- فيه بيان بعض صفات الدنيا، وأنها دار عمل وابتلاء، ودار غربه وارتحال.
- ٤- فيه الحث على اغتنام الفرص، ومواجهة التحديات.
- ٥- فيه دعوة العلماء والدعاة إلى إدراك حقيقة الحياة الدنيا وما جاء فيها، واغتنام الأوقات في العلم والعمل والبناء والدعوة.

الحديث الحادي والأربعون

برهان الإيمان

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّة»^(١) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

شرح الحديث

أهمية الحديث

هذا الحديث أصل في تحقيق الإيمان في قلب المسلم بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأصل في اتباع ما أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ.

المقصود بالهوى

يطلق لفظ الهوى ويراد به عدة معانٍ: منها: الميل عن الحق: كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. ومنها: الحب والميل مطلقاً، وهو المقصود بهذا الحديث. فيكون المعنى هو أن المؤمن لا يكتمل إيمانه إلا بحبه وميله القلبي إلى ما جاء به الإسلام من العقائد والشرائع والأخلاق وسائر الأوامر والنواهي.

محبة الله ورسوله في القرآن والسنة

محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ شيء واحد لا تفريق بينهما، وحب أحدهما يستلزم حب الآخر. لذلك أنزل الله تعالى في كتابه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

(١) هو كتاب «الحجة على تارك المحجة» للشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي.

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي «الصحيحين»^(١) عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ».

وفي الصحيحين أيضاً^(٢): عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ يوم خيبر: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

حب النبي ﷺ يتقدم كل شيء

وإنَّ حَبَّ النَّبِيِّ ﷺ يتقدم على كل حَبٍّ من متاع الدنيا وموجوداتها، ففي الصحيحين^(٣) عن أنس رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وعند البخاري^(٤): عن عبد الله بن هشام، قال: كنا مع النَّبِيِّ ﷺ وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ.

(١) عند البخاري (٩)، ومسلم (٤٣).

(٢) عند البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) عند البخاري (١٥)، ومسلم (٣٣).

(٤) عند البخاري (٦٦٣٢).

جزء محبة النبي ﷺ

وجزاء محبة الرسول ﷺ أن يكون المحب رفيق من يحبه في الجنة، كما في الصحيحين^(١) عن أنسٍ رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا أنني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

علامات محبة الله تعالى ورسوله ﷺ

وهناك علامات على محبة الله تعالى، منها: اتباع نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومنها خفض الجناح للمؤمنين، والعزة على غير المؤمنين، والجهاد في سبيل الله، والشجاعة في الحق، فلا يخاف في الله لومة لائم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومنها: تحكيم شرع الله تعالى في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وغيرها، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مبيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

(١) عند البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

ومن ذلك إقامة الدولة على منهاج النبوة، تتحد فيها جميع أقطار العالم الإسلامي، وتجتمع تحت شعار الخلافة الإسلامية، التي هي أمل الحركة الإسلامية والشعوب الإسلامية في شتى بقاع الأرض.

وهو مشروع يعمل على معاداته والكيد له وتقويضه الاستعمار الغربي، ورأس حربته دولة الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين. قال الدكتور رفيق حبيب^(١): «ويمكن القول بأن الوحدة السياسية الإسلامية، تمثل جوهر المعركة، لذا يتم حصار الفكرة من كل الأطراف المعادية أو المناوئة للمشروع الإسلامي، حتى تتضاءل مكانة الوحدة السياسية للأمة في الخطاب الإسلامي، وتراجع كشعار رئيس للحركة الإسلامية. فشعار الخلافة الإسلامية، والدولة الإسلامية الواحدة، يعبر عن الحلم الذي يراود ملايين الأمة الإسلامية، ويمثل اللافتة التي تجمع كل البلاد العربية والإسلامية معاً، والعنوان الأبرز للتاريخ الناهض للأمة الإسلامية. وهو شعار يملك من القوة ما يجعله شعاراً يجمع الأمة، ويوحد توجهها، ويدفعها لتحقيق وحدتها. لذا تم حصار هذا الشعار، والضغط على الحركة الإسلامية حتى تضع الشعار في موضع ضمني في خطابها، بل واعتبر الشعار في حد ذاته، نوعاً من العداء للدولة القومية القطرية القائمة».

وفي الجملة، فإن محبة الله ورسوله تقتضي العمل بما أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ، وأن يحب ما يحبه الله ورسوله ﷺ، وأن يكره ما يكرهه الله ورسوله ﷺ، قال ابن رجب^(٢): «فمن أحبَّ الله ورسوله محبةً صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أن يُحِبَّ بقلبه ما يُحِبُّه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله

(١) في مقاله القيم: «الإسلام الجديد.. مشروع بلا خلافة». المنشور في مجلة الوعي اللبنانية العدد ٢٧٩، السنة الرابعة والعشرون، ربيع الثاني ١٤٣١هـ، الموافق نيسان ٢٠١٠م. على الرابط:

<https://www.al-waie.org/archives/article/5931>

(٢) انظر «جامع العوم والحكم» ٣/ ١١٥٠.

ورسوله، ويرضى بما يرضى الله ورسوله، ويسخط ما يسخطه الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، فإن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة».

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - المؤمن يحب ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله ﷺ.
- ٢ - مقتضى محبة الله ورسوله الامتثال لشرع الله تعالى.
- ٣ - شرع الله يشمل كل مناحي الحياة الفردية والجماعية ومنها إقامة الدولة الإسلامية.
- ٤ - على الدعاة والعلماء أن يعملوا على ردم الفجوة بين حب الناس لله ورسوله ﷺ وبين تطبيق شرع الله.

الحديث الثاني والأربعون

أسباب المغفرة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ. يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وقال: حديث حسن.

معاني الغريب

عنان: العنان: السحاب.

قُرَاب: أي ما يقارب ملاءها.

شرح الحديث

أهمية هذا الحديث

يُعد هذا الحديث القدسي من أوسع الأحاديث في بيان رحمة الله تعالى للمؤمنين، وسعة مغفرته لهم، بالأسباب الثلاثة المذكورة فيه، وهي الدعاء مع الرجاء، والاستغفار، وتوحيد الله تعالى.

الدعاء وطلب المغفرة

في هذا الحديث بيان أن المغفرة من الله تبارك وتعالى لعبده المؤمن من أعظم النعم بعد الإيمان، وهي سبب دخوله الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُمْسِكْ عَلَيْهِمْ سَبِيلَهُمْ﴾. فالدعاء هو التضرع إلى الله تعالى بطلب المغفرة، وهو من أعظم النعم بعد الإيمان.

مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦]. وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وهذه النعمة أعظم من الحياة الدنيا بما فيها من الصحة والمال والجاه والولد، ومن أجل هذه النعمة فقد حث الله عباده من الأنبياء والأولياء والصالحين على دعائه سبحانه وتعالى، وطلب مغفرته، ولقد أكثر القرآن الكريم من الآيات التي تصف حال الأنبياء في طلب المغفرة من الله تعالى، من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، ثم طلبها على لسان المؤمنين من عباد الله الصالحين:

استغفار الأنبياء عليهم السلام

ففي استغفار الأنبياء آيات كثيرة، منها على لسان آدم عليه السلام وزوجه، قال الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

وفي استغفار نوح عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]

وفي استغفار إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]

وفي استغفار موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]. وقال سبحانه: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥ - ١٦].

وفي استغفار داود عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَوَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤ - ٢٥].
وفي استغفار سليمان عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]

وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يستغفر الله، فقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].
والمغفرة هي أعظم نعمة امتن الله سبحانه بها على نبيه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٢]. وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [الشرح: ١ - ٢].

استغفار النبي ﷺ

وقد ورد في استغفار النبي ﷺ أحاديث كثيرة، فيها تعليم للمسلمين أن يكثروا من الاستغفار اقتداء به ﷺ: فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).
وعن الأغر المزني، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمَقْدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢). ليغان: أي: ما يتغشى القلب من الفتور عن ذكر الله.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٨) و(٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩).

وعن ابن عمر، قال: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِئَةَ مَرَّةٍ، يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ»^(١).

استغفار المؤمنين

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاستغفار، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]. ثم كان الاستغفار صفة ملازمة لهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أُوْبَتُّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

كلمة التوحيد وحقها

وفي قول الله تعالى: «يا ابن آدم إِنَّكَ لو أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرُكَ بِي شَيْئًا، لَأَتِيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». دلالة على أن توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، هو أعظم أسباب المغفرة، ودخول الجنة، وقد تكرر ذلك في القرآن والسنة، ومنه قول الله تبارك تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقول النبي ﷺ: «من لقي الله، وهو لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤)، والترمذي (٣٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٠٩) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٦٥٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو. وإسناده صحيح.

وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «ما من أحدٍ يشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، صدَّقاً من قلبه، إلَّا حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ»^(١).

ففي هذه الأحاديث أن كلمة التوحيد كفيلة بأن تدخل صاحبها الجنة، أما إن كان من أصحاب الكبائر، ومات عليها، ولم يستغفر، فإن أمره إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه، ثم أدخله الجنة.

أهم ما يرشد إليه الحديث

- ١ - المغفرة هي أعظم نعمة، وأعظم جزاء يمن الله تعالى بها على عباده.
- ٢ - الاستغفار دأب الأنبياء والصالحين.
- ٣ - توحيد الله، وعدم الإشراف به أساس المغفرة، ودخول الجنة.
- ٤ - على العلماء والدعاة تبشير المؤمنين بسعة رحمة الله ومغفرته، وحثهم على كثرة الاستغفار، والتوبة إلى الله.

(١) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) من حديث أنس بن مالك.

قائمة المراجع

- ١ - أحاديث أبي الحسين الكلابي، أبو الحسين عبد الوهاب بن الحسن بن الوليد بن موسى الكلابي الدمشقي (المتوفى: ٣٩٦هـ)، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية. ومنشور في المكتبة الشاملة.
- ٢ - أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام: الدكتور عبد الكريم زيدان.
- ٣ - إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة - بيروت.
- ٤ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجَزَري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، تحقيق علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٥ - إسماعيل بن أبي أويس ومروياته في صحيح البخاري، الدكتور هيثم عبد الغفور، الآثار الشرقية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠١١.
- ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ
- ٧ - الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ) تحقيق ودراسة: الجزء الأول: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير. الجزء الثاني: د. سعد بن عبد الله آل حميد. الجزء الثالث: د. هشام بن إسماعيل الصيني. الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى. ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- ٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٩- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢م.
- ١٠- الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، (المتوفى: ٥٦٠هـ)، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ.
- ١١- تاريخ الإسلام، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.
- ١٢- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ). دار التراث - بيروت. الطبعة الثانية - ١٣٨٧هـ.
- ١٣- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، مراجعة: علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
- ١٤- التبيان في أقسام القرآن». محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دراسة وتحقيق حمزة بن محمد علي ياسين عسيري، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، ٢٠٠١.
- ١٥- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- ١٦- التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الرِّيِّ (المتوفى: ٦٠٦هـ). دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.
- ١٧- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزني (المتوفى: ٧٤٢هـ)، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ م.
- ١٨- تهذيب موسوعة الفتن وأشراف الساعة، الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، والدكتور محمد همام ملحم، والدكتور هيثم عبد الغفور صبري، دار البيان، الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦ م.
- ١٩- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَّلامِي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) تحقيق الدكتور محمد الأحمدِي أبو النور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ٢٠- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير، مؤسسة هداوي للتعليم والثقافة. ٢٠١٣.
- ٢١- الرسالة، لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي، القيرواني، المالكي (المتوفى: ٣٨٦هـ). دار الفكر.
- ٢٢- الرسائل، للإمام الشهيد حسن البنا. طبعة دار البصائر للبحوث والدراسات، القاهرة، ٢٠١٠.
- ٢٣- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، ومحمد كامل قره بللي، وعبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٤- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

٢٥- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢٦- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٢٧- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)، مؤسسة الريان، الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٨- شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، للإمام يحيى بن شرف الدين النووي، نشر مكتبة دار الفتح/دمشق، توزيع المكتب الإسلامي/بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٩- صحيح البخاري، (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة العالمية - دمشق الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.

٣٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق عادل مرشد، وسعيد اللحام، وهيثم عبد الغفور، وأحمد برهوم. مؤسسة الرسالة العالمية.

- ٣١- الفتن، أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (المتوفى: ٢٢٨هـ)، تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢.
- ٣٢- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة السابعة عشر - ١٤١٢هـ.
- ٣٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى. ١٣٥٦هـ.
- ٣٤- القدر وما ورد في ذلك من الآثار، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (المتوفى: ١٩٧هـ)، تحقيق د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم، دار السلطان - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.
- ٣٥- قطف الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق خليل الميس، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
- ٣٦- المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي)، أبو عبد الرحمن أحمد ابن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
- ٣٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٣٨- المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقاء، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة السابعة، ١٩٦٣.

- ٣٩- مستخرج أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٤٠- المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، الحاكم النيسابوري، (المتوفى: ٤٠٥هـ)، طبعة دار المعرفة - بيروت، والمصورة عن الطبعة الهندية.
- ٤١- مسند ابن الجعد، علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ - ١٩٩٠.
- ٤٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٤٣- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٤٤- مشيخة أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي، القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد ابن أبي يدّاس البرزالي الإشبيلي ثم الدمشقي، أبو محمد، عَلم الدين (المتوفى: ٧٣٩هـ)، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر - دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٤٥- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩.
- ٤٦- معالم السنن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية - حلب، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

- ٤٧- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. ٢٢١/٣.
- ٤٨- المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجَمَاعِي المَقْدِسِي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٤٩- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ.
- ٥٠- من حديث الإمام سفيان بن سعيد الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (المتوفى: ١٦١هـ)، رواية: السري بن يحيى عن شيوخه عن الثوري، ورواية: محمد بن يوسف الفريابي عن الثوري، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية [ضمن سلسلة الأجزاء والكتب الحديثية (٣١)]، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م.
- ٥١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢.
- ٥٢- المنهج المبين في شرح الأربعين، عمر بن علي الفاكهاني المالكي ٧٣١هـ، تحقيق شوكت بن رفقي بن شوكت، دار الصمعي، الرياض، ط ١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- ٥٣- الموسوعة الفقهية الكويتية، صادرة عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الأجزاء ١ - ٢٣: الطبعة الثانية، دار السلاسل - الكويت. الأجزاء ٢٤ - ٣٨: الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة - مصر. الأجزاء ٣٩ - ٤٥: الطبعة ٢، طبع وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت. (من ١٤٠٤ - ١٤٢٧هـ).

- ٥٤ - موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٥٥ - نظم المتناثر، أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض جعفر بن إدريس الحسني الإدريسي الشهير بالكتاني (المتوفى: ١٣٤٥هـ)، تحقيق: شرف حجازي، دار الكتب السلفية - مصر.
- ٥٦ - النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي
- ٥٧ - النية والإخلاص، الدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة.

فهرس المحتويات

٥.....	المقدمة
٦.....	منهجنا في الشرح
٨.....	مقدمة المؤلف
١١	الحديث الأول: حياة المسلم كلها لله
١١	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٢	معاني الغريب
١٣	شرح الحديث
١٣	أهمية هذا الحديث ومكانته في الإسلام
١٤	شهرة معنى هذا الحديث
١٥	التوجه إلى الله بالنية الصالحة سبب قبول الأعمال
١٦	الهجرة فرق بين الحق والباطل
١٧	الحديث أصل في تحرير المقاصد وصلاح المجتمع
١٨	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٩	الحديث الثاني: أركان الدين
٢٠	معاني الغريب
٢٠	سبب ورود الحديث
٢١	شرح الحديث
٢١	أهمية هذا الحديث
٢١	من آداب العالم والمتعلم
٢٣	سؤاله عن الإسلام
٢٤	سؤاله عن الإيمان
٢٦	سؤاله عن الإحسان

٢٦	سؤاله عن الساعة وعلاقتها
٢٨	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٩	الحديث الثالث: أركان الإسلام
٢٩	التعريف بالصحابي راوي الحديث
٣٠	شرح الحديث
٣٠	أهمية الحديث
٣٠	الشهادة
٣٣	نواقض الشهادة
٣٣	الصلاة ومنزلتها في الإسلام
٣٤	الزكاة ومنزلتها في الإسلام
٣٥	الحج ومنزله في الإسلام
٣٦	الصوم ومنزله في الإسلام
٣٧	منزلة الجهاد من هذه الأركان
٣٧	أهم ما يرشد إليه الحديث
٣٩	الحديث الرابع: قدرة الله وقدره
٣٩	التعريف بالصحابي راوي الحديث
٤٠	معاني الغريب
٤١	شرح الحديث
٤١	أهمية الحديث
٤١	مدة تخليق الإنسان
٤٣	أطوار خلق الجنين في العلم الحديث
٤٤	أطوار خلق الجنين في القرآن
٤٦	نفخ الروح في الإنسان
٤٧	كتابة الرزق والأجل والعمل وشقي أو سعيد

٤٨	 الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل
٤٨	 حسن الخاتمة
٤٩	 أهم ما يرشد إليه الحديث
٥٠	 الحديث الخامس: رد البدع
٥٠	 التعريف بأهم المؤمنين عائشة رضي الله عنها
٥٠	 شرح الحديث
٥٠	 أهمية هذا الحديث
٥١	 مفهوم الإحداث في الدين
٥٣	 كمال الدين
٥٤	 أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
٥٥	 الحديث السادس: اتقوا الشبهات
٥٥	 التعريف بالصحابي راوي الحديث
٥٦	 معاني الغريب
٥٦	 شرح الحديث
٥٦	 أهمية هذا الحديث
٥٦	 ظهور معالم الإسلام ووضوحها
٥٧	 المشتبهات
٥٧	 موقف المسلم من المشتبهات
٥٩	 صلاح القلب
٦٠	 أهم ما يرشد إليه الحديث
٦١	 الحديث السابع: الدين النصيحة
٦١	 التعريف بالصحابي راوي الحديث
٦١	 معاني الغريب
٦٢	 شرح الحديث

٦٢	أهمية هذا الحديث
٦٢	التناصح بين المسلمين
٦٣	النصيحة لله
٦٤	النصيحة لكتابه
٦٤	النصيحة لرسوله
٦٥	النصيحة لأئمة المسلمين
٦٦	النصيحة لعامة المسلمين
٦٧	من آداب التناصح بين المسلمين
٦٨	أهم ما يرشد إليه الحديث
٦٩	الحديث الثامن: عصمة الدماء والأموال في النظام الإسلامي
٦٩	معاني الغريب
٦٩	تواتر هذا الحديث
٧٠	شرح الحديث
٧٠	أهمية هذا الحديث
٧٠	شبهة وردها
٧٥	الصلاة والزكاة أهم العبادات
٧٥	عصمة دم المسلمين وغيرهم ممن في بلاد المسلمين
٧٦	أهم ما يرشد إليه الحديث
٧٧	الحديث التاسع: منهج التلقي في الإسلام
٧٧	التعريف بالصحابي راوي الحديث
٧٨	مناسبة ورود الحديث
٧٨	أهمية هذا الحديث
٧٨	مشروعية السؤال ومنهجيته في الإسلام
٨٢	الاختلاف على الأنبياء

٨٣	منهج التعامل مع الأوامر والنواهي
٨٥	يسر الدين ورفع الحرج
٨٥	فقه الأولويات
٨٦	أهم ما يرشد إليه الحديث
٨٧	الحديث العاشر: الدعاء المستجاب
٨٧	شرح الحديث
٨٧	أهمية هذا الحديث
٨٧	إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً
٨٩	الكسب الطيب دأب المرسلين والمؤمنين
٨٩	من أسباب إجابة الدعاء في الحديث
٩٢	ما يمنع إجابة الدعاء
٩٢	أهم ما يرشد إليه الحديث
٩٣	الحديث الحادي عشر: الورع
٩٣	التعريف بالصحابي راوي الحديث
٩٤	معاني الغريب
٩٤	شرح الحديث
٩٤	أهمية هذا الحديث
٩٤	الورع
٩٥	من فساد الزمان قلة الورع
٩٥	صور من ورع الصالحين
٩٧	أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
٩٨	الحديث الثاني عشر: ترك المسلم ما لا يعنيه
٩٨	شرح الحديث
٩٨	أهمية هذا الحديث

٩٩	المقصود بالحديث
١٠١	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٠٣	الحديث الثالث عشر: بناء الأمة بالمحبة
١٠٣	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٠٣	شرح الحديث
١٠٣	أهمية هذا الحديث
١٠٤	المؤمن يحب الهداية للناس
١٠٥	العلماء يحبون الخير للعلماء والناس
١٠٦	من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم
١٠٦	مجتمع التحاب والتكامل
١٠٧	أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
١٠٨	الحديث الرابع عشر: حرمة الدماء في الإسلام
١٠٨	معاني الغريب
١٠٨	شرح الحديث
١٠٨	أهمية الحديث
١٠٨	الثيب الزاني
١٠٩	النفس بالنفس
١١٠	المرتد عن الإسلام
١١١	تطبيق الحدود مسؤولية الدولة
١١٢	ثبات الحدود والقصاص
١١٣	أهم ما يرشد إليه الحديث
١١٤	الحديث الخامس عشر: من علامات الإيمان
١١٤	شرح الحديث
١١٤	أهمية هذا الحديث

١١٤	قول الخير أو الصمت
١١٦	إكرام الجار
١١٧	إكرام الضيف
١١٩	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٢٠	الحديث السادس عشر: ذم الغضب
١٢٠	شرح الحديث
١٢٠	أهمية هذا الحديث
١٢٠	وصايا النبي ﷺ
١٢١	الغضب وأحواله وآثاره
١٢٢	علاج الغضب
١٢٣	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٢٥	الحديث السابع عشر: الإحسان في كل شيء
١٢٥	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٢٥	شرح الحديث
١٢٥	أهمية هذا الحديث
١٢٦	الإحسان في الاعتقادات والعبادات
١٢٦	الإحسان في الأعمال والمهن
١٢٩	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٣٠	الحديث الثامن عشر: التقوى وحسن الخلق
١٣٠	التعريف بالصحابيين راويي الحديث
١٣١	شرح الحديث
١٣١	أهمية الحديث
١٣١	اتق الله حيثما كنت
١٣٣	وأتبع السيئة الحسنة تمحها

١٣٣	وخالق الناس بخلق حسن
١٣٤	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٣٥	الحديث التاسع عشر: احفظ الله يحفظك
١٣٥	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٣٦	شرح الحديث
١٣٦	أهمية الحديث
١٣٦	احفظ الله يحفظك
١٣٩	سؤال الله تعالى والاستعانة به
١٤١	النافع والضار هو الله
١٤٢	الصبر طريق النصر
١٤٣	الفرج بعد الكرب
١٤٤	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٤٦	الحديث العشرون: الحياء ميراث الأنبياء
١٤٦	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٤٦	معنى الغريب
١٤٧	شرح الحديث
١٤٧	أهمية هذا الحديث
١٤٧	الحياء شعبة من الإيمان
١٤٧	أصناف الناس في الحياء
١٤٨	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٥٠	الحديث الحادي والعشرون: الاستقامة على الإيمان
١٥٠	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٥٠	شرح الحديث
١٥٠	أهمية الحديث

١٥١	تعلم الإسلام بشموله
١٥٢	الإيمان أولاً
١٥٢	الاستقامة
١٥٤	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٥٥	الحديث الثاني والعشرون: الطريق إلى الجنة
١٥٥	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٥٥	شرح الحديث
١٥٥	أهمية الحديث
١٥٥	سؤال الجنة
١٥٧	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٥٨	الحديث الثالث والعشرون: العبادات نور وبرهان
١٥٨	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٥٨	معاني الغريب
١٥٩	شرح الحديث
١٥٩	أهمية الحديث
١٥٩	الطهارة شرط الإيمان
١٥٩	فضل التحميد والتسبيح
١٦١	الصلاة نور
١٦١	الصدقة برهان
١٦٢	الصبر ضياء
١٦٣	القرآن حجة
١٦٣	الناس بين النجاة والهلاك
١٦٤	أهم ما يرشد إليه الحديث

١٦٦.....	الحديث الرابع والعشرون: عظمة الله تعالى
١٦٧.....	شرح الحديث
١٦٧.....	الحديث القدسي
١٦٧.....	أهمية الحديث
١٦٧.....	تحريم الظلم
١٦٩.....	الله الصمد
١٧١.....	الله الغني
١٧١.....	الإنسان مسؤول
١٧٢.....	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٧٣.....	الحديث الخامس والعشرون: أنواع الصدقات
١٧٣.....	معاني الغريب
١٧٣.....	شرح الحديث
١٧٣.....	أهمية هذا الحديث
١٧٤.....	تنافس الصحابة في الطاعات وحزنهم على فواتها
١٧٥.....	مفهوم الصدقة وأنواعها
١٧٦.....	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٧٧.....	الحديث السادس والعشرون: شكر الله على نعمه
١٧٧.....	معاني الغريب
١٧٧.....	شرح الحديث
١٧٧.....	أهمية الحديث
١٧٧.....	نعمة المفاصل للإنسان
١٧٨.....	شكر الله بالأعمال
١٨٠.....	فضل صلاة الضحى
١٨١.....	أهم ما يرشد إليه الحديث

١٨٢	الحديث السابع والعشرون: البر والإثم
١٨٢	التعريف بالصحابيين راويي الحديثين
١٨٣	شرح الحديث
١٨٣	أهمية الحديثين
١٨٣	البر حسن الخلق
١٨٤	الإثم ما حاك في النفس
١٨٤	الفطرة السليمة
١٨٥	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٨٦	الحديث الثامن والعشرون: موعظة مودع
١٨٦	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٨٦	شرح الحديث
١٨٦	أهمية هذا الحديث
١٨٧	الموعظة من سنة النبي ﷺ
١٨٧	البلاغة في الموعظة
١٨٨	طلب الوصية
١٨٨	الوصية بالتقوى، والسمع والطاعة في المعروف
١٨٩	الاعتصام بالسنة عند اختلاف الأمة
١٩٠	التحذير من البدع
١٩١	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٩٢	الحديث التاسع والعشرون: أبواب الخير
١٩٢	معاني الغريب
١٩٣	شرح الحديث
١٩٣	أهمية الحديث
١٩٣	دخول الجنة بالأعمال

١٩٣.....	بين السائل والمسؤول
١٩٤.....	العبادة في الإسلام
١٩٥.....	رأس الأمر وعموده وذروة سنامه
١٩٦.....	حفظ اللسان
١٩٦.....	أهم ما يرشد إليه الحديث
١٩٨.....	الحديث الثلاثون: كمال الإسلام وشموله ورحمته
١٩٨.....	التعريف بالصحابي راوي الحديث
١٩٨.....	شرح الحديث
١٩٨.....	أهمية الحديث
١٩٩.....	الفريضة
٢٠٠.....	بين الفرض والواجب
٢٠٠.....	الحدود
٢٠١.....	الحرام
٢٠١.....	المسكوت عنه
٢٠١.....	البحث والتحري في المسكوت عنه
٢٠٢.....	أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
٢٠٣.....	الحديث الحادي والثلاثون: المحبة ثمرة الزهد
٢٠٣.....	التعريف بالصحابي راوي الحديث
٢٠٣.....	معاني الغريب
٢٠٤.....	شرح الحديث
٢٠٤.....	أهمية هذا الحديث
٢٠٤.....	الزهد في الدنيا
٢٠٦.....	ما يُمدَح من الدنيا وما يذم
٢٠٦.....	الزهد فيما في أيدي الناس

أهم ما يرشد إليه الحديث	٢٠٨
الحديث الثاني والثلاثون: لا ضرر ولا ضرار	٢٠٩
التعريف بالصحابي راوي الحديث	٢٠٩
معاني الغريب	٢٠٩
شرح الحديث	٢١٠
أهمية هذا الحديث	٢١٠
القواعد الفقهية في هذا الباب	٢١٠
من صور النهي عن المضارة	٢١٠
أهم ما يرشد إليه هذا الحديث	٢١٢
الحديث الثالث والثلاثون: البيئة على المدعي واليمين على من أنكر	٢١٣
معاني الغريب	٢١٣
شرح الحديث	٢١٣
أهمية الحديث	٢١٣
خطر العلاقات بين الناس	٢١٣
البيئات	٢١٤
لماذا طلبت البيئة من المدعي	٢١٥
اليمين على المدعى عليه	٢١٥
من أخلاق المسلمين	٢١٥
أهم ما يرشد إليه هذا الحديث	٢١٦
الحديث الرابع والثلاثون: فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٢١٧
شرح الحديث	٢١٧
أهمية هذا الحديث	٢١٧
قصة للحديث	٢١٨
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد	٢١٩

٢١٩.....	من ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٢٠.....	الإنكار بالقلب
٢٢٢.....	المسلمون بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٢٣.....	المسلم لا يمل من تكرار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٢٤.....	أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
٢٢٥.....	الحديث الخامس والثلاثون: آفات الأخوة بين المسلمين
٢٢٥.....	معاني الغريب
٢٢٥.....	شرح الحديث
٢٢٥.....	أهمية الحديث
٢٢٦.....	آفة التحاسد
٢٢٧.....	آفة التناجش
٢٢٧.....	آفة التباغض
٢٢٨.....	آفة التدابر
٢٢٩.....	آفة البيع على البيع
٢٢٩.....	آفات تطعن بالأخوة
٢٣١.....	التقوى أساس العلاقات بين المسلمين
٢٣٢.....	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٣٣.....	الحديث السادس والثلاثون: الطريق إلى الجنة
٢٣٣.....	معاني الغريب
٢٣٤.....	شرح الحديث
٢٣٤.....	أهمية الحديث
٢٣٤.....	الإعانة
٢٣٤.....	التفريج على المكروبين والمُعسرين
٢٣٦.....	ستر عورات المسلمين

٢٣٦	طلب العلم ومدارسته
٢٣٧	العمل الصالح ميزان التفاضل
٢٣٨	أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
٢٣٩	الحديث السابع والثلاثون: سعة فضل الله
٢٣٩	معاني الغريب
٢٣٩	شرح الحديث
٢٣٩	أهمية هذا الحديث
٢٤٠	جزاء الحسنات
٢٤١	الهم بالحسنات
٢٤١	جزاء السيئات والهم بها
٢٤٢	العزم والإصرار على المعصية
٢٤٣	من أسباب تعظيم السيئة
٢٤٣	ترك السيئة لأجل الله
٢٤٤	أهم ما يرشد إليه هذا الحديث
٢٤٥	الحديث الثامن والثلاثون: دفاع الله عن أوليائه
٢٤٥	معاني الغريب
٢٤٦	شرح الحديث
٢٤٦	أهمية هذا الحديث
٢٤٦	إعلان الحرب من الله على أعداء أوليائه
٢٤٦	أسباب ولاية الله للمؤمنين
٢٤٨	نصرة الله تعالى لأوليائه
٢٤٨	استجابة الله تعالى لدعاء أوليائه
٢٤٩	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٥٠	الحديث التاسع والثلاثون: أحوال رفع الإثم

٢٥٠	معاني الغريب
٢٥٠	شرح الحديث
٢٥٠	أهمية الحديث
٢٥٠	رحمة الله تعالى بعباده
٢٥١	حكم الخطأ والنسيان
٢٥٢	حكم الإكراه
٢٥٣	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٥٤	الحديث الأربعون: حقيقة الدنيا
٢٥٤	معاني الغريب
٢٥٤	شرح الحديث
٢٥٤	أهمية هذا الحديث
٢٥٤	من صفات الدنيا في القرآن والسنة
٢٥٥	الدنيا دار عمل وابتلاء
٢٥٦	الدنيا متاع العُزُر
٢٥٦	هوان الدنيا على الله
٢٥٧	قصر الدنيا وسرعة انقضائها
٢٥٨	زوال الدنيا وفناؤها
٢٥٨	الدنيا دار غربّة وارتحال
٢٥٩	قصر الأمل والاشتغال بأمر الآخرة
٢٥٩	الدنيا فرص وتحديات
٢٦٠	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٦٢	الحديث الحادي والأربعون: برهان الإيمان
٢٦٢	شرح الحديث
٢٦٢	أهمية الحديث

٢٦٢	المقصود بالهوى
٢٦٢	محبة الله ورسوله في القرآن والسنة
٢٦٣	حب النبي ﷺ يتقدم كل شيء
٢٦٤	جزاء محبة النبي ﷺ
٢٦٤	علامات محبة الله تعالى ورسوله ﷺ
٢٦٦	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٦٧	الحديث الثاني والأربعون: أسباب المغفرة
٢٦٧	معاني الغريب
٢٦٧	شرح الحديث
٢٦٧	أهمية هذا الحديث
٢٦٧	الدعاء وطلب المغفرة
٢٦٨	استغفار الأنبياء عليهم السلام
٢٦٩	استغفار النبي ﷺ
٢٧٠	استغفار المؤمنين
٢٧٠	كلمة التوحيد وحقها
٢٧١	أهم ما يرشد إليه الحديث
٢٧٢	قائمة المراجع
٢٨٠	فهرس المحتويات